الحقيقة و الأسطورة
في العهد القديم

محمود يوسف الكبرا

الحقيقة و الأسطورة في العهد القديم

قراءة كتابية في جذور الأصولية الغربية

- **الحقيقة والأسطورة في العهد القديم.**
  قراءة كتابية في جذور الأصولية الغربية.

- **تأليف: محمود يوسف الكبرا.**
- **الطبعة الأولى: 2010.**
- **عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.**
- **الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-18-288-5**

جميع الحقوق محفوظة لدار مؤسسة رسلان

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241
ص. ب: 30598
daraladdinsyria@gmail.com

دار مؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5627060
00963 11 5637060
فاكس: 00963 11 5632860
ص. ب: 259 جرمانا
darrislansyria@gmail.com

وفـــاءً لذكرى
السيدة زويـــا ميخائيلينكو
لدورها الكبير في مسيرة دار علاء الدين

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ ﴾

القرآن الكريم سورة الأنعام الآيات 75-78

المقدمـــــة

القضية التي أتناولها اليوم بالبحث والدراسة تُعنى بالكتب السماوية بوصفها تاريخاً وتراثاً وعقائد دينية مورّثة من أجيال الماضي إلى جيل الحاضر. وهذه القضية جدلية خلافية تدعو إلى التأمل الذي يثير الكثير من علامات الاستفهام، حتى يكاد يستفز الشك والريبة أحياناً حول (صحة ألوهية) العديد من الروايات والنصوص التي تتعلق بالكتاب المقدس بشقّه (العهد القديم)، حيث دونت هذه النصوص على مدى عصور مختلفة ومتباعدة فيما بينها، ووجدنا أن بعض هذه النصوص لا ترقى لأن تكون تاريخاً يعتد به، ومن الممكن أن يشكل أساساً صالحاً لرصد تاريخ منطقة الشرق القديم أو لدراسة التطورات التاريخية والجغرافية والحضارية التي طرأت عليه.

فمعظم المؤرخين والكتاب من تاريخيين ولاهوتيين، شرقيين وغربيين، حاولوا اعتماد ما دوَّنه الكتبة القدامى في بعض هذه النصوص، واعتبروه أساساً صالحاً لتقييم الأحداث والتطورات وقراءة التاريخ لمنطقة حضارية أنتجت وانتهجت هذه الديانات بمذاهبها المتعددة والمتنوعة، والتي شكلت بدورها تراثاً حضارياً ومدنياً كان له دوراً مهماً في السياق الحضاري للإنسانية جمعاء، ويعود ذلك غالباً إلى الأسباب الوراثية للأيديولوجية الدينية المعتنقة، التي ألزمت معتنقيها الدفاع عن هذه النصوص اللاهوتية والاستنصار لها وتوظيف الإمكانيات العلمية المكتسبة لإثبات صحتها وتفوقها على غيرها من المعتقدات الأخرى، ليشكل هذا الموروث، فيما بعد، أساساً تبنى عليه جميع نتائج الدراسات الكتابية. وهذا ما خلق حالة من الغموض والتهويش على جميع محاولات إعادة تقييم النص الكتابي، وتقديمه بشكل علمي ومنطقي يتوافق مع النتائج المذهلة التي أثبتتها علوم فك رموز اللغات القديمة وقراءة الرُقم واللقى

الأثرية المكتشفة حديثاً، حيث أثبتت فيما أثبتته عقم تبني النصوص العبرية للقصص والأحداث التاريخية الأسطورية، التي دُوِّنت في متن الرواية التوراتية (العهد القديم).

الأمر الطبيعي أن تصنع الأمم تاريخها بنفسها، وأن يقوم أبناؤها بتدوين هذا التاريخ، إلا أن منطقة الشرق، لا سيما المنطقة العربية، كانت قد تركت ومنذ زمنٍ بعيد للآخرين، وأحياناً للأعداء، مهمة إعادة كتابة تاريخها، ليدونوه بما يتوافقُ ومنطلقاتهم الفكرية والأيديولوجية لتكريس وتسويق روايتهم المزعومة، على الرغم مما شابها من خرافة وخلط فاضح بين التاريخ واللاهوت والسياسة، وبين الواقع والأسطورة.

الأمر الأكثر خطورة في هذا الموضوع هو التبني الخاطئ للتفسير التوراتي والإنجيلي، الذي قدّمه الأحبار والكهنة الكتابيون القدامى لمضمون (الكتاب المقدس) بشقيه العهد القديم والعهد الجديد، بشكل أصبح فيه هذا الشرح والتفسير موروثاً مقدساً يوصم من يتوجه إليه بالنقد أو إعادة التفسير بالخروج عن النص المقدس أو عن الملة والجماعة!

أتمنى على القارئ الكريم أن يجري محاولة لتتبع ما جاء به وما فسّره المفسرون والكتبة عامةً (من يهود ومسيحيين ومسلمين) قبل عدة قرون، ومقارنتها مع الحقائق العلمية والمكتشفات الأثرية الحديثة، لأنه سيكتشف بهذه المقارنة أن بعض التفاسير والاجتهادات كانت محكومة بالواقع السياسي وبطبيعة الأنظمة الحاكمة وتوجهات الأمراء والملوك والأباطرة والولاة والسلاطين، كما يحصل مع بعض رجال الفتوى اليوم، نتيجةً لتناقضات داخل السلطة الحاكمة أولاً، وافتعالٍ لفتن مدبرة ثانياً، حيثُ تمكنت الكثير من الإسرائيليات، وغيرها، من النفاذ والتغلغل داخل المرويات والمنظومات اللاهوتية (الإسلامية والمسيحية) بطريقة مُمَنهجة ومنظمة.

ويحق لنا أن نتساءل: هل هذا الموروث الذي بين أيدينا، إسلامياً ومسيحياً، كان محكوماً بنتائج وإفرازات الحروب (الفرنجية الصليبية) على بلاد الشرق في وقت لم تكن فيه هناك دولة يهودية صهيونية؟

ولما لم تكن هذه الإسرائيليات والاختراقات والمعتقدات الخاطئة ذات بالٍ وأهمية لدى الحكام والقادة ورجال الدين بمثل ما هي عليه اليوم، فإنه يجب أن لا يكون هذا الاهتمام اليوم نتيجةً لردات الفعل الطارئة، ونتيجة أيضاً لقيام الدولة الصهيونية الغاصبة وتعاظم الحملة الغربية المعادية للعرب والمسلمين (التي تصنع من الإسلام "فوبيا").

ويمكننا أن نلاحظ أن بعض المفسرين والكتّاب القدامى (مسلمين ومسيحيين) أسبغوا أوصاف الورع والقدسية على كثير من الكهان والحكماء والمغامرين اليهود لمجرد ورود ذكرهم في الروايتين (الإنجيلية والقرآنية)، وكِيلَ

لهم المديح، لا سيما الملوك القدامى والحكماء الذين وصفوا جهلاً بالأنبياء، دون إعمال العقل بالرواية العبرية، نقداً أو مراجعةً، لقراءة ما بين سطورها من دعوات للقتل والتحريم والتكذيب، والسلب والنهب، والاستباحة والحط من قدر الأنبياء، وما في الرواية من دعاوى للإباحة وتبرير الغش والمكر والخديعة وتسويقها على أنها أوامر إلهية. هذه الموبقات تبعد الرواية الكتابية من أن تكون توراة النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) وأوامر الوحي الإلهي!

﴿و إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يلوُونَ أَلْسنَتَهُم بِالكِتَابِ لتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَاهُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فاليهود بمعظمهم كانوا قد خرجوا على شريعة وناموس النبي موسى، وتبعوا آلهة وثنية أخرى غير إله موسى (صلى الله عليه وسلم)، وقد خاطبهم السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) في الإنجيل بقوله:

(أَلَيْسَ مُوسَى قَدْ أَعْطَاكُمُ النَّامُوسَ[2]؟ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَعْمَلُ النَّامُوسَ! لِمَاذَا تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي؟)[3]

تجعل الرواية العبرية المقدسة، بما تحتويه في بعض نصوصها من أساطير وخرافات، من قارئها ودارسها مكتشفاً للحقيقة المرة، التي يجري عليها الصراع اليوم بين شرق وغرب، ليصل بالنهاية إلى قناعة مطلقة بأن هذه الرواية وبوضعها الراهن ليست توراة موسى، وبالتالي لا تشكل (كلمة الله المقدسة)، وليست وحياً إلهياً بكل نصوصها.

إن القصور البحثي - العلمي واللاهوتي -، والذي سبب فراغاً وغياباً كنتيجة طبيعية لعدم وجود جهود مسيحية وإسلامية متعاونة ومتوافقة تتوجه بعلومها ودراساتها للساحة الغربية، مكّن الصهيونية اليهودية العالمية من السيطرة ووضع اليد على مراكز صنع القرار الغربي إعلامياً وكنسياً واقتصادياً وسياسياً، حيث تم تسويق الرواية العبرية وتسهيل طغيانها على المسيحية الهدائية الروحية، التي تحولت نحو المادية، فجعلت اليهودية الصهيونية من الديانة المسيحية هناك مجرد هيئة سياسية، وجعلت الدين المسيحي فلكلوراً وتراثاً مختزلاً في احتفالات أعياد الميلاد ورأس السنة الميلادية!

وفي بلادنا العربية اليوم نأسف حقاً أن تكون هناك عشرات المحطات الفضائية العربية الماجنة والخلاعية الهادفة إلى إثارة الهوس الجنسي، في وقت

١- القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 78.
٢- الناموس هو شريعة موسى وتوراته.
٣- العهد الجديد إنجيل يوحنا 7: 19.

لا نرى فيه من دعاة حماة العرب والمسلمين أي محاولة لتبني محطة فضائية واحدة تعنى بقضية الصهيونية والصراع العربي اليهودي الصهيوني!

يقسم الكتاب إلى سبعة فصول:

الفصل الأول:

نتطرق فيه إلى بحث الإنسان عن الله بالفطرة الإنسانية السليمة، ونزوعها نحو البحث والمعرفة لاكتشاف أسرار القوة الإلهية العظيمة، بدءاً من تمثيل الإنسان لها بقوى الطبيعة الخارقة من خلال محاولة تجسيدها في (الآلهة المتعددة)، إلى تبني عقيدة الإله الواحد الخالق للكون، كما استعرضتها لنا قصة النبي إبراهيم الخليل (صلى الله عليه وسلم) القرآنية، في رحلته للبحث عن الإله في النجم والقمر والشمس أولاً، وصولاً إلى الهداية الحنيفية المسلمة إلى الإله الواحد الخالق لكل شيء، مع مقارنة لما ساد في بلاد ما بين الفرات والنيل وحوض البحر المتوسط من عبادات وثنية متعددة أنتجت حضارات عظيمة (سومر، ومصر، وبابل، وفارس، والإغريق، والرومان)، إلى ظهور ملك التوحيد الأول في التاريخ (أمنحوتب الرابع «أخناتون») وثورته العلمية، الذي حاول بشكل علمي إثبات عقم عقيدة الآلهة المتعددة المصرية القديمة، وقام بتجسيد الإله الواحد الخالق في (قرص الشمس)، فقد اكتشف أنها ليست مصدر الطاقة والخصب والنور فحسب، إنما هي مصدر إنتاج الزمن أيضاً. وقام بتحطيم جميع صور وأشكال الآلهة المتعددة، وألغى عبادتها في مصر وسائر الإمبراطورية ما بين الفرات والنيل.

كما نحاول أن نثبت في هذا الفصل استنتاجاتنا حول ترعرع النبي موسى في ظل العقيدة الآتونية واعتناقه لها بالاعتماد على مراجع مهمة.

الفصل الثاني:

نقدم فيه دراسة للحضارة والديانة المصرية في محاولة لإثبات أن مصر التوحيد كانت أصل الشجرة التي استقت منها اليهودية والمسيحية أسسها وتقاليدها؛ وأن مصر كانت الأولى في العالم في نظام الدولة التي تبنت شعار (الخاسوت) أي سكان البلاد الأجنبية، وهي الثقافة التي اعتنقها بنو إسراءيل لاحقاً وتعلموها، (الغويم) والأميون والشعب المختار، الذي تبناه أبناء يعقوب وأحفاده كعقيدة في دلتا النيل من الثقافة المصرية (الشعب المختار)، حسب ما جاءت به التوراة في

وقت أبطل فيه الملك الموحد أخناتون دعوات (الخاسوت) والشعب المقدس، وتبنى عقيدة التنوع البشري والعالمية. هذا ما سوف نطلع عليه من خلال ترانيم أخناتون الأثرية. وسوف نلاحظ أن مزامير داود التوراتية تشبهها كثيراً.

الفصل الثالث:

يتطرق وبشيء من التفصيل إلى التوحيدية الأخناتونية الأولى، وثورة العمارنة، وكتاب الأخلاق المصري القديم (كتاب الموتى) الذي تتشابه تعاليمه وقيمه إلى حد كبير جداً مع الوصايا العشر في كتاب موسى، وربما تفوقها ثورية وأخلاقية، وذلك بحسب ما ورد في الرواية الكتابية. ونتعرف على أسس وادّعاءات الرواية العبرية المستقاة في غالبيتها من الديانة المصرية القديمة، ولا سيما الشريعة الآتونية.

الفصل الرابع:

في هذا الفصل نتطرق إلى دراسة قرآنية وتوراتية لقصة أو لأسطورة الخروج من مصر، التي أسست للديانة الموسوية، والتي استبدلها معظم بنو إسراءيل بالديانات الوثنية بعد انقلابهم على موسى ودعوته الهدائية. كما نحاول اكتشاف لغز مقتل موسى، ثم عملية التحول من الإله الواحد إلى الإله الوثني (يهوه)، وتبني رواية توراتية أخرى تدعو للقتل والتدمير والمحارق الجماعية والسلب والنهب وتبرير الإباحة والغش والمكر والكذب. ثم ننتقل إلى قضية المبالغة في عدد الخارجين مع موسى من مصر وعدد الباقين هناك، الذين لم يدخلوا إلى فلسطين بالمطلق. كما نتحدث عن بطلان ادّعاء الشتات اليهودي (الدياسبورا).

الفصل الخامس:

نقدم فيه دراسة تحليلية لما شاب العقلية اليهودية الصهيونية من نزوع نحو الانعزال والتقوقع، من خلال (الكانتونات) والجدران والحصار والأسوار. هذه الثقافة الانطوائية التي كرستها الرواية التوراتية عقيدة ومنهجاً حالت دون اختلاط اليهود في مجتمعاتهم ومواطنهم التي ولدوا فيها وانتموا إليها. والدوافع الغريزية لشهوة القتل والسلب واعتبار الآخر غير اليهودي (الغويم والخاسوت) عدواً

مفترضاً، مع مقارنة للتبني الغربي للرواية التوراتية واعتبارها تشكل جذوراً للحضارة الأوروبية منذ العصور الوسطى، ما يفسر وقوف الغرب بكل قواه إلى جانب قيام الدولة اليهودية ودعمها ومدّها بكل أسباب البقاء والقوة.

الفصل السادس:

نطرح فيه (قضية الدولة اليهودية). ونبحث عرقياً وقومياً في اعتناق بعض الجماعات اليهودية، ولا سيما الغربية منها، لفكرة أن يهود العالم يشكلون شعباً. ونستعرض كيف امتدت اليهودية كديانة من دلتا النيل في مصر إلى المغرب العربي وبلاد البربر، ومنها إلى أسبانيا وأوروبا الغربية، وكيف امتدت أيضاً اليهودية كديانة هدائية لا وراثية، كما تدعي الصهيونية، من بلاد فارس إلى مملكة الخزر وأوروبا الشرقية في القرن السادس ميلادي، لنستنتج أن يهود العالم، الذين تحولوا من الوثنية إلى اليهودية، لا تربطهم أي رابطة عرقية أو قومية بفلسطين أو بني إسراءيل المشرقيين، وبالتالي هم ليسوا يهود الشتات حسب الرؤية الصهيونية اليهودية.

كما نتطرق إلى الفارق الكبير بين العهدين القديم والجديد، وإلى دعوة السيد المسيح التي جاءت مصححة ومصوبة للدعوة والديانة اليهودية، ورفض السيد المسيح لها أن تكون ديانة ولائية لدعوات (شعب الرب وأرض الميعاد) المزعومة من داخل الرواية الإنجيلية.

الفصل السابع:

نتطرق فيه إلى الاستشراق والاكتشاف والتبشير، الذي تتبعه عادة جيوش الاحتلال والاغتصاب والاستعمار، وكيف قدمت هذه القوى الخدمات والمعلومات إلى حملة نابليون بونابرت عام 1799م على فلسطين ومصر وبلاد الشام، وكيف أدى الاستشراق وصندوق استكشاف الأرض المقدسة دوراً كبيراً في التمهيد للاحتلال البريطاني ولوعد بلفور اللوثري الصهيوني الأنجلوساكسوني بالتعاون مع (لورانس) الضابط البريطاني، واستيلاء بريطانيا وفرنسا الاستعمارية على فلسطين وشرق الأردن وسوريا والمغرب العربي والعراق ومصر والخليج العربي، التي عمل المبشرون والمستطلعون على تمزيق وحدتها وبث الفتن فيها، تمهيداً لقيام (دولة إسرائيل) على أرض فلسطين العربية.

خاتمة:

نتناول فيها الوضع الراهن وسياسة التمزيق والعدوان القائمة حتى يومنا هذا، وعن العدوان الذي قام به العدو الصهيوني على قطاع غزة الصامد والمحاصر من إسرائيل ومن القوى العربية المعتدلة التي تحالفت مع الإمبريالية الأمريكية والصهيونية لمحاربة قوى الصمود والمقاومة العربية في كل من العراق ولبنان والأراضي المحتلة لتوفير شروط المفاوضات العبثية على الطريقة الأمريكية الرامية إلى تركيع السلطة الفلسطينية وجرّها إلى تقديم التنازلات عن الثوابت الوطنية والقومية بما يخص عودة اللاجئين إلى أرض فلسطين التاريخية، والتنازل عن القدس، وترسيم وتشريع المستوطنات وجدار العزل العنصري، وتعديل الحدود، ما يمنع قيام الدولة الفلسطينية المستقلة المتواصلة مع محيطها العربي والإسلامي، وحصر قيامها بدولة حكم ذاتي تكون فيه إسرائيل التي تتفوق عسكرياً على جميع الدول العربية والإسلامية، الخصم والحكم، وتحويل هذه الدول إلى حليف صهيوأمريكي في مواجهة قوى المقاومة العربية والقوة الإيرانية والإسلامية الصاعدة، وتحجيم الدور التركي الصاعد إسلامياً وعربياً وإقليمياً، بما يخدم المصالح الإمبريالية والأطماع الصهيونية والرأسمالية المتوحشة العالمية، مع الحفاظ على الأنظمة العشائرية والأسرية الوراثية المتربعة على عرش الثروة والفساد والمنافع الخاصة النفطية على حساب شعوبها المستضعفة، وعلى حساب قضايا الأمة المصيرية وأجيالها القادمة.

الإنسان والبحث عن الله

تطلعنا كتب التاريخ والجغرافيا، وأعمال الباحثين في علم اللغات وفك رموزها، والمكتشفات الأثرية، على معلومات مهمة عن حصول موجات متعاقبة من الهجرات العربية السامية من (شبه الجزيرة العربية) إلى أراضي الهلال الخصيب على شكل دفعات بدوية متتالية نقلت معها لغتها العربية الأم التي تفرعت منها مجموعة من اللهجات السامية، شرقية وغربية.

حافظت هذه الجماعات المرتحلة على أصولها وثقافاتها أثناء هجرتها واستيطانها لمساحات أوسع وأبعد من مراكز مواطنها الأصلية. أولئك المهاجرون كانوا من أجداد السومريين والأكديين والكلدان والبابليين والآراميين والكنعانيين، واستمرت هذه الهجرات حتى الألف الثالثة قبل الميلاد.

وتتالت هذه الهجرات المتعاقبة حتى وصلت إلى تشاد ودارفور وشمال أفريقيا (ليبيا وجبال البربر). وأبرزها كانت قد حصلت بعد الألف الثالثة قبل الميلاد لقبائل العموريين القادمة من الجزيرة العربية التي حكمت بابل و ماري ومعظم سوريا الطبيعية وصولاً إلى دلتا النيل شمال مصر، واستمرت حتى حقبة (الهِكسوس) (1775-1550ق.م) تقريباً.

أدت هذه الهجرات إلى التحول التدريجي لهذه الجماعات نحو المدينة نتيجةً لحاجتها إلى الاستقرار والتطور، فتحولت من جماعات مرتحلة بدوية رعوية إلى جماعات نصف رعوية ونصف زراعية بدايةً، ما لبثت أن استقرت حول مصادر المياه وتحولت تدريجياً إلى مجتمعات زراعية مستوطنة ومستقرة.

هذا التحول المهم لشعوب الشرق الأدنى القديم دفع باتجاه بناء المستوطنات (القرى والبلدات) والاستقرار فيها وحولها. شكّل هذا التحول كيانات قبلية وعشائرية مختلفة كان لا بد من تمايزها وإبراز سماتها الخاصة بها، وتشكيل هويتها المميزة في محيطها في محاولة لبلورة مفاهيم وقيم وعقائد خاصة بها. كما تطلب هذا التحول إيجاد أنظمة وطرائق إدارة وعبادات خاصة بها لتنظيم العلاقات فيما بينها وبين المجتمعات الأخرى.

هذا التطور دفع بها إلى البحث والتقصي عن مصادر القوة وتبني الاعتقاد الديني البدائي الذي استولد من التفكر في مظاهر ومكامن القوى الخارقة في الطبيعة والكون على شكل أنماط متعددة ومتشابهة إلى حد ما من الديانات التي تعتقد بتعدد الآلهة وتعتمد على رموز تعبّر عن هذا الاعتقاد والانتماء.

سعت هذه المجتمعات الفتية والبدائية للبحث عن القوة الخارقة والخفية الموجودة في قوى الطبيعة وظواهرها ونظام الكون، في محاولة فطرية سليمة للبحث عن إله، كتعبير فطري عن الحاجة للتقرب من هذا الإله الخالق الخفي.

تم اعتماد أنماط متعددة من طرائق العبادات. وشكلت هذه المعتقدات ضوابط اجتماعية تنظيمية وأخلاقية أسست لهوية وخصوصية وضوابط روحية أدت إلى (خلق نظام) يبقي هذه المجتمعات على قيد الحياة ضمن محيطها. من هنا حدث التطور من البداوة إلى الزراعة، التي قال فيها المؤرخون: (إن البداوة هي أصل الحضارة)، حيث تم التدرج نحو المجتمعات الزراعية المستقرة (القبيلة، والقرية، والبلدة، والمملكة). وهكذا تبنت هذه المجتمعات معتقدات روحية غطّت كل أوجه الحياة وأشكال القوة والطبيعة بمختلف مظاهرها وأوجهها المتعددة (الأمطار، العواصف، البراكين، الأنهار، الينابيع، الشمس، القمر، الكواكب، النار، الحيوانات، الجمال، الخصوبة، الموت والخلود، القوة، النبات).

بدأ الإنسان البدائي تدريجياً العمل على تطوير معارفه ضمن احتياجاته ومتطلباته الحياتية، محاولاً الحفاظ على وجوده وتقدمه ومدنيته، ما دفعه للتفكير الدائم المقرون بالبحث والتقصي عن أشكال ومظاهر القوة الخارقة في الكون والطبيعة، فعبّر عن هذه الحاجة باتخاذ أشكال مختلفة من العبادات والمعتقدات. وبالفطرة وحدها تدرج نحو تبني الآلهة المتعددة، متخذاً من هذا التبني نظاماً اجتماعياً أخلاقياً وتنظيمياً (أخلاق وسياسة واقتصاد).

كما أسس لنظام الحكم الذي تطور نحو الإمارات والممالك والإمبراطوريات، التي أنتجت بدورها المجتمعات الزراعية والصناعية والتجارية (نظام التبادل)، ودفعت نحو الاستقرار والوفرة الإنتاجية المنظمة.

اتجه تفكير وثقافة هذه المجتمعات إلى تبني مظاهر القوة الخفية الكامنة في الكون والطبيعة، لما لهذه القوى من تأثير في أنماط الحياة والوجود، التي تشكل لها مصدراً للعيش وأسباباً للحياة والموت، فكرست لها آلهة تمثل الأوجه المختلفة لهذه القوى الخفية والظاهرة، التي تتحكم بمصيرها وحركتها (فيضان نهر النيل مثالاً)، وما رافق ذلك من اعتقاد وممارسة تجلت بتقديم القرابين الحيوانية والبشرية لنهر النيل تقرباً واعتقاداً.

ومن الحضارات القديمة ما جسد التقوى والتقرب للإله بعبادة المصادر المؤثرة (الشمس والقمر والكواكب)، ومنها ما جسد أيضاً عبادة آلهة أخرى كهبة الطبيعة (الحيوانات والوحوش)، واتّخذها رمزاً وشعاراً وطنياً قبل أن تخترع الكتابة بالحرف والكلمة، حيث استخدم صور الأشياء والحيوانات للتعبير والدلالة،

فقام بنحتها ورسمها ونقشها على الصروح والصخور والأوابد التي لا تزال إلى اليوم شاهدة على عصره وحضارته.

عبّر الإنسان بواسطة هذه النقوش عن أفكاره وثقافته، وعمّا كان يؤمن ويعتقد به. وتعاطى السحر كدلالة وتعبير عن القوة الخفية الخارقة، فقد أعطى أهمية كبيرة للسحرة والسحر (قصة النبي موسى مع فرعون وسحرته)، كما اهتمَّ بالرؤى والأحلام، واستند في كثير من قراراته وتصرفاته إليها سلباً وإيجاباً (قصة النبي يوسف ورؤياه ورؤى وأحلام صاحبي السجن).

واهتمَّ أيضاً بعالم الموت، وعالم الأرواح السفلي والانبعاث الآخر. وأفرزت هذه البدايات الحضارية التي نسميها اليوم (الديانات الوثنية) مجتمعات زراعية وصناعية وتجارية متطورة، وأسست مجتمعات مزدهرة ابتكرت وسائل التواصل والاتصال والتبادل التجاري والثقافي فيما بينها. وساهم هذا الاتصال الدائم كثيراً في تقدم المجتمعات الزراعية البدائية وأهلها لإنتاج حضارات عظيمة متفاعلة فيما بينها، الأمر الذي أدى إلى تطوير المعتقدات الروحية وتعميق مفاهيمها وسموّها نحو معرفة الحقيقة وتبني التوحيد الأرقى تدريجياً، وجعلها تخطو بخطوات سريعة نحو تشكيل الإمبراطوريات الكبرى والممالك العظيمة، على الرغم من وثنيتها وتعدد آلهتها.

وفي حضارات بلاد الرافدين ووادي النيل والجزيرة العربية، وما بينهما، إضافةً إلى حضارات حوض البحر المتوسط (الإغريقية والرومانية والحضارة الفارسية التي وصل نفوذها إلى حوض المتوسط في فترات محددة من تاريخ المنطقة)، أمثلة أقرب للبحث، كونها الحاضنة الأولى للديانات السماوية التوحيدية (الموسوية والمسيحية والإسلام).

من ممالك سومر شمال الجزيرة العربية (بلاد الرافدين) إلى (مصر بلاد النيل وما يحيطها) حتى (عيلام) (أرض الأفغان)، يقول الباحث سيمسون نايوفتس في كتابه (مصر أصل الشجرة): «كانت سومر بها قرى كبيرة (إيردو و أوروك و أور ولجش وتيبور)، وبها معابد تعود إلى ما قبل 4000 عام ق.م. وبحلول عام 3500ق.م كانت بها مدن ذات صنّاع وتجار أحوالهم مزدهرة. وبحلول عام 3100 ق.م ربما كانت أوروك أكبر مدينة في العالم، حيث بلغ عدد سكانها 25000 نسمة، وكانت الزراعة المكثفة بكامل نشاطها، وكانت الكتابة التصويرية تستخدمها النخبة

السومرية على نطاق واسع، وكانت البلاد يجري تنظيمها على هيئة دول مدن يقودها (إنسي) (الرجال العظام)، وهم الحكام الذين يرأسون مجلس الشيوخ»[1].

يربط الباحث نايوفتس بين الحضارتين السومرية والمصرية بالمقارنة بين التشابه والتطور، وينسبه إلى التفاعل فيما بينهما عبر موجات من المهاجرين أو الغزاة الآسيويين (العموريين والكنعانيين والعبريين).

«من الواضح أن الأدلة الأثرية على تأثير بلاد ما بين النهرين بمصر في ذلك الوقت: من التكنولوجيا، إلى العمارة، إلى الفن، كان من الاتساع بحيث لا يمكن استبعاد التواجد الكبير للسومريين وأبناء شرق البحر المتوسط، هؤلاء ربما كانوا المهاجرين، أو الغزاة الذين يحملون قيماً زراعية وحضرية متقدمة ذات نمط سومري هم في أغلبيتهم من الساميين[2] القادمين من فلسطين وسوريا في شرق البحر المتوسط، وليس من سومر نفسها. وقد عُثِر على ما يزيد على 400 قطعة ذات أصل فلسطيني في عام 1988 داخل المقبرة - uj - التي تعود لعصر ما قبل الأسرات (قبل 3100 ق.م) في جبانة أم العقارب بابيدوس في مصر»[3].

يثبت نايوفيتس حصول هجرات سامية عربية متأخرة، ويبين مدى تأثيرها في تشكيل المجتمعات والإمبراطوريات الحضرية، التي أسست لقيم مشتركة لأنماط الديانات التي تعتقد بتعدد الآلهة وتنوع العبادات الطقسية والطبيعية، وتشكيل اللهجات ومن ثم اللغات، والتشابه الكبير لنمط عبادة الحيوانات وتقديسها، وتشابه طرائق الصناعة وفن العمارة فيما بينها، سواءً بالكتابة التصويرية أم بالنحت، فيقول بهذا الصدد: (هناك تشابه مذهل لا سبيل لإنكاره بين الفن السومري والمصري في الأسلوب والمضمون في نهاية عصر ما قبل الأسرات منذ قرابة 3300-3000ق.م. وتظهر على اللوحات والفخار والأختام والمزهريات والرقع ومقابض السكاكين والتماثيل موتيفات الحيوانات الملتفة حول بعضها، والأشكال البشرية عريضة الرأس ذات العيون الواسعة، والسمات الجنسية البارزة، والأسرى المقيدون الذين يؤكلون أو يعدمون. ويشير أقدم عمل مصري تماماً عثر عليه، وهو صلاية نعرمر (التي يعود تاريخها إلى 3000ق.م، وتوجد حالياً في المتحف المصري بالقاهرة)، إلى تطور مصر العام في ذلك الوقت، حيث كانت في موضع ما من التحول بين القيم الفنية الغرب آسيوية وقيمها الخاصة الناشئة: فالملك نعرمر وأتباعه وخدمه والضحايا الآسيويين

١- سيمسون نايوفتس: (مصر أصل الشجرة) (Egypt trunk of the tree) ج1 ص 70.

٢- يقصد بالساميين سكان ما بين النهرين وسوريا الطبيعية الذين ارتحلوا ما بين الفرات والنيل قبل وجود تسمية (اليهود) بقرابة 2700ق.م، كما لا علاقة للعبريين هنا باليهود أو بني إسرائيل.

٣- سيمسون نايوفتس: (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 72.

وحورس الصقر وحتحور آوبات التي على هيئة رأس بقرة، جميعهم مصريون من الناحية الأسلوبية؛ بينما الحيوانات كانت سومرية من الناحية الأسلوبية، ومع ذلك فمن الممكن أيضاً الحديث على الأقل عن بعض التشابه في الأسلوب الفني عبر رقعة شاسعة من الأرض تمتد من سومر إلى عيلام[1] في الشرق إلى مصر وليبيا في الغرب، ولا سيما في نحت التماثيل، مما يثير تساؤلاً عما إذا كان الفن المصري تأثر بالفنون الآسيوية بشكل أساسي، أم أنه قد ظهر على نحو مستقل)[2].

ما أتوخاه باستخدام هذا المصدر الوصفي ليس المقارنة والبحث عن الأصول الفنية المتشابهة بين حضارات ما بين الفرات وبلاد الشام وبلاد النيل، بقدر ما أتوخى استعراض أوجه التشابه أو التطابق في طرائق البحث البدائي عن وجود الخالق ومحاولة عبادته بأشكال مختلفة عبرت من خلالها الفطرة والتلقائية الإنسانية عن حاجتها للخالق ورعايته، فالتقرب للإله اتّخذ أشكالاً مختلفة بتأليه عناصر الطبيعة والكون والظواهر الخارقة.

هذا الشعور التلقائي دفع باتجاه تبني الآلهة المتعددة والمختلفة لظواهر الطبيعة التي بحث فيها إبراهيم الخليل عن إلهه ومعبوده بداية في (النجم والقمر والشمس). وآخرون أيضاً بحثوا عن الإله في الأنهار والأمطار والأشجار، وفي تقديس الحيوانات وتجسيدها آلهة (العجل الذهبي لبني إسرائيل مثالاً). تم تجسيد هذه العبادة والتقديس بالرسم والنحت وبالمقابر والتحنيط، وغالباً ما كانت هذه الحيوانات المقدسة وبقاياها تستخدم كتعويذة (رقية) ترفع الأذى والشر وتجلب الحظ والخير لحاملها ومقتنيها.

كان للسحر دوراً مهماً وكبيراً في تلك المعتقدات والحضارات، ولعل قصة النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) مع الفرعون والسحرة في سورتي طه والشعراء (القرآن الكريم) نموذجاً يؤكد أهمية السحر والسحرة في ذلك الوقت المبكر. أما الموت والبعث (الحياة الأخرى) فكانت له دلائل ورموز لا تزال شامخة ليومنا هذا (المقابر والأهرامات والمعابد المصرية والبابلية)؛ ونظام التحنيط (المومياءات الرائعة) الذي يجسد الإيمان بالعالم السفلي (الموت) والعالم الآخر (الخلود) كان نظاماً معمولاً به ومعتقداً في مصر القديمة، فالاهتمام بالتحنيط للجسد وإقامة الصروح الفاخرة له (الأهرامات)، وتأمين وسائل ضرورية ومقتنيات وكنوز نفيسة تدفن مع

١- عيلام: بلاد الأفغان (خراسان).

٢- سيمسون نايوفتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 76-77.

المومياء دلت على وجود نظام صارم يؤمن بالحياة الأخرى، حتى لو تم التعبير عنها، بخلاف ما جاءت به الأديان التوحيدية فيما بعد.

صحيح أن عقيدة الحياة الأخرى لدى الفراعنة الأولين كانت تقتصر على القادة والملوك والأعيان والكهنة وقادة الجيش بدايةً، ولا سيما الملتزمين بكتاب الأخلاق والأنظمة الصارمة للملك الإله الأب والوكيل لحورس على الأرض، إلا أنه وبمرور الزمن عمّم هناك مفهوم الخلود والحياة الأبدية ليشمل العامة في مصر، بعد أن أصبح للموت آلهة (آلهة العالم السفلي)، إضافةً إلى الثلاثية الإلهية المتعددة (الأب والابن والأم). وهذا ما سوف أتطرق إليه في الفصول اللاحقة مع بعض التفصيل فيها.

مزجت عبادة قوى الطبيعة ما بين عبادة القوى الظاهرة والخارقة في الكون وما بين إنتاج هذه القوى من الحيوانات القوية، وكان ذلك مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع الزراعي والإنتاج الغذائي والصناعي. وهذا الإنتاج من المفهوم التعبيري شكل هبات عظيمة من الطبيعة للإنسان، ودفعه لاعتماد نظام التقديس لهذه الحيوانات كنوع من الشكر والامتنان للإله الخالق؛ واستخدمت صورها وأشكالها كشعارات ورموز ورايات للقبائل والأقاليم؛ وشكلت هذه الحيوانات المصدر الغذائي الكبير الذي قدم للإنسان، مما كرس الاعتقاد بأن هذه الحيوانات هي مخزن الغذاء الذي تهبه الآلهة للإنسان.

من هنا برزت عادات وتقاليد تعلقت باحترام الحيوانات وتبجيل بعضها أو تحريم صيدها أو ذبحها، كما هو سائد حتى اليوم في بعض ديانات بلاد الهند. وتم تصوير الآلهة على شكل أجسام ورؤوس للحيوانات (كالصقر والثور والأسد)، واعتبرت هذه الحيوانات رمزاً للقوة والشموخ والحماية (أبو الهول في مصر، وأسد بابل، وثور بني إسرائيل، ونسر أمريكا). يذكر نايوفيتس في كتابه بهذا الخصوص: (ظل حورس واحداً من آلهة مصر الرئيسة منذ البداية حتى النهاية المتعارف عليها لتاريخ مصر عام 395م. وظلوا يصورونه بأشكال مختلفة: أي الصقر شعار (الطوطم) قرص الشمس المجنح، والإنسان الذي له رأس صقر، والإنسان الذي يضع أغطية رأس على هيئة تاج الأرضين المصري المزدوج (بشنت)، أو تاج (أتف) مزيج من تاج الوجه القبلي الأبيض على جانبيه ريشتا نعام حمراوان، أو قرص الشمس، وقد كان واحداً من أكثر آلهة مصر حباً، حيث كان يجمع في أشكاله المختلفة الكثير من الصفات النافعة النبيلة: الشمس، والمُلك الإلهي، والإحساس بالواجب، والانتقام القائم على الحق والقوة والعلاج والحماية، والنزوع إلى عمل الخير

في محكمة الحياة الآخرة، ونعومة الطفل وبراءته، والنجاة من المصاعب والابتلاءات التي عادة ما يبتلى بها الطفل المختار في الميثولوجيا)[1].

فيما يتعلق بالطبيعة وظواهرها، كان قرص الشمس يحظى بالاهتمام الأكبر، كون الشمس تعبر عن مفهوم الزمن، والدفء والخصب والنمو والنضوج وأسباب البقاء.

اعتُمِد الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) أول فرعون مصري يدعو لعبادة الإله الواحد الشامل: قرص الشمس، تجسيداً لقدرة الله (آتون) بديلاً عن الإله (رع) في القرن الرابع عشر ق.م، فألغى بهذا المعتقد كل عبادات الآلهة المتعددة المحلية، وأغلق معابدها وحطم صورها وأصنامها. ويعبر سيمسون عن أهمية الشمس في الديانة المصرية القديمة:

(كانت الشمس (رع) محورية باستمرار في الديانة المصرية. وكان حورس وتوم (آتوم) الإله الخالق، ورع الإله الملكي وإله الشمس، وأوزيريس ملك الموتى، وآمون رع الإله الملكي وكبير الآلهة في الدولة الحديثة، وكثير غيرهم يرتبطون بالشمس أو أصبحوا متأثرين بالشمس، حيث باتت لهم أهمية قومية، وفي هيليوبولس (أون)[2] على الأقل، اعتباراً من بناء معبد الشمس في هيليوبولس (أون) قرابة (2260ق.م)...

رُبِط رع، أي الشمس، وأتوم بطائر أبي فصادة، ثم بالبلشون أو طائر أسطوري يشبه البلشون)[3]

بما أن البحث يتركز على كيفية تطور عقيدة التوحيد (الإله الواحد)، التي تدعو إليها (الموسوية والمسيحية والإسلام)، لا أرى ضرورة للبحث والتوسع بالخوض في تفاصيل الديانات السومرية والبابلية والكنعانية إلا بالقدر الذي يخدم البحث الذي يثريه الاستشهاد بما اكتشفه وكتبه الباحثون وعلماء الآثار والمؤرخون، الذين تخصصوا في هذا المجال، مستهدفاً بذلك الإضاءة على التواريخ والأحداث والظروف الموضوعية التي أدت إلى ظهور الديانة الموسوية (التوحيدية الأولى)، وما شاب مسارها الموصوف في الإنجيل والقرآن من تغيير، وربما التغير الجوهري الذي طرأ عليها جنوح الكثيرين من معتنقيها نحو الانعزال والتقوقع على الذات، ومحاولة تفسير حادثة موت النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) الغامض، وذكر الأسباب الموضوعية التي أدت إلى عدم انتشار هذه الديانة الهدائية، وكيف أصبحت ديانة وراثية منغلقة

١- سيمون نايوفيتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 41.

٢- هيليوبوليس (أون) هي عين شمس الحالية بمصر.

٣ - سيمون نايوفيتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 45.

بخلاف الديانتين التوحيديتين (المسيحية والإسلام) اللتين انتشرتا بقوة وانتقلتا إلى العالمية والكونية، على الرغم من أن دعوة موسى في جوهرها كانت أممية هدائية، وهذا ما سوف أتطرق إليه في فصول لاحقة.

وكمقدمة للخوض ببعض التفاصيل الأوسع سأستعرض بعض ما كتبه سيمسون نايوفيتس بما يخدم هذا الجانب من الموضوع: (كانت الآلهة من نواحٍ كثيرة، على التعاقب، تعديلاً للتوحيد المشوب المحلي، وهو عنصر يتوالف معً تعدد الآلهة الذي كان يمنح الوضع التفضيلي لأحد الآلهة، ولكنه كان يشجع عبادة تعدد الآلهة، وفي وقت متأخر جداً كان هناك التوحيد المشوب (ليهوه العبراني)[1] وأهورامزدا الفارسي الذي كان يقضي بالعبادة المنفردة لإله قومي أقوى من سائر الآلهة، ومهّد الساحة للتوحيد. ولم توجد آلهة التوحيد المشوب المحلية والقومية والآلهة الرئيسة في سومر ومصر فحسب، بل وجدت في تواريخ مختلفة في كل مكان من العالم تقريباً، ولكن أشكال التوحيد القومي والحصري لنمطي يهوه وأهورامزدا لم توجد إلا في إيران وإسرائيل. ويبدو أن لاهوت الإله الرئيس في ديانات تعدد الآلهة كانت استجابة مترابطة ترابطاً منطقياً مع ظهور الجماعات الزراعية المستقرة والإقليمية والقومية المركزية والحاجات السياسية التي ولدتها تلك المجتمعات. ومن المهم الإشارة إلى أن مفهوم الإله الواحد الأقوى من سائر الآلهة كان متوافقاً مع الحاجات التراتبية التي ظهرت مع هذا النوع من المجتمع)[2].

١- يهوه الإله الذي اعتمده بنو إسرائيل في فترة التيه، وهو إله العرب المدينيين والقينيين، ورد ذكر اسمه في ألواح أوغاريت وزوجته عشيرة، وهو إله الظلام والبراكين، ولا يظهر إلا ليلاً. (انظر الصورة رقم 1): يهوه وعشيرة على مكتشف فخاري أثري من أرض مدين.

٢- سيمون نايوفيتس: (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 89-90.

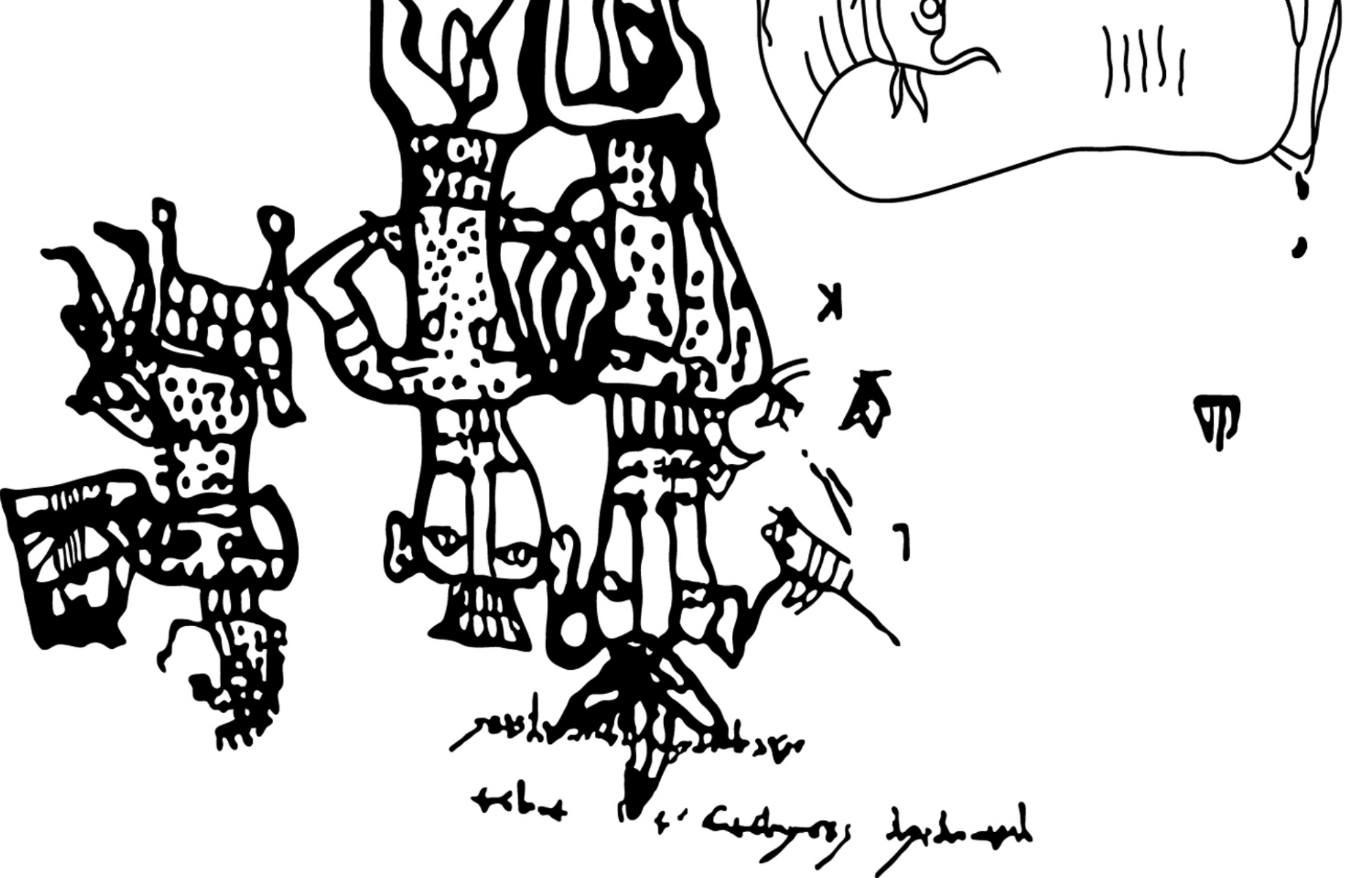

ما ورد ذكره عن الإله القومي والسياسي، والمتوافق مع الحاجات التراتبية لجماعات تتوق إلى الانتقال من البداوة إلى الكيان المدني والزراعي المستوطن، هو ما سوف يكون محوراً أساسياً ومهماً في هذا البحث. حيث تطرح كثير من الأسئلة وتوضع العديد من إشارات الاستفهام حول الادّعاء التوحيدي والإله القومي الخاص، الذي يبحث عن شعب له ليكون شعبه الخاص، وعن شعبٍ لا يبحث عن إله له إلا بالقدر الذي يشرع له هذا الإله الوثني أرض ميعاد.

وهنا تنقلب المعادلة المصرية المتبناة رأساً على عقب، فالملك أخناتون التوحيدي لمملكة قوية وراسخة اعتمد إلهاً واحداً توحد به جميع العبادات المحلية للإمبراطورية الممتدة من الفرات إلى النيل، وهذا ما لم يتوافق والأهداف العبرانية، لأن هذا الإله الواحد لن يجعل منهم شعباً خاصاً، وبالتالي لن يوفر لهم أرض الميعاد. فدعوة موسى الهدائية تتعارض ومصالح هذه الفئة من بني إسراءيل، ولا تحقق طموحاتهم بتشكيل وطن وأمة. سأستعين بما حققه الباحثون المتخصصون لربط الحقائق ببعضها، ولتحقيق الغاية المرجوة بالوصول لمعرفة الحقيقة المجردة والغائبة أحياناً في عالمنا المادي المعاصر.

يقول العالم الألماني يان أسمان في كتابه (التمييز الموسوي)، وأرى في قوله شرحاً منطقياً وعلمياً لما تقدمت به في الصفحات السابقة حول بحث الإنسان عن الله، ومثالنا في ذلك آيات قرآنية من سورة الأنعام: محاولة النبي إبراهيم البحث عن الله في النجم والقمر والشمس والتفكر بالقوة الخارقة، وحتى في طلبه من الله أن يريه كيف يحيي الموتى (وعند دراستنا لتاريخ الأديان في مصر لا بد أن يجانبها كل من الشكلين للتوحيدية):

«وعلينا أن نفهم نحن الإصلاح الديني الذي قام به الملك أخناتون الذي رفض في منتصف القرن الرابع عشر ق.م جميع معالم الدين التقليدي، ووضع مكانه عبادة إله الشمس الواحد، على أنه عبادة توحيدية ثورية انعزالية. كما علينا أن نفهم لاهوت العصر الرمسيسي الذي لحق ذلك، والذي طُوِّر مع تقاليد عبادة الآلهة المتعددة، على أنه توحيدية تدريجية ضامنة لها متشابهات كثيرة مع الأديان المتأخرة لشعوب ما بين النهرين وشعوب اليونان والهند». ويتابع أسمان بهذا الصدد: (كانت توحيدية أخناتون هي توحيدية المعرفة، وتخفي خلف ذلك صورة جديدة للعالم، وترجع كل ما يكون - أي الواقع كله - إلى تأثير الشمس التي تبعث النور بواسطة إشعاع ضوئها، والتي تنتج الزمن أيضاً بواسطة حركتها. ومن اكتشافه أن الشمس هي ليست مصدر النور وحسب، وإنما مصدر الزمن أيضاً.

استنبط أخناتون أن الآلهة الأخرى ليست لها علاقة أو تأثير في تكوين العالم والمحافظة عليه؛ وعلى ذلك فهي غير موجودة، وليست سوى كذب وهراء، لذلك أغلقت معابدها في عهد أخناتون وأزيلت تقاليد تقديسها واحتفالاتها، وحطمت صورها وأبيدت أسماؤها، وهذا يختلف تماماً عن مشروع موسى، فما كان يهم موسى ليس تعليل الكون من جديد، وإنما إيجاد نظام سياسي جديد وتشريع قانون واتحاد جديدين لهذا العالم. وكان مطلبه هو التوحيدية السياسية، وهي توحيدية ترابط، فهي لا تقول (ليس هناك إله غيري)، إنما تقول: (لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي)[1]؛ وهذا يعني أن عليك ألا تعترف بآلهة الآخرين. وعلى هذا، فإن وجود آلهة للآخرين بعكس أخناتون معترف بوجودهم هنا، ولو لم يكن كذلك لما كان هناك معنى لمطالبته بالوفاء له، فهو لم ينكر وجود آلهة أخرى، إنما منع عبادتها، لأن عبادتها تعني ضلالاً وإثماً كبيراً. وعلى هذا فإن مفهوم (الدين الباطل) يختلف في معناه عند أخناتون وموسى، فبينما هو عند أخناتون صورة عالم باطلة، يصبح عند موسى خيانة وانفساخاً للعهد. الأول الذي هو طبيعة معرفية أو أمر مصيري، والثاني طبيعة سياسية أو أمر ترابطي. والتوحيدية الإنجيلية[2] هي في نواتها

١- العهد القديم الخروج 20: 3.

٢- يقصد الكاتب بالإنجيلية - التوراتية حصراً، فالمعنى للتوراة والإنجيل واحد (الكتابية أو البشارة).

سياسية. وتظهر هذه النواة في سفر الخروج، وكذلك في سفر التثنية والاشتراع بكل وضوح)[1].

أتفق مع يان أسمان، بما ذكره عن وجود توجه سياسي قومي شاب الموسوية، وأتفق معه كذلك بأن تفكير وثورة أخناتون كانت نتيجة لممارسة ومعرفة متطورة جداً في زمانها، ونابعة من تجربة فطرية باحثة عن وجود الإله الحق ونفي وجود الآلهة المتعددة، أو نفي أي قدرة لتلك الآلهة المدعاة التي نبذها وحطم صورها هذا الملك المفكر والمبدع. وفي هذا الفعل تكرار لتجربة النبي إبراهيم الخليل (صلى الله عليه وسلم) في تحطيمه للأصنام في أوركلدان العراق وبحثه عن الإله الحقيقي من خلال خضوعه لتجربة البحث عن الله في النجم والقمر والشمس ووصوله إلى اكتشاف الإله الواحد، الذي خلق هذه المظاهر والقوى الكونية كلها، وكأنما تجربة إبراهيم وتاريخ التوحيد يعيد نفسه هنا في قصة أخناتون ودعوته!

في هذا الفعل يحفظ الملك أخناتون التوحيدي لمصر موقعها الرائد في أنها (مصر أصل الشجرة)، التي نبتت جذورها الأولى في منطقة تمتد بين الفرات والنيل والحجاز وما بينهما في المثلث التوحيدي العظيم الذي شكل (الأرض التي باركنا فيها).

أما فيما يتعلق بالشق الآخر من قول أسمان، من أن دعوة النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) دعوة سياسية وقومية ترابطية مع ما بُحِث له فيما بين يديه من الرواية الكتابية التي استند إليها فهو محق في استنتاجاته المبنية عليها - وقد يكون ذلك صحيحاً - وعلى ما جاء في أسفار (الخروج والتثنية أو الاشتراع)، التي تبدو وكأنها تؤسس لشعب ووطن باسم دعوة التوحيد ووعود الإله يهوه المنسوبة داخل هذه الأسفار التي (حُرِفَ فيها الكلام عن مواضعه). هذا إذا كنا نسلم بالمطلق بصحة هذه الأسفار، ونقر بأنها (توراة موسى) الموحى بها إلهياً!

لكننا ممن يقولون إن التوراة التي أنزلت على النبي موسى هي غير التوراة التي بين أيدينا بصيغتها الحالية التي كتبها (الأحبار والكتبة في بابل)، لا سيما عندما يؤكد القرآن الكريم في قول الله تعالى للكتبة المحرفين: ﴿..قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. وكذلك عندما ينسخ السيد المسيح (صلى الله عليه

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 49-51.

٢- القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 93.

وسلم) العديد من دعواتها، فإن الرواية تبدو مختلفة من حيث الجوهر والمضمون والتفكر وطرائق العبادة.

من هنا تأتي مطالبنا المتكررة للكتّاب والباحثين والمتخصصين بالحكاية الكتابية ودراساتها، والغربيين منهم بصورة خاصة بضرورة الاحتكام والمقارنة بين الكتب السماوية الثلاثة وضرورة الاستئناس بالقرآن الكريم، على سبيل المعرفة والإضاءة على البحوث لإثرائها واستخلاص الحقائق والمعرفة منها، والاستعانة بالمراجع التاريخية المهمة، بحيث يكون البحث والاستقصاء موضوعياً وبعيداً عن الموروث النمطي للثقافة الغربية، الذي يأخذ بالبحث إلى اتجاهات فكرية مركزية يجعلها تدور في حلقة مفرغة تطيح بالبحث الجاد عن الحلقة المفقودة بين الإسلام والمسيحية.

ليس بالضرورة عندما يطلب من الآخر قراءة ودراسة الرواية القرآنية أن يكون مدعواً للإيمان بها أو اتباع ديانتها، لكن من الضروري جداً فهم رسالة الآخر والاطّلاع عليها والأخذ بالقواسم المشتركة التي تجمع بين الرسالات جميعها.

سوف آخذ بالاعتبار أن جميع الأديان التوحيدية ذات منبع إلهي واحد، وأن هذه الحقيقة مطلقة، وأن الأنبياء تلقوا رسالاتهم من مشكاة ربانية ووحي واحد، وقد جرت محاولات كثيرة لتشويهها والإضافة عليها والخروج عن جوهر تعاليمها التي تتناقض ومصالح فئة من الكهان والأحبار ورجال السياسة والمال وشيوخ السلطان ومصالح الملوك والسلاطين والحكام على مدى العصور المتعاقبة، كما كان الحال مع (فرعون وموسى). يقول المستشرق البريطاني مونتغمري وات في كتابه (الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر): (وبطبيعة الحال، فمن الواضح أن الباحثين الغربيين لم يشيروا إلى تحريف في التوراة والإنجيل، بينما ظل بعض المسلمين يؤمنون بذلك، بل إنه من الممكن حتى أن تفهم العبارات القرآنية الواردة بهذا الشأن على نحو مجازي أو على نحو تخطيطي بالمفهوم الذي شرحناه آنفاً (المفهوم الدياغراماتي)، وكشواهد لشيء أكثر جوهرية (كدلالة على شيء أساسي بشكل كبير). وحتى إذا كان كل وحي (المقصود كل دين) كما وصل إلى كل نبي نقياً وغير محرف، فإنه بمرور جيل أو جيلين من الممكن بسهولة أن يتسرب التحريف إليه. وكان من الطبيعي على سبيل المثال أن يهتم المسيحيون بالدفاع العقلي عن عقيدتهم ضد انتقادات اليهود، ولكن بعض المسيحيين كانوا يشعرون بالدونية، فشرعوا بالمبالغة بطرائق مختلفة تتسم بالحذق والمهارة. وعلى كل حال، فإن كل حركة دينية تبدأ نقية تكون عرضة للتحريف في غضون جيل أو جيلين. والدليل على ذلك الإنكار اليهودي للمسيح، ورفض المسيحيين لـ محمد (صلى الله عليه وسلم كنبي، وبناء المسلمين لسلسة من الدفاعات الفكرية ضد المسيحيين واليهود على حدٍّ سواء.

فلو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم في حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التي ألقاها الله عليهم عن طريق (محمد)، تماماً كما فعل ورقة ابن نوفل، حيث أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد. ومن هنا يمكن القول إن إشارات القرآن إلى (تحريف) لحق اليهودية والمسيحية بصورتهما الموجودة على أيامه قول صحيح. وثمة ملمح آخر مهم في الصورة القرآنية لإبراهيم، وهي رفضه لعبادة الأصنام التي كان أبوه وشعب أبيه عاكفين عليها)[1].

بذكر المستشرق وات لإبراهيم الخليل (صلى الله عليه وسلم) وللبرهان على قصة إيمان الملك أخناتون المعرفي بالله الواحد يجدر بنا العودة إلى قصة النبي إبراهيم ورحلته في البحث عن الله، مع ملاحظة الفارق الزمني والمكاني في الحالتين. وعلى سبيل الاستنتاج المعرفي، قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ۞﴾[2]

يلاحظ هنا الفارق بين إيمان إبراهيم وموسى عليهما السلام، وبين إيمان الملك أخناتون. فإبراهيم استجاب له ربه حين بحث عنه ﴿كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾. على الرغم من ذلك حاول إبراهيم تجسيد إيمانه بالظواهر الحسية (النجم، والقمر، والشمس)؛ ظواهر قوة الطبيعة. وفي هذا التصرف إيمان خفي يحاول التعبير عنه وهو (الفطرة). الأمر عينه حصل مع النبي موسى (صلى الله عليه وسلم): كان مؤمناً مؤهلاً هذه المرة، ليس لأنه مصري أو إسرائيلي (نسبةً إلى يعقوب)، بل لأن موسى كان في الجانب الآخر النقيض من ديانات الفراعنة السابقين (لديانة توحيد أخناتون)، التي اعتنقها مصريون وكنعانيون وعبرانيون سراً وعلانية، كما ثبت قرآنياً وتاريخياً. ولم يكن اصطفاء الله لموسى لإخراج بني إسرائيل من مصر بدايةً، بل كانت دعوة لفرعون وقومه إلى التزام التوحيد لله الواحد، ورفع

١- مونتغمري وات: (الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر) ص 169-170.
٢- القرآن الكريم سورة الأنعام الآيات 75-78.

الظلم والعبودية. وعندما نعلم أن فرعون الخروج كان قد انقلب على ديانة وثورة أخناتون التوحيدية وعبادته الإله الواحد التي بشر بها النبي يوسف الصديق (صلى الله علبه وسلم) من قبل في أرض مصر ببينات وفضائل شهد بها القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[1]. ﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾[2]

إن ما يثبت القول إن موسى بُعِث رسولاً إلى مصر أولاً (إلى فرعون وقومه): ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي۞ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى۞ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى۞﴾[3].

والتذكر هنا إخبار بالمعجزات التي أوقع الله بها الضرر على آل فرعون على يدِ موسى قبل الخروج من مصر مع صحبه وليس مع قومه جميعاً.

حاولت جاهداً البحث عن ذكر اجتهاد النبي إبراهيم ومحاولته معرفة الخالق التي وردت في القرآن الكريم داخل الرواية التوراتية، إلا أني لم أجد ما يفيد بذلك، لكن كل ما وجدته توراتياً كان ينحصر بالاهتمام والسعي الحثيث إلى امتلاك الأرض، وتمييز شعب الرب وسلب فلسطين، مما زاد من قناعاتي بأن التوراة التي بين أيدينا ليست هي التوراة التي نزلت على موسى، وأن الكتبة والمدونين في عصور متأخرة جداً عن عصر نزولها قد انحرفوا بمحتواها ومضمونها باتجاه الكيان السياسي الانقلابي والقومي المتعلق بالأرض التي كانوا يعرفونها جيداً. وهذا ما يثبت صحة ما جاء به الباحث يان أسمان حول الإله التأسيسي السياسي القومي، مع الاختلاف معه عندما ينسب هذا التصرف والتبني إلى النبي موسى في وقت أغفلت فيه حقيقة زجّ الأحبار والكتبة لأفكار وتعليمات داخل الرواية نسبت كذباً إلى موسى، بما يتوافق ومصالحهم الخاصة والمادية بعيداً عن التوحيد والوحي. هذا التدوين والتغيير لا يخفى على الباحثين في الدراسات الكتابية، لا سيما تلك النصوص التي تناقض بعضها بعضاً

١- القرآن الكريم سورة غافر الآية 28.
٢- القرآن الكريم سورة غافر الآيات 34.
٣- القرآن الكريم سورة طه الآيات 42-44.

ولا تشكل أكثر من لاهوت متحجر لا يعتد به أساساً لقراءة التاريخ وحقائق العلم والمنطق والمكتشفات الأثرية.

يبدأ الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين بوصف مولد إبراهيم ومعه ابن أخيه لوط (صلى الله عليه وسلم) وخروجهما إلى أرض غربتهما (كنعان)؛ هذا ما تعيره القصة الكتابية الاهتمام الأول. وتتحول القصة في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين إلى إعطاء إبراهيم ونسله من بعده أرض كنعان كلها ملكاً أبدياً. سيكتشف القارئ دون عناء التوجه الكتابي نحو أرض فلسطين دون ذكر لإيمان أو دعوة توحيد لإبراهيم، ويتحول الاهتمام إلى وعدٍ لإبراهيم ولنسله من بعده بأرض تمتد من الفرات إلى النيل مع ضرورة التحريف والتلاعب في نسله وبكورية ولده إسماعيل، وتحريف رواية الأمر الإلهي لإبراهيم للتضحية بولده البكر، ونسب الرواية إلى ولده غير البكر (إسحاق)، وهذا ما شكل الإقصاء المبكر داخل الرواية وقبل رواية الخروج من مصر، ولكن من هو إبراهيم الخليل؟ ولمن ينتمي حقاً؟

من المعروف تاريخياً انتماء إبراهيم إلى قبائل الجزيرة العربية التي ارتحلت من جنوب الجزيرة إلى شمالها طلباً للمياه والمرعى بعد موجة الجفاف الشديدة التي ضربت أجزاءً كبيرة من جزيرة العرب، حيث ارتحل أجداده إلى شمال الجزيرة (أوركلدان)، ومنها إلى مصادر المياه على نهري دجلة والفرات، حيث تشكلت هناك بادية العرب الأولى الآرامية بعد العرب البائدة (سيل العرم وثمود وعاد الأولى والثانية). ومن المعروف أن إبراهيم كانت له علاقات تجارية وسياسية مع الحجاز وسيناء ومصر وبادية الشام، وكان يعرف طرقها وممراتها ولهجاتها، وله أغنام وجمال وتجارة هناك، وكان يتمتع بالاحترام والتقدير أينما حلّ في جزيرة العرب ومصر؛ وأنه أول من رفع القواعد من البيت العتيق مع إسماعيل بكره في مكة المكرمة، وكانت تدعى أرض (فاران) توارتياً.

يقول سفر التكوين من التوراة الإصحاح الثاني عشر: (وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ فَانْحَدَرَ أَبْرَامُ إِلَى مِصْرَ لِيَتَغَرَّبَ هُنَاكَ لأَنَّ الْجُوعَ فِي الأَرْضِ كَانَ شَدِيداً)[1]. المقصود هنا أرض فلسطين الجنوبية ما بين القدس وبئر السبع. سأتفق مع النص التوراتي التكوين 2: 10 دون متابعة لبقية النص من 11-20 في الإصحاح ذاته، والذي يصف إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) (بالقواد) لتقديمه زوجته سارة إلى فرعون مصر على أنها أخته، ليصبح له خيراً بسببها (من فضة وذهب

١- العهد القديم سفر التكوين 12: 10.

ومواشٍ وعبيد وافرة جداً)، كما تقول الرواية الكتابية. ويرد التسويغ ورتق الفجوات في حاشية الشرح للكتاب المقدس بأن شرف المرأة لم يكن معروفاً، وإن البشرية تدرجت في معرفته، وتشيد بتضحية سارة مع الفرعون. وفي هذه الحالة تكون حياة الزوج مفضلة على شرف المرأة، كما تقول الحاشية!

هذه التسويغات تستفز الشك والريبة في أن تكون تلك العبارات كتابية أو إلهية أنزلها الوحي في كتاب يعتد به ويعتمد ككلمة (الله المقدسة)!

بينما يبجل فيه القرآن الكريم توراة موسى ويصفها بالكتاب المنير، أتوقف هنا عند ما اتفق فيه مع التوراة في عبارة (وَحَدَثَ جُوعٌ فِي الأَرْضِ): إنها عبارة تحمل صدق الخبر والحقيقة التي أريد بها إضفاء لباس اللاهوت والورع والتقوى، بخلاف الرواية التي سوف تعود بنا إلى إجراء الدراسة الجغرافية والتاريخية والمناخية وحركة الهجرات المتعاقبة لمنطقة تمتد من الحجاز إلى جنوب شرق البحر المتوسط في حقبة اشتد فيها الجفاف والجوع ذكرتها الرواية الكتابية لتحديد الأسباب الموضوعية التي أدت إلى حدوث هذه الهجرات الكنعانية العمورية والآمورية والعبرية، وما سمي تاريخياً بـ (الملوك الرعاة الهكسوس) إلى دلتا نهر النيل، وما سمي توراتياً (أرض جاسان) بين فرعي النيل دمياط ورشيد، واستقرار النبي يعقوب وبنيه هناك بعد تآمرهم على أخيهم يوسف وبيعه إلى مصر. وعلى ما تذكره الرواية التوراتية، استمرت هذه الإقامة 430 عاماً). لنستنتج ما إذا كانت هذه الهجرة لله، كما حدث مع الأنبياء إبراهيم ومحمد عليهم السلام، أم كانت هجرة ونزوحاً ناتجاً عن ظروف اقتصادية ومناخية رعوية استيطانية لا علاقة لها بالتوحيد والدعوة إليه.

يقول الأستاذ توماس طمسن في كتابه (الماضي الخرافي التوراة والتاريخ):

(مع بداية قرابة عام 1600ق.م[1] دخلت فلسطين عصراً مطولاً من فترات الجفاف المتكررة التي دمرت زراعة المرتفعات وكانت ترتكز على الزيتون والعنب لمدة قرابة قرن ونصف. وأدى عدم الاستقرار الاقتصادي لهذه المناطق من فلسطين إلى أن صارت المرتفعات مهجورة هجرة شبه تامة، ولم تنتج سوى مساحات قليلة، كمجموعة القرى الصغيرة الواقعة في الوديان المحيطة في شكيم (نابلس)، أو تلك الواقعة على طول وادي ايالون قرب أورشليم (القدس). وثمة بعض المؤشرات على أن الريف أصبح مزعزعاً أو خطيراً في معظم المناطق.

١- هي الحقبة التي تتحدث عنها التوراة في التكوين 20: 10.

لقد اختفت حياة القرى الصغيرة عندما صار السكان يلتمسون حماية البلدات الأكبر حجماً والأكثر استقراراً)[1].

وسبقت تلك الحقبة التي تحدث عنها طمسن أزمان مبكرة امتدت لقرون عدة بعد حدوث تغيُّر مناخي لمنطقة شاسعة امتدت من جنوب وشرق البحر المتوسط إلى حافة المنطقة الجنوبية من الجزيرة العربية، ما بين الحجاز والتيماء وعسير وجبال وحدود اليمن. أدى هذا التغيير المناخي لتدني مستوى الهطولات المطرية وارتفاع شديد بدرجات الحرارة شمل سيناء التي كانت خارج حدود مصر، حيث كانت مرتبطةً بالجزيرة العربية (برية وجبال فاران) سيناء والحجاز، مما دفع إلى حدوث هجرات واسعة ومتعاقبة، حيث انحصر الوجود البشري في مواطن الينابيع ومساقط مياه الأنهار ومجاريها والواحات التي حولها. وكان وادي النيل ونهرا دجلة والفرات من أهم هذه الملاذات الآمنة (ما بين الفرات والنيل). ودفع هذا التغيير المناخي والجفاف السكان في المناطق الليبية وجبال البربر إلى الهجرة طلباً للماء والزراعة والمرعى.

هذا الجفاف والمناخ وحده من حوّل العموريين والكنعانيين[2] والعبرانيين الآسيويين إلى مهاجرين ناجين من المجاعة والقحط، ما سُميَّ خطأً (الغزوات الآسيوية إلى دلتا النيل) (..الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا..)[3] ، وحدث ذلك أيضاً في الجهة الغربية من الدلتا، حيث كانت الهجرات من ليبيا وشمال أفريقيا المغربية إلى دلتا النيل وفروعه الغربية.

وكان من الطبيعي أن يترافق مع تزايد هذه الهجرات حدوث تبدلات وانتقال وتمازج للثقافات والعبادات والمعتقدات المختلفة التي حملها معهم أولئك المهاجرون لتتمازج مع ثقافة ومعتقد الموطن الجديد، حيث حدث التأثر والتأثير الذي أنتج هذا التنوع الحضاري للثقافات والعبادات السومرية والأكدية والبابلية والكنعانية والآرامية والمصرية والإغريقية والرومانية، التي حملت الكثير من القواسم المشتركة والسمات المتميزة عن غيرها من الحضارات الأخرى. ومن هنا أيضاً أدخلت بعض العادات والتقاليد الوثنية إلى المذاهب والديانات التوحيدية، هذه العادات لم يكن لها ارتباط بالتوحيد والأوامر الإلهية والوحي. وهذا الخلط بين العادات والعبادات شكل مبرراً اعتمد عليه الكثير من الكتبة ورجال اللاهوت والسياسة بالعمل على تحريف النصوص والتعاليم التي أتت بها الديانات التوحيدية الكونية لتعميم سياسة المصالح والمبدأ المركزي

١- توماس طمسن ص 250.

٢- الكنعانيون عرب ساميون هاجروا من الجزيرة العربية إلى فلسطين واستوطنوا فيها قرابة ثلاثة آلاف وخمسمئة عام ق.م. وهم أول من اكتشف البرونز والأصبغة. وكانوا أصحاب حضارة ومدنية وصناعة. اشتهروا بتنظيم مدن وحكومات وفن وري وعمارة وطقوس دينية.

٣- القرآن الكريم سورة الأنبياء الآية 71.

(ديني هو الحق وما عداه باطل)، في حين أن الديانات التوحيدية متممة لبعضها البعض، وتحمل قيم الإيمان بالله الواحد، وتقف على قدم المساواة في مواجهة الإلحاد. والله يحاسب الناس على درجة إيمانهم بالرسالة التي هم فيها على قاعدة (..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ..)[1].

إن ما قدمته من معلومات ونتائج للدراسات من وجهة نظر الباحثين المتخصصين إنما توخيت منه الإضاءة على حقيقة الأوضاع الجغرافية والمناخية والاقتصادية، والأسباب الموضوعية التي دفعت باتجاه الهجرة والاستيطان، والتي لا علاقة لها بالدعوة والعبادة والتوحيد وكلمة الله المقدسة المدّعاة من خلال انتحال الأحداث الواردة في الأسطورة الكتابية، والتي لا تزال تؤدي دورها السياسي والعنصري في الأحداث الدولية والجرائم بحق الإنسانية حتى يومنا هذا، كما يحدث في فلسطين والعراق وأفغانستان والسودان والصومال ولبنان من دمار وإفقار واحتلال وفتن مستقاة من التبني للقصة التوراتية والمركزية الغربية الاستعلائية الأصولية المتطرفة.

يلقي طمسن الضوء على بعض التناقضات في الحكاية الكتابية بقوله: (حتى منتصف السبعينيات (القرن الماضي) كانت البحوث الكتابية والأثرية تفهم الانتقال ما بين العهد البرونزي المبكر والبرونزي الوسيط بلغة النظرية القديمة لهجرة البدو الرحّل الساميين من شبه الجزيرة العربية. وقد ربط كثيرون تلك النظرية بالنصوص المسمارية والمصرية التي كانت تشير إلى (عموروعمو). وخلق المؤرخون تاريخاً للهجرات والغزوات العمورية التي اجتاحت الهلال الخصيب من الخليج الفارسي إلى دلتا النيل المصرية. وكان يعتقد أن هذه القبائل البدوية قد دمرت ثقافات العهد البرونزي المبكر ما بين النهرين وفلسطين، وإنها خلقت العهد الوسيط الأول لمصر. وبعد عدة قرون أدت إلى نشوء الهيمنة العمورية بين دول ما بين النهرين في سوريا وفلسطين. ربطت الآثار الكتابية تلك الحركة العمورية بحكايات الآباء الكتابيين، لا سيما بقصتي إبراهيم ويعقوب، فهي تقرأ وراء القصص تاريخاً لحركات الشعوب بفعلها هذا. خلقت البحوث الكتابية تاريخاً مزدوجاً لإسرائيل القديم: واحداً بصفة (شعب إسرائيل) بدواً رحلاً من شمال ما بين النهرين في أوائل الألف الثاني، وآخر بصفة رعاة أشباه بدو في نهاية العصر البرونزي قرابة (1200ق.م). ذلك التاريخ يعتمد على قصص كتابية منتقاة بعناية بسبب ترابطها المنطقي، فإبراهيم انتقل إلى أور في جنوب بلاد ما بين النهرين إلى حران في الشمال. من هنا دخل (كنعان) مع عائلته، ومع ذلك نزل يعقوب في مصر في وقت لاحق ليصبح هناك (إسرائيل) ويعود إلى فلسطين تحت اسم (يشوع).

١- القرآن الكريم سورة الحجرات الآية 13.

كان يعتقد أن تلك الرواية تعكس غزواً ثانياً لفلسطين قام به الإسرائيليون الذين اشتركوا في هجرة آرامية أوسع خلقت شعوب عبر الأردن)[1].

القصة المنتقاة بعناية وبترابط منطقي للثلاثية التوراتية، والتي تعتبر مركزية ومحورية تدور حولها الرواية الكتابية، ادّعاء انتقال إبراهيم من أوركلدان إلى الشمال في حرّان، ومن هناك انتقل إلى أرض غربته (كنعان) التي وعد بها كمرحلة أولى؛ ثم استقراره هناك تحت وعد آخر كان له ولنسله من بعده من الفرات إلى النيل مع إقصاء ولي العهد إسماعيل ابنه البكر، الموضوع المحوري في هذه القصة.

انتقل يعقوب من كنعان إلى مصر في قصة محبوكة أخرى، بسبب القحط والمجاعة في كنعان. ينتقل إلى مصر ليصبح إسرائيل، ومصر إمبراطورية ودولة قوية استطاعت وضع اليد على الجرح، فوجدت الدواء له بعد كرم وحسن وفادة بالغين. الأطماع لا تنتهي ومصر عصية، لا بد من ركوب موجة كتابية أخرى أقرب للتحقيق، فكانت فكرة الاضطهاد والعبودية؛ هذا ما تعلنه بصراحة الرواية التوراتية، بينما ليس هناك ما يشير لاضطهاد ديني أو مذهبي في تلك الحقبة داخل النص. وبما أن مصر غير مناسبة للاستيطان والتوسع كان لا بد من استضعاف قوم آخرين. العبرانيون في وادٍ وموسى التوحيدي في وادٍ آخر، فليكن الخروج، وفي الخروج انعتاق من العبودية وعودة للحرية. تم الخروج وعادت القبيلة العبرانية لعبادات وثنية (العجل الذهبي). هكذا فعل المصريون فأصبحوا دولة قوية. الإله هنا ليس المشكلة. استشعر النبي موسى بالخطر وكسر الألواح غضباً ووصف شعبه بأنه شعب قاسي الرقاب وسريع التقلب والغدر والخديعة لا يحتمل الوصايا الملقاة عليه، يريد أرضاً ومملكةً، يبحث عن إله يتوافق معه في مطالبه ويبرر أفعاله، ليس مهماً أن يسميه إبراهيم ويعقوب وإسحق (إيل أو إيليوهيم)، أو يسميه يوشع بن نون (يهوه). يتحول إسراءيل المضطهَد في مصر من مستعبَدٍ وعبدٍ يرزح تحت نير العبودية، إلى سفاح وقاتل وسالب ومُستعبِدٍ وغاصب في أرض كنعان فلسطين، ويتحول أيضاً اسمه إلى يوشع بن نون مع تغييب متعمد ومخطط للنبي موسى، فهو غير مؤهل لما تم التخطيط له. تلك هي الرواية الإشكالية التي يجري عليها الاختلاف الفكري والثقافي اليوم شرقاً وغرباً.

هنا يجب بعض الإيضاح والتصويب: عصر إبراهيم وإسحق ويعقوب في فلسطين هو عصر كنعاني آرامي فلسطيني بارتباطه بالجزيرة العربية، وتوحيد إبراهيم للإله (إيل) الواحد القدير، ولا علاقة له بعصر موسى التوحيدي المصري الآتوني الثائر على العبودية وتعدد الآلهة. أما عصر يوشع بن نون، الذي انفصل

١- توماس طمسن ص 221-222.

عن الدعوة الآتونية الموسوية خلال فترة التيه، فهو عصر استيطاني قومي سياسي دموي، يهدف إلى تأسيس دولة وكيان حتى لو اضطر لتبني الآلهة المحلية، وهو عصر غزاة وقطاع طرق مستوطنين حسب التفسير للرواية التوراتية.

هذا التوجه الشيطاني ابتدأ في واحة قديس (عين قادس)، المسماة توراتياً (قادش برنيع) (شكل رقم 2)، حيث أشارت إليه الآية القرآنية بوضوح في سورة الأعراف، والذي حُدِّد كسكنى لبني إسراءيل، وهناك ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾[1]

سيتم التطرق بالتفصيل إلى تلك الحقبة في الفصول التالية. وما ذُكِر عن عصر يوشع وما تم وصفه به أيضاً، كان استناداً للقراءة التوراتية التي بين أيدينا، ولا علاقة للقرآن الكريم بها، لأن القصة القرآنية تبجل تلميذ موسى يوشع بن نون المؤمن، ولا تنسب إليه ما نسب من موبقات في ادّعاء الرواية الكتابية في سفر يشوع المنتحل برمته داخل النصوص التوراتية!

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 162.

من الخاسوت إلى الغويم

شعب الرب

أشرت في نهاية الفصل الأول إلى الاختلاف الجذري التاريخي والروحي بين عصري إبراهيم الخليل وموسى (عليهما السلام)، واعتبار العصر الإبراهيمي عصراً كنعانياً آرامياً مرتبطاً بفلسطين والجزيرة العربية وقبائلها الأم، ولا علاقة له بعصر موسى المصري الأخناتوني بعقيدته وانتمائه، وتفصل بين العصرين حقبة من الزمن امتدت لما يقارب ستمئة عام على الأقل.

في هذا الفصل سنتتبع أصول الديانات والمعتقدات المصرية لمصر الفرعونية، بمقارنتها بمعتقدات وأسس دعوات الحكاية الكتابية (بعهديها القديم والجديد)، لنرى أين يلتقيان معها، وكيف ومتى يفترقان عنها، لنصل إلى نتيجة مفادها أن جذور الرواية الكتابية وعقيدتها ونمطها مأخوذة أساساً من الديانات والعقائد المصرية القديمة وتقاليدها وثقافتها وأصولها!

قد نصل إلى نتيجة تشير إلى أن هذا الافتراق ربما حصل بعد مقتل النبي موسى (صلى الله علبه وسلم)، واستمرت بعض أوجه الشبه ما بينها، والتي لا تزال باقية إلى اليوم، واستمر تبني بعض هذه الأصول كمبدأ موروث يتفق مع مصالح وغايات وأهداف لا تزال قيد التحقق والمطالبة. هذه المصالح والغايات الضيقة الذاتية لا علاقة لها بالتوحيد والهداية والدعوة الإلهية التي تبناها موسى ودعا إليها. يقول سيمسون نايوفيتس في بحثه (مصر أصل الشجرة):

(كان المصريون في العصور القديمة على وعي شديد بهويتهم الدينية والسياسية، والثقافية، والعرقية المحددة؛ وكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ليسوا آسيويين، ولا أفريقيين، ولا نوبيين، ولا قريبين من التنحو (الليبيين) البغيضين، الذين كانوا يعتبرونهم همجاً»... ويضيف: «طور مثال آخر مشهور للفصل العرقي الذي كان المصريون يشعرون به، فيما يتعلق بالنوبيين والبانتو والآسيويين على جداريات معبد رمسيس الثاني قرابة (1279-1213ق.م) المعروف

بأبي سنبل. وهنا نرى تصوير الأسرى النوبيين والبانتو[1] والعرب الآسيويين والليبيين الذين تساء معاملتهم، وتعرض الفروق فيما بينهم وبين النمط المصري بطرائق تحط من قدرهم»[2].

إن الاقتباس للنمط المصري العرقي، وبغض النظر عن المعتقد الديني الذي يوضع أحياناً كمبرر، يظهر دائماً من خلال الرواية التوراتية (كعذر أقبح من ذنب)، وتنسب مراميه دائماً للأوامر الإلهية. مارس الفراعنة هذا التمييز، لكن دون أن ينسبوه للفعل الإلهي، وهو الفعل ذاته الذي مارسه وتغنى به العبرانيون العابرون تحت مسمى (بني إسراءيل) من البدو المتوحشين الذين دخلوا على الشعوب الأخرى غير العبرية، ومارسوا بحقها التمييز والتطهير العرقي والتحريم بالقتل والإبادة، حسب ما ورد في الرواية التوراتية.

ربما تكون هذه المفاهيم موروثة بشقها القبيح العنصري عن العنجهية والثقافة الفرعونية القديمة لما قبل ثورة العمارنة الأخناتونية التوحيدية وبعد الانقلاب عليها، لكن تلك الثقافة الاستعلائية الفرعونية لم تصل عرقيتها وتمييزها إلى المستوى اللاأخلاقي والعنصري الذي وصلت إليه الممارسات العبرانية التي دعت إلى إبادة الشعوب الأخرى، ولا تقارن بما مارسه الفرعون بحق المصريين والعبرانيين والكنعانيين، الذين اعتنقوا التوحيدية، حيث فُرِضت عليهم العبودية والسخرة والعمل في المقالع عقاباً لهم لأنهم اعتنقوا الديانة الآتونية، وقتل ذكورهم واستحياء الإناث منهم، كما تذكر القصة القرآنية: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

لا تجيز رسالة موسى أن يتحول المضطهدون إلى قتلة وسفاحين وغزاة تحت ادّعاءات أوامر الرب والوحي الإلهي.

قام الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) بحركة الإصلاح الديني بالتحول عن عبادة الآلهة المتعددة إلى عبادة الإله الواحد خالق الكون، وكان النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) من المتبنين لعقيدة أخناتون التوحيدية الثورية المصرية. لكن موسى (صلى الله عليه وسلم) لم يستطع ترسيخ عقيدة التوحيد والوصايا العشر الإلهية (لا تقتل لا تسرق ...إلخ) داخل العقيدة العبرانية

١- البانتو خليط من شعوب وسط وجنوب أفريقيا.

٢- سيمسون نايوفتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 109-110.

٣- القرآن الكريم سورة القصص الآية 4.

وبني إسراءيل، بل إن محاولاته عرضته للإيذاء والتكذيب، وربما القتل أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

والتساؤل هنا ما هي الدوافع النفسية الدفينة التي استولدت هذه العنصرية والفوقية التي تحكم الحكاية الكتابية، وبتعبير أدق: ما هو الدافع الذي دفع بالكتبة والأحبار إلى تضمين ما عرفوه من الحق، والإضافة إليه داخل نص الرواية، لتصبح أهدافاً مشكوكاً بها لمبادئ شاذة لا أخلاقية لا تخفى على القارئ والباحث داخل النص الكتابي وفي متن الرواية، لا سيما حين تواجه هذه الرواية شعوباً وحضارات لها تاريخها وإنجازاتها المدنية المتطورة، وتأمر بإبادتها وحرقها وتدمير منجزاتها، فهي تعبر بذلك عن الدونية والشعور النفسي بالنقص والتخلف، والرغبة الدفينة بالانتقام من كل ما هو متقدم ومتطور، خلافاً لما كانت عليه الحضارة المصرية.

هذه العنصرية التي تبناها أبناء يعقوب (ودائماً أتحدث عما جاء في متن الرواية التوراتية)، ومعهم الجماعات البدائية العبرية التي تضمنها سفر التكوين بشكل تأسيسي، ومهد لما بعده في الأسفار الأخرى، استخدم بشكل بارع ومتقن حبكة روائية أدبية، حاولت إضفاء الصبغة الإلهية على النص، كما نجد في قصة أبناء يعقوب قبل رحيلهم إلى دلتا النيل وكيدهم لأخيهم يوسف: قصة لا تخلو من الغدر والمكر. وإن عبَّرت عن شيء، فإنما تعبر عن دفائن النفسية العبرانية المكبوتة والحاقدة في آن واحد. تقول الرواية وبحسب التوراة (العهد القديم) إن ملك وأهل شكيم (نابلس اليوم) يستضيفون غرباء مهاجرين بكرم وترحاب واضح لا تخفيه الرواية نفسها، وبينما دِيْنة ابنة يعقوب تطوف بالمدينة الغريبة عنها، يعترض طريقها شكيم بن حمور ملك المدينة ويغتصبها. يعلم يعقوب وبنوه (شمعون و لاوي) بالأمر فيغضبون من الفعلة، لكن الملك حمور وشكيم ابنه يتقدمان لخطبتها ويقدمان خطاباً أخلاقياً رائعاً إلى يعقوب وبنيه تودداً وتقرباً: (وَقَالَ لَهُمْ حَمُورُ: شَكِيمُ ابْنِي قَدْ تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِابْنَتِكُمْ. أَعْطُوهُ إِيَّاهَا زَوْجَةً ۞وَصَاهِرُونَا. تُعْطُونَنَا بَنَاتِكُمْ وَتَأْخُذُونَ لَكُمْ بَنَاتِنَا ۞وَتَسْكُنُونَ مَعَنَا وَتَكُونُ الأَرْضُ قُدَّامَكُمُ. اسْكُنُوا وَاتَّجِرُوا فِيهَا وَتَمَلَّكُوا بِهَا». ۞ثُمَّ قَالَ شَكِيمُ لأَبِيهَا وَلإِخْوَتِهَا: «دَعُونِي أَجِدْ نِعْمَةً فِي أَعْيُنِكُمْ. فَالَّذِي تَقُولُونَ لِي أُعْطِي. ۞كَثِّرُوا عَلَيَّ جِدّاً مَهْراً وَعَطِيَّةً فَأُعْطِيَ كَمَا تَقُولُونَ لِي. وَأَعْطُونِي الْفَتَاةَ زَوْجَةً»)[2].

يطلب يعقوب و شمعون و لاوي من شكيم وجماعته أن يختتنوا، حسب عاداتهم. يقوم الملك بأمر الجميع بالختان، فيختتن ذكور المدينة كلهم. وبينما القوم

١- القرآن الكريم سورة الصف الآية 5.

٢- العهد القديم سفر التكوين 34: 8-12.

في وجعهم من اختتانهم.. أترك السرد للرواية التوراتية، حيث تذكر تحت عنوان (انتقام شمعون و لاوي): (۞فَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ إِذْ كَانُوا مُتَوَجِّعِينَ أَنَّ ابْنَيْ يَعْقُوبَ شِمْعُونَ وَلاَوِيَ أَخَوَيْ دِينَةَ أَخَذَا كُلٌّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ وَأَتَيَا عَلَى الْمَدِينَةِ بِأَمْنٍ وَقَتَلاَ كُلَّ ذَكَرٍ. ۞وَقَتَلاَ حَمُورَ وَشَكِيمَ ابْنَهُ بِحَدِّ السَّيْفِ وَأَخَذَا دِينَةَ مِنْ بَيْتِ شَكِيمَ وَخَرَجَا. ۞ثُمَّ أَتَى بَنُو يَعْقُوبَ عَلَى الْقَتْلَى وَنَهَبُوا الْمَدِينَةَ لأَنَّهُمْ نَجَّسُوا أُخْتَهُمْ. ۞غَنَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَحَمِيرَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا فِي الْحَقْلِ أَخَذُوهُ. ۞وَسَبُوا وَنَهَبُوا كُلَّ ثَرْوَتِهِمْ وَكُلَّ أَطْفَالِهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَكُلَّ مَا فِي الْبُيُوتِ)[1].

القصة بذاتها تحمل معاني الغدر والخديعة والمكر واغتصاب الحقوق، وتؤسس لفكر وثقافة عنصريين يبرران حق السلب والنهب والإبادة ويجعلان منها حقاً مكتسباً لبني إسراءيل. وفي مفارقة لافتة وردت في الإصحاح اللاحق مباشرة: (۞ثُمَّ رَحَلَ إِسْرَائِيلُ وَنَصَبَ خَيْمَتَهُ وَرَاءَ مَجْدَلَ عِدْرٍ. ۞وَحَدَثَ إِذْ كَانَ إِسْرَائِيلُ سَاكِناً فِي تِلْكَ الأَرْضِ أَنَّ رَأُوبَيْنَ ذَهَبَ وَاضْطَجَعَ مَعَ بِلْهَةَ سُرِّيَّةِ أَبِيهِ. وَسَمِعَ إِسْرَائِيلُ...)[2].

لا بد هنا من المقارنة بين الانتقام الرهيب لدينة ابنة يعقوب وبين صمت يعقوب على اغتصاب زوجته سُرِّيته الثالثة خادمة زوجته ليئة من قبل ابنه رَأوبين من زوجته الأخرى (الذي اغتصب زوجة والده يعقوب)، وكيف صمتت هنا الرواية أيضاً، فالشرف فيها موضع انتقاء وغايات لا علاقة لها بالتوحيد والنبوة، مع شكوكي الكبيرة بصحة هذه الرواية من أن تكون قد حصلت أو أن يكون الوحي الإلهي له أي علاقة بها!

الهدف هنا تأسيسي لما بعده، وما قصة يوسف وكيد إخوته له وبيعه أو محاولة قتله إلا واحدة من الأمثلة الكثيرة الدالة على طموح وجنوح القبيلة العبرانية لتأسيس شعب وقومية وديانة خاصة لا علاقة لها بالتوحيدية الموسوية والديانة الهدائية الأممية المرتبطة بالإله الواحد رب العالمين جميعاً. هذا المعتقد الخاص المغلق سوف يطيح بكل مفاهيم الخير والحق والعدالة والمساواة والأخلاق ونبذ العبودية التي جاء بها النبي موسى وديانته التوحيدية، ولا بأس أن تنسب كل التصرفات الشاذة العدوانية والمخالفة للوصايا وكتاب القانون إلى الإرادة الإلهية تحت مقولة (هكذا قال الرب)، لا سيما في الحكاية التأسيسية لفصول الكتاب الأخرى: أسطورة (إسحق وعيسو ويعقوب ورفقة)، والتي هي أقرب إلى قصص الخيال وحكايات العجائز الأسطورية.

١- العهد القديم سفر التكوين 34: 25-29.
٢- العهد القديم التكوين 35: 21-22.

تقول القصة الكتابية إن يعقوب أخذ البركة من أبيه إسحق بوصفه الابن عيسو البكر بانتحال شخصية عيسو بالكذب على أبيه إسحق مشتركاً مع والدته رفقة، التي رتبت الخديعة لزوجها إسحق[1] (وسوف يكلمها الرب لاحقاً ويباركها)، كما سنرى، وبحجبها حق البكورية لابنها عيسو كونه ولد إسحق البكر، وهنا تكرار (للرواية المدعاة) ما بين سارة ورفقة بحجب بكورية إسماعيل (صلى الله علبه وسلم) الولد البكر لإبراهيم أبيه[2].

تقول الأسطورة الكتابية: (۞فَقَالَ لَهُ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ: «أَنَا ابْنُكَ بِكْرُكَ عِيسُو». ۞فَارْتَعَدَ إِسْحَاقُ ارْتِعَاداً عَظِيماً جِدّاً. وَقَالَ: «فَمَنْ هُوَ الَّذِي اصْطَادَ صَيْداً وَأَتَى بِهِ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ وَبَارَكْتُهُ؟ نَعَمْ وَيَكُونُ مُبَارَكاً!» ۞فَعِنْدَمَا سَمِعَ عِيسُو كَلاَمَ أَبِيهِ صَرَخَ صَرْخَةً عَظِيمَةً وَمُرَّةً جِدّاً وَقَالَ لأَبِيهِ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَا أَبِي!» ۞فَقَالَ: «قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ». ۞فَقَالَ: «أَلاَ إِنَّ اسْمَهُ دُعِيَ يَعْقُوبَ فَقَدْ تَعَقَّبَنِي الْآنَ مَرَّتَيْنِ! أَخَذَ بَكُورِيَّتِي وَهُوَذَا الْآنَ قَدْ أَخَذَ بَرَكَتِي». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا أَبْقَيْتَ لِي بَرَكَةً؟» ۞فَقَالَ إِسْحَاقُ لِعِيسُو: «إِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّداً لَكَ وَدَفَعْتُ إِلَيْهِ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ عَبِيداً وَعَضَدْتُهُ بِحِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. فَمَاذَا أَصْنَعُ إِلَيْكَ يَا ابْنِي؟» ۞فَقَالَ عِيسُو لأَبِيهِ: «أَلَكَ بَرَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَا أَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَا أَبِي!» وَرَفَعَ عِيسُو صَوْتَهُ وَبَكَى. ۞فَأَجَابَ إِسْحَاقُ أَبُوهُ: «هُوَذَا بِلاَ دَسَمِ الأَرْضِ يَكُونُ مَسْكَنُكَ وَبِلاَ نَدَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ. ۞وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ. وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ»)[3].

من الواضح جداً هذا التشابه والتبني ضمن الرواية التوراتية لعمليات الإقصاء (للولد البكر) بسرد روايات متشابهة في التبريرات والأعذار المختلفة،

١- أيضاً سارة زوجة إبراهيم كانت عاقراً، كما زوجة إسحق (رفقة). وتكرر رواية إقصاء إسماعيل (عليه السلام).

٢- عيسو الولد البكر لـ إسحق تزوج من إحدى بنات عمه إسماعيل. تقول التوراة إن إسحق شاخ وكلت عيناه، فطلب من زوجته رفقة أن يصطاد له ولده البكر عيسو صيداً ليأكل من يده ويباركه، وكان عيسو كثيف الشعر ويعقوب أملسه، فذبحت له جدي ماعز وألبست جلده إلى يعقوب ليقدم إلى أبيه الأعمى على أنه عيسو ليباركه. تم ذلك بالخديعة والمكر ومعرفة رفقة.

٣- العهد القديم التكوين 27: 32-40.

وفي حبكات لا تخلو من الانتحال والتبرير غير المقنع، والكذب[1]، فإقصاء إسماعيل الولد البكر لإبراهيم عن البكورية والرياسة يوازي تماماً إقصاء عيسو بكر إسحق عن البكورية ومنحه البركة للولد الأصغر يعقوب. هذه القصص المدّعاة تحمل في ثناياها تعبيراً واضحاً عن العقلية البدائية المتوحشة التي تنتمي إلى بدايات عرقية متعلقة بتكوين القبيلة العبرية المرتبطة بالروايات والأساطير القديمة، والتي لا علاقة لها بالتوحيد وبما نحن بصدده في بحثنا هذا.

ويعبر سيغموند فرويد عن ذلك في كتابه (موسى والتوحيد)[2]، وتحت عبارة (التطبيق) بالقول: (يبدو هذا التاريخ وبالطريقة التي نسرده بها في منتهى التكثيف، فكان ما اقتضى سنوات وسنوات لكي يحدث ويتم، وكان ما تكرر بلا انقطاع لم يحدث في الواقع إلا مرة واحدة يتيمة، فقد كان الذكر ذو البأس والقوة، سيد العشيرة قاطبة ووالدها، يحوز حسبما يحلو له، وبفظاظة وشراسة، سلطاناً لا يحده أحد. وكانت الإناث كافة رهن أمره: نساء عشيرته وبناتها، كذلك النساء والبنات السبايا من العشائر الأخرى. وكان قدر الأبناء قاسياً، فقد كانوا يقتلون أو يخصون أو يطردون إذا ما أثاروا ذات يوم غيرة الأب. وكانوا يجدون أنفسهم مكرهين على العيش في جماعات صغيرة، ولا يعرفون من سبيل إلى اقتناء النساء وحيازتهن غير سبيل الخطف والسبي. وكان يحدث أن يتوصل بعضهم إلى أن يخلق لنفسه مركزاً يضاهي مركز الأب في العشيرة البدائية. أما الأبناء الأصغر سناً فقد كانوا يتمتعون - بالطبع - بوضع ممتاز، إذ كان حب والدتهم وسن والدهم يوفران لهم الرعاية الاجتماعية والحماية. ومن هنا كان حظهم أكبر في أن يخلفوا الأب. وفي مستطاعنا على ما يبدو أن نجد في عدد كبير من الخرافات والأساطير آثاراً وبقايا من طرد الابن البكر وإيثار الابن الأصغر).

لا زلنا في الاتجاه التأسيسي المنهجي المبرمج لما بعده، الذي سوف يؤدي إلى إقصاء شعوب وأمم وسلب أراضيها وممتلكاتها واستعبادها، ونقتبس من الرواية الكتابية الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين، المؤسس لقبول الخديعة والكذب والمكر واغتصاب الحقوق، ولو تطلب الأمر تحقيقه على يد الأنبياء! (۞وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمَّا اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ زَوْجَةً رِفْقَةَ بِنْتَ

١- لنقارن بين كذب يعقوب وأمه رفقة والاحتيال والمكر بحق الزوج إسحق ضمن القصة التوراتية وبين ما حصل من كذب وتضليل لبوش وبلير التوراتيين فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل في تبرير الغزو والاحتلال للعراق. وكيف برر الصهيوني بوش الكذب بقوله إن الرب أمرني أن أحتل أفغانستان والعراق.

٢- فرويد (موسى والتوحيد): ص 112-113.

بَتُوئِيلَ الأَرَامِيِّ أُخْتَ لاَبَانَ الأَرَامِيِّ مِنْ فَدَّانَ أَرَامَ. ۞وَصَلَّى إِسْحَاقُ إِلَى الرَّبِّ لأَجْلِ امْرَأَتِهِ لأَنَّهَا كَانَتْ عَاقِراً(١) فَاسْتَجَابَ لَهُ الرَّبُّ فَحَبِلَتْ رِفْقَةُ امْرَأَتُهُ. ۞وَتَزَاحَمَ الْوَلَدَانِ فِي بَطْنِهَا فَقَالَتْ: «إِنْ كَانَ هَكَذَا فَلِمَاذَا أَنَا؟» فَمَضَتْ لِتَسْأَلَ الرَّبَّ. ۞فَقَالَ لَهَا الرَّبُّ: «فِي بَطْنِكِ أُمَّتَانِ وَمِنْ أَحْشَائِكِ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ» ۞فَلَمَّا كَمُلَتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ إِذَا فِي بَطْنِهَا تَوْأَمَانِ. ۞فَخَرَجَ الأَوَّلُ أَحْمَرَ كُلُّهُ كَفَرْوَةِ شَعْرٍ فَدَعُوا اسْمَهُ عِيسُوَ. ۞وَبَعْدَ ذَلِكَ خَرَجَ أَخُوهُ وَيَدُهُ قَابِضَةٌ بِعَقِبِ عِيسُو فَدُعِيَ اسْمُهُ يَعْقُوبَ. وَكَانَ إِسْحَاقُ ابْنَ سِتِّينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْهُمَا)(٢)(٣). إنَّ تأسيس القاعدة الفقهية المؤسسة لما بعدها من شروط ومتممات تبدو واضحة للعيان من خلال ما استعرضناه في قصة يعقوب وعيسو، وادّعاء قول الرب: (شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ)، وما تلاه من قصة ابنة يعقوب وأهل مدينة شكيم (نابلس)، واعتماد المكر والخديعة والكذب كمسوغ يبرر تطبيقها على الشعوب الأخرى (الغويم والغويم فقط).

ويبدو هنا النص المنحول الذي أسس لمفهوم (شعب الرب وأرض الميعاد)، هذه المشيئة الإلهية المدعاة التي يجب أن تخضع لها الشعوب الأخرى المستضعفة تحت شعارات وتفسيرات لاهوتية تطورت وترسخت غربياً وعُبِّرَ عنها في الثقافة الغربية بادّعاء (حتمية زوال الحضارات البربرية الآثمة ذات الشرور)، والتي سوف تحل مكانها الحضارات التوراتية اللطيفة المتمدنة والأخلاقية مع ما يحمله هذا النظام الاستعماري الصهيوني الإمبريالي لهذه الشعوب من مدنية وحضارة ومكاسب. وهذا ما بُرِّرَ له داخل الفكر التوراتي الاستعلائي: المذابح والإبادة والاستيطان، والأعمال التي قام بها بنو إسراءيل أثناء غزوهم لكنعان أرض الفلسطينيين، وعبر إيمانهم

١- تقول الرواية الكتابية أن سارة أيضاً كانت عاقراً بالإضافة إلى كنتها رفقة.

٢- العهد القديم سفر التكوين 25: 20-26.

٣- عيسو بكر إسحق كان متزوجاً من ابنة عمه إسماعيل العربي وفي حالة بكوريته ستنتقل البركة والبكورية إلى العرب كون القبيلة العبرية تعتبر النسب للأم بخلاف المسيحية والإسلام، فكان لا بد من إقصاء العرب عن الوراثة النبوية والبركة عبر خديعة لـ إسحق ما لبث أن تقبلها بخلاف أخلاق الأنبياء، بل نسب إليه أنه جعل من ابنه البكر المظلوم والمضطهد من قبل أخيه يعقوب عبداً وبعيداً عن خير الأرض ومساكنها، وهذا يثير الشك والريبة حول الرواية التوراتية وصحتها.

برواية (الكتاب المقدس)، بل إن هذا المعتقد العنصري شكل أساساً وتبريراً لغزو القارة الأمريكية والأسترالية واستيطانها وإبادة سكانها الأصليين واستبعاد من بقي منهم على قيد الحياة، وغزو آسيا وأفريقيا ونهب خيراتها واستعباد شعوبها المشابه، من حيث النتيجة، لما يحدث الآن في فلسطين والعراق وأفغانستان ولبنان والسودان والصومال، وغيرها.

فالقول: (وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ. وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ)[1] ينفي ويلغي نهائياً ما جاء في متن القصة التوراتية من الوصايا العشر، ولا يعير وزناً لقيم الخير والأخلاق وميزان العدل والحقوق والحرية، ويطيح بكل ما هو إنساني وحضاري، لأنه يُغلبُ منطق القوة الطاغية ويؤسس لشريعة الغاب!

وعلى الرغم من شذوذ هذا القول وهمجيته يعتد به كشريعة للنبي موسى داخل (الكتاب المقدس)، وينسب إليه على أنه كلمة الله المقدسة!

ولعل ما ورد على لسان النبي هوشع في رواية الكتاب العبري المقدس عن بطولات يعقوب ومآثره العظيمة ما يؤكد التعاضد والترابط بين الكتبة الذين انكبوا على إعادة نسخ الرواية في أزمان مختلفة وبعيدة عن تواريخ وقوعها، وبعد وقوع أحداثها بفترات زمنية طويلة، وتوقع حدوث أحداث أخرى أو العمل على إحداثها، لتتم خدمة الأحداث اللاحقة من خلال الحذف والوصل والتحريف والتأهيل المسبق. ونقتبس من سفر هوشع: (۞فِي الْبَطْنِ قَبَضَ بِعَقِبِ أَخِيهِ وَبِقُوَّتِهِ جَاهَدَ مَعَ اللَّهِ. ۞جَاهَدَ مَعَ الْمَلاَكِ وَغَلَبَ. بَكَى وَاسْتَرْحَمَهُ. وَجَدَهُ فِي بَيْتِ إِيلَ وَهُنَاكَ تَكَلَّمَ مَعَنَا. ۞وَالرَّبُّ إِلَهُ الْجُنُودِ يَهْوَهُ اسْمُهُ. ۞وَأَنْتَ فَارْجِعْ إِلَى إِلَهِكَ. احْفَظِ الرَّحْمَةَ وَالْحَقَّ وَانْتَظِرْ إِلَهَكَ دَائِماً)[2][3].

سفر هوشع من الأسفار التي ألحقت بكتاب التوراة وشكلت (العهد القديم)، ولا علاقة لهذه الأسفار بكتاب موسى. وينتمي هذا السفر إلى أسفار الأنبياء المتأخرين، وكتب مع أسفار أخرى بعد أكثر من خمسمئة عام على وفاة النبي موسى تقريباً، وبعد وفاة النبي سليمان (صلى الله عليه وسلم). ويبدو واضحاً

١- العهد القديم سفر التكوين 27: 40.

٢- العهد القديم سفر هوشع 12: 3-6.

٣- قصة مصارعة يعقوب للإله راجع العهد القديم سفر التكوين 32: 24-31. ويلاحظ جلياً من النصوص المضافة للعهد القديم التركيز على عبارة (رب الجنود) التي وردت في سفر زكريا وحده، ومن خلال اثنين وعشرين صفحة من الإصحاح الأول إلى الإصحاح الرابع عشر والأخير (رب الجنود)، خمسين مرة في إشارة واضحة إلى تبني الحروب والعدوان والسطو بالقوة والاغتصاب بالعنف، وبشكل يبدو فيه الإله الخاص مقاتلاً دائماً وعدوانياً.

ما أدخله الكتبة من تعديل وتطوير فيه على الرواية الأولى الواردة في سفر التكوين (صارع الله) إلى (صارع ملاكاً) على أمل منهم أن تكون الخرافة أكثر منطقية وقبولاً يمكنهم من تسويق رواية العهد القديم وجعلها مواكبة للمعرفة والتطور والتحديث.

على الرغم من ذلك لم يستطع الكتبة إخفاء الطابع الحربي والنهج العدواني الذي يعتبر أساس هذه الرواية (رب القوات لقبه). في سفر التكوين يصارع يعقوب إلهاً، يحمل اسم (أيل) من حيث العصر والثقافة الكنعانية والإبراهيمية الآرامية. وفي الممارسة، فإن ذلك الإله ينتمي بمواصفاته إلى (يهوه) الإله القبلي، الذي لا يظهر إلا ليلاً ويخشى النور والفجر، يصارع، وبقوله ليعقوب (وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي)[1]، يتوسل كي يطلقه يعقوب الذي غلبه (بكى وتضرع)، وخلع حق فخذ يعقوب فأصبح به عرجة[2]. مُنِحَ يعقوب هنا اسم خادم الإله الواحد (أيل) (إسراءيل)، لكن من هو الذي ادّعى منحه لقب المصارع (يهوه). يبدو هذا الادّعاء (خرافياً)، فالفارق بين عقلية القرن السابع عشر قبل الميلاد وعقلية القرن السابع قبل الميلاد كبير، لا بد إذاً من التعديل، وهذه المرة على لسان النبي هوشع المتأخر (صارع الله، صارع ملاكاً فغلبه وبكى وتضرع) يلاحظ الإصرار على ذكر المصارعة مع الله، ثم تحويلها إلى صراع مع ملاك يتضرع ويبكي؛ إنه ادّعاء وإضافة أقرب إلى ذهن المتلقي. تعديل تسوق به الرواية، مع الإشارة إلى أن يعقوب أخذ مكان أخيه من البطن، تسويقاً للقوة التي غُلِبَ فيها الله، حيث بكى الله. ولا تخفى دعوات الحرب والسطوة بوصف الإله برب الجنود؟[3]

١- العهد القديم سفر التكوين 32: 26.

٢- كان يعقوب يعاني من مرض عرق النسا، الذي سبب له عرجة، فنذر لله إن شفي من مرضه أن يصوم عن أحب الطعام إليه، وكان هذا الطعام المفضل هو لحم الإبل ولا علاقة للمصارعة المدعاة مع الإله، وقد بين القرآن الكريم ذلك.

٣- لقد أسست هذه الرواية التي دسها الكتبة إلى مرحلة بعدها في عصر (الأنبياء أو الملوك المتأخرين)، ضمن التبريرات الواهية والعنصرية، وتحديداً في سفر العهد القديم الأخير (ملاخي) (۞[أَحْبَبْتُكُمْ قَالَ الرَّبُّ]. وَقُلْتُمْ: [بِمَا أَحْبَبْتَنَا؟] أَلَيْسَ عِيسُو أَخاً لِيَعْقُوبَ يَقُولُ الرَّبُّ وَأَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ

لم يتمكن الكتبة بهذا التعديل من إخفاء الثقافة الكنعانية عندما كتبوا بيت (إيل)، كما لم يخفِ التعديل ذكر إله (القوات) الرب لقبه، يهوه يقود القوات الإسراءيلية في غزوها لكنعان ويقتل أكثر من مئة وخمسة وثمانين ألفاً من جيش آشور (وَكَانَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ خَرَجَ وَضَرَبَ مِنْ جَيْشِ أَشُّورَ مِئَةً أَلْفٍ وَخَمْسَةً وَثَمَانِينَ أَلْفاً. وَلَمَّا بَكَّرُوا صَبَاحاً إِذَا هُمْ جَمِيعاً جُثَثٌ مَيِّتَةٌ)[1].

الإله يهوه المحارب إله القوات هو الإله المتبنى في أرض المديانيين، وهو إله البراكين والظلام والغضب، وطوّر اسمه في العهد القديم لاحقاً ليكون (الرب)، ومع ذلك يعتمد الكُتَّاب اللاهوتيون اسم يهوه (بوصف الرب) دون تمييز.

يذكر الكاتب سيمسون نايوفيتس في إشارة لافتة إلى المبادئ والقيم التي استقاها العبرانيون من التقاليد المصرية قبل ثورة وديانة أخناتون التوحيدية، والتي استمرت لما بعده، ولما بعد الخروج أيضاً.

(كان المصطلح المتصل (بجت)[2]. وكثيراً ما كان يستخدم عوضاً عنه الـ (الخاسوت) (البلاد الأجنبية)، وهو ما كانت تسمى به البلدان الآسيوية عادةً، ولكنه كثيراً ما كان يشمل البلدان الأفريقية كذلك. وعادةً ما كان ينظر إلى أي شخص في (الخاسوت) على أنه (خفتي) أي عدو، و (سبي) أي متمرد[3]، وربما كان من السهل أن نفهم الدلالات السيئة لاصطلاح (خاسوت) بالإشارة إلى علاقته بالمصطلح العبراني اللاحق (جويم - غويم)، أي الشعوب غير العبرانية أو (الأميون)، وهو الاصطلاح الذي ربما أوصى به مبدأ (خاسوت) المصري. واستخدم المسيحيون الأوائل بدورهم اصطلاح (الوثنيين) لوصف غير المسيحيين، وبالطريقة الازدرائية نفسها التي استخدم فيها اليهود «جويم» والمصريون «الخاسوت»)[4].

لم ينتهِ وصف اليهود للغير (بالغويم)، على الرغم من انتهاء صلاحية هذا المبدأ باعتناق الأمم غير العبرانية لليهودية كديانة، وفي مواطنهم المختلفة حول العالم.

أما في مصر، فقد بدأ هذا الفكر التمييزي والاستعلائي بالتغير والانكفاء تدريجياً. وفي زمن تحتمس الأول الذي استطاع الوصول بجيوشه المصرية إلى

۞وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ وَجَعَلْتُ جِبَالَهُ خَرَاباً وَمِيرَاثَهُ لِذِئَابِ الْبَرِّيَّةِ؟) العهد القديم سفر ملاخي 1: 2-3.

١- العهد القديم سفر الملوك الثاني 19: 35.

٢- (المقصود بـ «بجت» الأقواس التسعة. ومنهم: النوبيين؛ التنحو (الليبيين)؛ الشاسو: هم البدو الرحل سكان الرمال الآسيويين الوضيعين، والاسم طُوِّر إلى (الخاسوت) المشابه له (الغويم)؛ الهِكسوس حكام البلاد الأجنبية؛ العابيرو الغزاة الرحل العبرانيين. ومعنى (غويم) التلمودي الحيوانات البشرية المسخرة لخدمة بني إسرائيل (الكيان).

٣- يلاحظ القارئ الكريم تسمية المقاومين العراقيين والأفغان بالمتمردين، والمقاتلين الفلسطينيين بالمخرّبين.

٤- سيسون نايوفيتس: مصر أصل الشجرة ج1 ص 111.

وسط آسيا، تشكلت إمبراطورية عظيمة امتدت إلى نهر الفرات، لكن ما لبث أن تقلص نفوذ هذه الإمبراطورية المصرية في زمن فرعون (حتشبوت) المسالم، لكن تحتمس الثالث عاد واسترد سلطته عند نهر الفرات في معارك لا تزال نقوشها بارزة إلى اليوم ومدونة في سجلات (حروب تحتمس الثالث). هذه الحروب والفتوحات والمدونات هي ذاتها الحروب التي اقتبسها الأحبار والكتبة ودونوها في أسفار (الملوك)، ونسبوها إلى الملك داود، وهو لا يزال يركب على بغلته الملكية، حيث توج سليمان ولده عليها ملكاً على مملكة تمتد من الفرات إلى النيل، كما تدّعي الرواية دون معرفة أو تاريخ لوجود إمبراطورية كهذه وكيف حصل سليمان عليها؟

تخبرنا الأبحاث والمصادر والآثار الباقية عن التغيير المهم للفكر المصري في نظرته للشعوب الأجنبية غير المصرية. وتبين أنشودة إلى آمون رع (بردية بولاق -17- بالمتحف المصري بالقاهرة)، تعود للأسرة الثامنة عشر، ويتوافق تاريخها مع وجود بني إسرائيل في مصر وقتها (1550-1275ق.م تقريباً):

(إنه ما دام كبير آلهة المصريين آمون رع الذي أنشأ وخلق البهائم هو المهيمن، فلم يكن هناك تناقض مع الرأي المتسامح الذي يقول إن (آتوم) فطر الناس وميّز طبيعتهم، وفصل الألوان الواحد عن الآخر)[1].

وفي مصدر آخر متخصص بهذا الشأن جاء التمجيد في هذه الرؤية الأكثر كلية مع الفرعون أخناتون أول الموحدين في أنشودة أخناتون (أيها الإله الواحد الذي ليس بجانبه أحد... إنك ترى كل إنسان في موضعه... إنك توفر حاجاتهم... وتختلف ألسنتهم فيما تنطق به... وكذلك الطبائع... فجلودهم مميزة.. لأنك ميزت الشعوب عن بعضها)[2].

ويعبر سيمسون بصراحة ووضوح عن رفضه لمبدأ (ديني هو دين الحق وما عاداه باطل) التي سادت بعد ظهور الأديان التوحيدية السماوية الثلاثة، حيث تم تكريس هذا المفهوم للدين من قِبَل اليهود بشكل رئيس، ومن خلال رفضهم للدين المسيحي وديانة المخلص: المسيح.

الديانة الإسلامية تحترم وتعترف بالديانتين (اليهودية والمسيحية)، مع الإشارة لما شابهما من تحريف، وتعتبر الإيمان بالكتابين (التوراة والإنجيل)، وبالأنبياء موسى وعيسى (عليهما السلام)، من الشروط الأساسية التي تجعل

1- Wilson John In Near Eastren Text5 Relating To Old Testament Pp-365-366.
2- Lichheim- Miriam-Ancient Egyptian Literature Volm - Iip 98.

الإنسان المسلم مؤمناً، إذ لا يكتمل إسلامه دون الإيمان بهم وبكتبهم وبسائر الأنبياء والرسل والقديسين (كمريم بنت عمران البتول) عليها السلام.

يقول سيمسون بهذا الصدد: (فهذه الرؤية المتعجرفة والمتعصبة التي تجعل من كل ما هو قبل موسى (وثنية)؛ ثقافة وثنية وسحراً، أمر يبعث على الضحك فحسب. وعلى عكس النصوص القديمة كافة، لم يعلن الكتاب المقدس اليهودي المسيحي مراراً وبتكبر باعتباره واقعياً وعلى أنه الحقيقة، بل كذلك باعتباره المصدر الوحيد لـ (وحي الرب). وهذا الرأي غير العادي لم يواجه بتحدٍّ ناجح إلا مؤخراً، فمن حسن الحظ أن معظم الباحثين الآن يرفضون فكرة أن أجزاء كثيرة من الكتاب المقدس صحيحة بشكل آلي لمجرد أنها في الكتاب المقدس. ربما تكون الطريقة الأكثر حياداً لوصف ما حدث هي أنه كان نقطة تحول في تاريخ الديانة وليس (وحياً).

ويصل سيمسون إلى نتيجة مهمة وحساسة مفادها: (ثبت أن غموض المقاربة العبرية ما قبل عقلانيتها كان القوة الموجهة الأكثر فاعلية بالنسبة لاختراع مفاهيم دينية بسيطة وأقل قابلية للإثبات، وأهداف أخلاقية أسمى، وبحث وجودي وميتافيزيقي أكثر قابلية للتعديل، ورغم ذلك كان لكل مقاربة للمقدس مزاياها وعيوبها والكثير من الأمور المشتركة بينهما، وكانت النتيجة في الحالتين نظماً لاهوتية معقدة وثراءً ميثولوجياً خرافياً)[1].

على ضوء ما تقدم أستطيع وبثقة أن أجزم بأن الكثير من المعتقدات والقيم والمفاهيم التي ساقتها الرواية الكتابية، موروثة بالأصل ومنقولة من ثقافة دينية وتراثية توحيدية بدائية، فقد جاء الملك أخناتون (أمنحوتب الرابع) بثورته الإصلاحية العلمية فطور مفهوم التوحيد والآلهة المتعددة إلى مفهوم الإله الواحد خالق كل شيء.

أدت هذه الثورة الدينية الإصلاحية لتغيير جوهري وجذري في المفاهيم والعقائد الدينية المصرية، وتوجهت بها نحو الإنسان المثالي الذي يحمل قيماً أخلاقية ونظام عدالة اجتماعية والمتقبل للتنوع البشري العرقي؛ وأسقطت مفهوم (الخاسوت)، أو تمييز أي إنسان بعرقه أو لونه أو لغته، كما عبرت عنه ترنيمة أخناتون التي وردت. وهنا لا بد من طرح سؤال مهم:

١- سيمسون نايوفيتس: ج1 ص 188-189.

- هل استطاعت ديانة التوحيد الموسوية ومعها ثورة أخناتون التقدمية الحدّ من الغلو والتطرف والتقوقع الذي تبنته القبيلة العبرية؟ وهل استطاعت التأثير في ميولها المكبوتة نحو التمييز والعدوانية الوراثية؟

يبدو جواب هذا السؤال بالنفي، ويظهر ذلك واضحاً في الأسفار الأولى من الكتاب العبري، لا سيما سفري الخروج والتثنية. وسوف يتضح في هذا البحث أن مشاكسة موسى وتكذيبه بدايةً ثم نبذه وموته الغامض كان نتيجةً لمحاولاته المستمرة في تصحيح مسار هذه الجماعة الضالّة التي حاول توجيهها نحو التوحيد الإنساني الشامل وإبعادها عن فكرة الإله القومي السياسي الخاص. ويظهر بوضوح التهويش والغموض والتهديد، الذي اكتنف الرواية بما يتعلق بالنبي موسى وحادثة موته، مما دفع الباحثين والمتخصصين في الدراسات الكتابية وعلماء النفس وغيرهم (يان اسمان، سيغموند فرويد) بتوجيه النقد والاتهام للجماعة العبرية بأنها وراء قتل موسى وتغييبه، وقبل الدخول لتفاصيل أكثر دقة بهذا الخصوص. لا بد لي من التطرق لما بحثه سيمسون نايوفيتس عن الدولة الأولى في التاريخ وأول دولة مقدسة على أرض مصر بهدف توثيق المعلومات والأدلة التاريخية التي تشير إلى مصدر التبني العقائدي للقبيلة الإسرائيلية ومقولاتها (شعب الرب)، وكيف تحولت نبوة يعقوب (عليه السلام) من دعوة وهداية إلى مطالب دولة ووطن وإله خاص (بإسرائيل) يقول سيمسون: (كانت مصر أول دولة مركزية في تاريخ البشرية، وأول دولة تعلن ضمناً عن طابعها المقدس. وكان من الطبيعي أن توحي الملكية الإلهية بقدسية أرض مصر. ولم تكن (تا - وي) أول مملكة موحدة وأول دولة في تاريخ البشرية فحسب، بل كذلك أول دولة مقدسة. وكانت (تا - وي) أول دولة تعلن ضمناً عن طابعها المقدس بإعلانها أن من يحكمها هو الإله (الفرعون) الذي كان تجسيداً لحورس إله العالم، وأن شعبها أسمى من سائر الشعوب». ويضيف: «رعى المصريون وهمٌ أنهم مختلفون عن غيرهم من الشعوب وأفضل منهم، وكانوا مشبعين تشبعاً شديداً بشعورهم بالتفوق، وكانوا يصفون أنفسهم أنهم الشعب الوحيد الذي تباركه الآلهة، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أقدم الشعوب وأمجدها، وعلى أنهم الشعب المثالي، وعلى أنهم مركز العالم، كما رأينا. كان المصريون (رمت) بشر ومعناها الحرفي (الناس) أي الشعب الوحيد الذي تباركه الآلهة، أما سائر الشعوب فلم ترقَ إلى المستوى المصري[1]. وربما كان هذا هو الموقف الذي أيّد إعلانهم الطابع المقدس للدولة المصرية والشعب المصري، وأعطاهم هذا وضع (الشعب المختار) الفعلي، وهي الفكرة التي طورها فيما بعد بشكل أكثر تطرفاً وصراحة العبرانيين الذين أعلنوا أنفسهم (الشعب المختار)»[2].

١- تماماً كما تدعي المركزية الثقافية الغربية في أيامنا هذه.

٢- سيمسون نايوفيتس (مصر أصل الشجرة) ج1 ص 221-223.

إن المبادئ والقيم الوثنية القديمة لنظام تعدد الآلهة، التي عمل على إلغائها الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) بثورته العلمية والإنسانية، والتي أجهضت بعد ما يقرب من عشرين عاماً على قيامها، كانت مناسبة تماماً لطبيعة تكوين القبيلة الإسراءيلية وعقدها النفسية وعاداتها البدائية، على الرغم من الفارق الكبير بين الازدهار المصري والتخلف العبراني المُعبَّر عنه داخل الحكاية الكتابية نفسها. هذه العقد وهذا الاستكبار والانعزال شاب تصرفاتها ودعواتها قبل ظهور دين التوحيد، واستمرّ إلى ما بعده.

إن ما شاب سفر التكوين من تشويه وادّعاءات عصبوية وعنصرية، وتبرير للمكر والخديعة والسطو، وصولاً لاتهام الأنبياء (بزنى المحارم)، (وفعل القوادة)، وتبرير الكذب ومعايير مزدوجة فاضحة لمفاهيم الشرف والأخلاق كقصة زنى النبي لوط (عليه السلام) بابنتيه وحملهما منه سفاحاً، وقصة دينة ابنة يعقوب وإخوتها مع حمور وشكيم، واستباحة أهل مدينة (نابلس) بقتلهم وسلب ممتلكاتهم وسبي الناجين من إناثهم، وتنكر النبيين إبراهيم وإسحق لزوجاتهم بدعوى أنهم أخوات لهم استخفافاً وتفريطاً بحق الزوجة وشرف المرأة، وبغرض وصم الآخرين زوراً (بالإباحية)[1]، تبريراً لإبادتهم وسلب ممتلكاتهم وأراضيهم كخاتمة لرواية أعدت تفاصيلها ونهاياتها بالطريقة التي تخدم مُحرِّفيها ومدعيها. هذه الممارسات أو الادّعاءات عبرت وبوضوح عمّا تضمره وتبينه العقلية العبرية ذات العقد النفسية الدفينة والمتأصلة في صلب تكوينها.

استمرت الحكاية متناقضة مع حقائق التاريخ والجغرافيا ومنطق التطور والعلم ومبدأ التوحيد الإلهي الهدائي وقانون الوصايا العشر الذي تلقاه النبي موسى (عليه السلام).

أولئك العبرانيون المضطهدون والتواقون للحرية والتخلص من العبودية ونظام التسخير الفرعوني الذي مورس بحقهم في أرض مصر، هم أنفسهم تحولوا بعد الحرية والانعتاق إلى غزاة وسفاحين وقتلة ولصوص قاطعي طرق ومرتكبي أعمال الإبادة والتحريم بحق الشعوب التي دخلوا إليها بدواً رحلاً تائهين منهكين يستحقون الشفقة وحسن الضيافة.

لم يتوقف الأمر عند حدود الممارسة، بل جرى تحريف رسالة موسى بدس ما يتوافق وأعمالهم ونياتهم المبيتة منها، وإن كان هذا التحريف لا يتوافق ومنطق الخير والحق والعدالة ونظام الأخلاق الذي جاءت به الديانة الموسوية.

١- للمعرفة أكثر حول اتهام الأنبياء راجع العهد القديم سفر التكوين (9: 20-27)، (12: 10-20)، (19: 20-28) (26: 1-11)، (34: 1-21)، (38: 1-30).

وعَبَّرَ القرآن، كتاب المسلمين المقدس، عن الغضب الإلهي الذي حل بهم نتيجة لأفعالهم وطغيانهم بحق الشعوب الأخرى التي استباحوها ظلماً وحسداً ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[1].

الحصار، والتجوَيع، وَالسلب والحرق والإبادة، كما ورد في سفر يوشع بن نون المنتحل وإلى ما ورد في أسفار القضاة والملوك، هذه الأفعال المشينة لا علاقة لها بكتاب موسى (المنير)، كما ورد وصفه في القرآن الكريم. ولعل الانتحال الأكثر تزويراً وبهتاناً ما جاء على لسان موسى في سفر العدد الإصحاح الواحد والثلاثون (۞فَالآنَ اقْتُلُوا كُل ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُل امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا[2].۞لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لكُمْ حَيَّاتٍ)[3].

تدّعي الروايةً اليهودية أن هذا الأمر الإجرامي قد أعطاه النبي موسى للجنود العبرانيين عند محاربتهم لمضيفيهم المديانيين، الذين لاذ بهم بنو إسراءيل بعد الخروج والتيه. وفي سفر التثنية الإصحاح السابع وتحت دعوى وصايا الرب لموسى (۞مَتَى أَتَى بِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ إِلى الأَرْضِ التِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكَهَا وَطَرَدَ شُعُوباً كَثِيرَةً مِنْ أَمَامِكَ: الحِثِّيِّينَ وَالجِرْجَاشِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالكَنْعَانِيِّينَ وَالفِرِزِّيِّينَ وَالحِوِّيِّينَ وَاليَبُوسِيِّينَ سَبْعَ شُعُوبٍ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْكَ ۞وَدَفَعَهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ أَمَامَكَ وَضَرَبْتَهُمْ فَإِنَّكَ تُحَرِّمُهُمْ. لا تَقْطَعْ لهُمْ عَهْداً وَلا تُشْفِقْ عَلَيْهِمْ ۞وَلا تُصَاهِرْهُمْ...)[4].

لا يمكن لأي إنسان عاقل وسوي، سواءً أكان مسيحياً أم مسلماً أم موسوياً حقاً، أن يقرأ ويعتمد هذه الأوامر الشاذة على أنها أوامر آلهية أو شريعة تضمنتها رسالة النبي موسى التوحيدية. ولا يصح القول إن موسى قد طور المفاهيم المصرية التي تبناها أخناتون الموحد لتتلاءم والعقلية العبرانية والمطالب التعجيزية التي طالبه بها بنو إسراءيل على شريعة موسى ووصاياه، وسوف يرد التفصيل بذلك لاحقاً.

١- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 32.

٢- إشارةً إلى كل امرأة عرفت مضاجعة رجل اقتلوها - والأطفال بالمؤنث الذين لم يعرفوا مضاجعة رجل استبقوهم لكم حيات - هل ضاجع الأطفال الإناث لدى البدو العبرانيين فاختلط الأمر عليهم فكان لا بد من طبيب شرعي عبراني يميز بين البكر والثيب؟

٣- العهد القديم سفر العدد 31: 17-18.

٤- العهد القديم سفر التثنية 7: 1-3.

التشابه اللافت بين الادّعاء الكتابي مع المفهوم الفرعوني المصري لعقيدة تعدد الآلهة والإله الأب والإله الوكيل على الأرض والشعب المقدس والمختار، يظهر واضحاً وجلياً في بعض نصوص التوراة ضمن أحداث سبقت وجود النبي موسى وشريعته، واستمرت بالحضور ضمن الرواية لما بعد وفاته، سنراها في قصة الصديق يوسف وأخوته وما تلاها، وسوف نلاحظها في الأسفار المتأخرة ولما بعد وفاة النبي سليمان (عليه السلام). هذه النصوص المتشابهة ليست متبناة وحسب، لكنها تدخل في صلب تكوين القبيلة الإسرائيلية، ويتم تبنيها والدفاع عنها بقوة إلى اليوم.

من سفر التكوين وعلى لسان يوسف الصديق: (۞فَقَالَ يُوسُفُ لإِخْوَتِهِ: «تَقَدَّمُوا إِلَيَّ». فَتَقَدَّمُوا. فَقَالَ: أَنَا يُوسُفُ أَخُوكُمُ الَّذِي بِعْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. ۞وَالآنَ لاَ تَتَأَسَّفُوا وَلاَ تَغْتَاظُوا لأَنَّكُمْ بِعْتُمُونِي إِلَى هُنَا لأَنَّهُ لاِسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِيَ اللهُ قُدَّامَكُمْ. ... ...۞فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلِ اللهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ)[1].

هذه العبارة المهمة جداً (جَعَلَنِي أَباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ) ستعود بنا من جديد إلى تفحص قصة النبي يوسف وحياته في مصر بعناية ومراجعة أكثر دقة للمفاهيم والقيم المصرية القديمة المتبعة في ذلك العصر بهدف الإضاءة على الحقيقة الغائبة أو المغيبة داخل النص الكتابي. هذا ما سبق وتطرقت إليه بكتابي (أبٌ هو إبليس)[2]، حيث أشرتُ فيه إلى تعمد الكتبة والأحبار إغفال وتغييب ابنة النبي يوسف، التي ولدتها زوجته أسنات ابنة (فوطيفارع) كاهن أون (عين شمس الحالية)، بالإضافة لولديه منسي وأفرام، باعتبار أن والدتهما مصرية وليست عبرانية، حيث النسب عبرانياً يتبع الأم. وبهذه الحالة لن تكون عبرانية ولا يهودية، وكذلك أبناء يوسف الذين لم يباركهم يعقوب إلا بعد شعوره بدنو الأجل في مصر كون والدتهم مصرية!

هناك احتمال قوي جداً أن تكون ابنة يوسف المُغيبة توراتياً هي الملكة (تا - تاي - تي)[3] التي ربما أصبحت ملكة بزواجها كزوجة أخرى إلى الملك أمنحوتب الثالث، وتكون بذلك إما والدة الأمير الموحد (أخناتون) (أمنحوتب الرابع) أو

١- العهد القديم تكوين 45: 4-8.

٢- صادر عن دار علاء الدين للنشر - 2008.

٣- يذكر بعض المختصين بالمصريات أن الخلاف والتحدي الذي كان قائماً ما بين الكهنة والقادة وبين الفرعون أمنحوتب الثالث والد الأمير أخناتون كانت أسبابه تعود إلى قيام الفرعون بالزواج من حسناء آسيوية سورية كنعانية تدعى (تا - تي)، وكان في ذلك الفعل خروجاً عن تقاليد الزواج الملكية.

زوجة أبيه، وبهذا يصبح جد يوسف الصديق أباً لوالدته، وبذلك أيضاً يصبح يوسف أباً لفرعون، كما قال، وسيداً لبيته، لأن فرعون منذ ولادته يصبح (أباً للجميع)، وفي التقاليد المصرية أيضاً يصبح حماً، عماً، الملك أبا زوجته (أباً له)، كما سنرى، مع ملاحظة من سفر التكوين أن يوسف كان يلجأ إلى الملكة لتلبية طلباته وللتأثير في الملك. وفي قصة طلبه دفن أبيه يعقوب في الخليل والسماح له بالسفر، وهو الوزير المصري، إلى كنعان، فهل كان يوسف يضمن تلبية لمطالبه من ابنته الملكة (تا - تي)؟

هذا التساؤل المهم قد يحمل بحث سيمسون نايوفيتس إجابة عنه دون أن يطرح مثل هذا الموضوع. وجاء ذلك مصادفة (تطلعنا عدة مصادر على خبايا عصر العمارنة واللاهوت الآتوني (إخني آتون). وأهم المصادر هي نقوش الأناشيد والأدعية لآمون وأخناتون في العديد من مقابر كهنة آتون والكتبة والموظفين.

وعثر على أكبر قدر من النصوص في مقبرة (أي) المنحوتة في الصخر التي لم تكتمل في إخنيياتون (AT25)، وكان بناؤها قد بدأ العام السادس من عهد أخناتون، وكان (أي) (قائد خيل جلالته كافة) وسش (الكاتب) وكاهن و (أبا الإله) (أبا الإله فرعون) لقباً في المعبد يمنح أحياناً لحمى الفرعون، وربما كان والد نفرتيتي، وبعد ذلك أصبح على التوالي وزير توت عنخ آمون ثم الفرعون قرابة (1323ق.م). وعند وفاة أخناتون ارتد أي عن عبادة آتون وعاد إلى عبادة آمون رع، وبات النص الموجود على جدار مقبرة (أي) الغربي (الأنشودة الكبرى لآتون، وتعتبر أفضل وصف للاهوت الآتوني)[1].

نلاحظ أن عام (1323ق.م) قبل وفاة الملك أخناتون، هو تاريخ يقترب كثيراً من تاريخ ما قبل الخروج من مصر (1275-1300ق.م)، وتقدر وقوع سنة الخروج بينها كتابياً. وأكثر ما يلفت الانتباه ويدعو لإعادة البحث والتقصي قصة يوسف، وتواجد بني إسراءيل في مصر في حقبة ثورة العمارنة ودعوة أخناتون لعبادة الإله الواحد، وهي الأحداث المهمة التي عاصرها بنو إسراءيل، لكننا لاحظنا أن الرواية التوراتية تجاهلت تماماً هذه الأحداث.

١- سيمسون نايوفيتس: ج 1 ص 178.

لكن الآيات القرآنية الكريمة جاءت لكشفها والإضاءة عليها. يقول يوسف الصديق: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ..﴾[1] ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ﴾[2].

لنفترض أن الرواية الكتابية صحيحة فيما يتعلق بعبودية بني إسراءيل في مصر وخروجهم إلى سيناء الحرية والانعتاق هناك، مع أن الحقيقة تفيد بأن جميع من اتبعوا توحيد الملك أخناتون تعرضوا للاضطهاد والتسخير في المقالع عقاباً لهم، مصريين وغير مصريين. وبعد وفاة الموحد أخناتون وسيطرة فرعون عادت ديانة تعبد الآلهة المتعددة مرة أخرى.

فالسؤال الذي يتطلب جواباً مقنعاً هو: ما هو الملك والجاه والسلطان الذي تحدث عنه النبي يوسف في الآية 101 من سورة يوسف، والمتوافقة مع القول التوراتي (...جَعَلَنِي أَباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ)[3]، والمتوافق أيضاً مع الآية 20 من سورة المائدة في قول النبي موسى ﴿..وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً..﴾، والآية تحكي عن بني إسراءيل في سيناء، وموسى لم يدخل فلسطين الأرض المقدسة، ولم يكونوا بعد قد دخلوا إليها، ولم يكن لهم من ملك حتى تلك الحقبة!

ألا يثبت ذلك صحة الاستنتاج بأن ابنة يوسف (تا - تي) من والدتها المصرية أسنات، قد أصبحت ملكة على مصر في عهد ولدها أخناتون الموحد، أو في عهد ابن زوجها؟ وأن صراعاً مريراً وانقلاباً وثنياً قد حصل وأطاح بنظام التوحيد وأتباعه فتعرضوا للاضطهاد والتنكيل والاستعباد ومنهم بنو إسراءيل على يد الطاغية الفرعون الجديد؟

إن كان الأمر كذلك، فما هي الأسباب التي دفعت بالأحبار والكهنة والمدونين للحكاية الكتابية لإغفالها وعدم التطرق إليها، بل تعمُّد طمس حقائقها، بما في ذلك التنكر لذرية يوسف وسلطانهم في أرض مصر؟!

إن ذكر التوراة بقولها في سفر التكوين أن فرعون جاء، ولم يكن يعرف يوسف، يظهر بوضوح أنه جرى تعمداً الالتفاف على الحقيقة وتجاهلها في حبكة لاهوتية غير موفقة إطلاقاً.

١- القرآن الكريم سورة يوسف الآية 101.
٢- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 20.
٣- العهد القديم سفر التكوين 45: 8.

والحقيقة هي أن الكتبة والأحبار توخوا الاستئثار لليهودية كديانة توحيد أولى لم يسبقها أحد للتوحيدية. وهذه التوحيدية اختارت لها شعباً (شعب الرب)، وأرضاً موعودة (أرض الميعاد) يستحقها شعب الرب، ولا بد من إبادة الشعوب الوثنية فيها كشرط لانتصار التوحيد ونهاية للوثنية، ولقيام إسرائيل الوطن فيها وبناء الهيكل للرب يشكل لها عاصمة أبدية. ولطالما حاول الأجداد العبرانيون البدو الشماليون الاستيلاء عليها منذ مئات السنين قبل وجود يعقوب وفكرة التوحيد فيها، وسوف نتطرق إلى هذا الأمر في الفصول التالية.

بناءً على ما تقدم، كان لا بد من الإطاحة بموسى المصري الذي لا يمكن عبرنته، والذي توجه بدعوته إلى مصر أولاً بصفتها إمبراطورية تسيطر على منطقة ما بين الفرات والنيل، لا سيما عندما نعلم أن أخناتون التوحيدي عمل على إلغاء كل العبادات الوثنية المحلية والشعبية ما بين الفرات والنيل، وقرر الانتقال بديانة عبادة الإله الواحد نحو العالمية، كما لاحظنا في أنشودته، وهو أمر لا يتوافق والأطماع العبرية الساعية لتشكيل وطن وديانة وإله خاص بها يميزها عن الشعوب الأخرى (الغويم) و (الخاسوت)، كما ورثوه عن النظام الوثني في مصر. ومن الإشارات الواضحة لاقتباس نمط العبادة المصرية (تعدد الآلهة) ما ورد في العهد القديم: (۞فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلَهاً لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ. ۞أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ وَهَارُونُ أَخُوكَ يُكَلِّمُ فِرْعَوْنَ...)[1].

يلاحظ من هذا القول نمط العبادة المتعددة المصرية، حيث كان الإله حورس إله العالم، وكان فرعون إلهاً ولداً له ووسيطاً بينه وبين الناس يمثل الإله الأعلى وكما كان فرعون مكلفاً من الإله حورس يصبح موسى إلهاً مكلفاً وهارون نبياً له.

بما أن النمط العقائدي والتقاليد العبرانية في معظمها مقتبسة ومستوحاة من النمط الثقافي والتراثي الفرعوني المصري، فما سر هذا العداء وهذه الكراهية لمصر؟! وأي مصر كانت في الماضي والحاضر؟! وبعبارة أخرى فإن (وصف مصر الملعونة) والمشابهة للعنة نوح المدعاة بحق حفيده الطفل (كنعان)، والتي بات من المؤكد دسها داخل التوراة، تشير إلى أن التوراة قد كتبت بعد أزمان

١- العهد القديم سفر الخروج 7: 1-2.

طويلة من وقوع أحداثها، وبعد استهداف إسرائيل لأرض كنعان. فانتحال اللعنة تم بعد اعتماد الكنعانيين هدفاً معادياً، ثم ترتب على ذلك تدوين هذا العداء في متن النص تبريراً وتزويراً. لماذا وضعت الرواية الكتابية بني إسراءيل في مواجهة مع مصر وكنعان، ثم توسعت بعد ذلك لمواجهة شعوب أخرى آرامية وبابلية وآشورية ومؤابية وعمونية وأدومية عمورية، مع إضافة الحثيين واليبوسيين والفلسطينيين في منطقة تمتد من الفرات إلى النيل والهضبة التركية إلى أرض الحجاز وأطراف الجزيرة العربية؟ هذا في الماضي؛ وفي الحاضر وضعت نفسها في مواجهة مع أمم الأرض قاطبة، وباستخدام عبارة (الغويم، والأميون) ووصف اليهود (بشعب الرب وابن الرب والشعب المقدس) دون غيره من الشعوب.

فلنتمعن فيما دُعِي قول الرب في سفر حزقيال الذي كتب بعد أكثر من سبعمئة عام من عصر موسى: (۞وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ: ۞يَا ابْنَ آدَمَ، كَانَتِ امْرَأَتَانِ ابْنَتَا أُمٍّ وَاحِدَةٍ، ۞زَنَتَا بِمِصْرَ فِي صِبَاهُمَا. هُنَاكَ دُغْدِغَتْ ثُدِيُّهُمَا، وَهُنَاكَ تَزَغْزَغَتْ تَرَائِبُ عُذْرَتِهِمَا. ۞وَاسْمُهُمَا: أُهُولَةُ الْكَبِيرَةُ، وَأُهُولِيبَةُ أُخْتُهَا... ۞وَزَنَتْ أُهُولَةُ مِنْ تَحْتِي وَعَشِقَتْ مُحِبِّيهَا، أَشُّورَ الأَبْطَالَ ... ... ۞وَلَمْ تَتْرُكْ زِنَاهَا مِنْ مِصْرَ أَيْضاً، لأَنَّهُمْ ضَاجَعُوهَا فِي صِبَاهَا وَزَغْزَغُوا تَرَائِبَ عُذْرَتِهَا وَسَكَبُوا عَلَيْهَا زِنَاهُمْ ... ۞فَلَمَّا رَأَتْ أُخْتُهَا أُهُولِيبَةُ ذَلِكَ أَفْسَدَتْ فِي عِشْقِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، وَفِي زِنَاهَا أَكْثَرَ مِنْ زِنَا أُخْتِهَا... ۞وَكَشَفَتْ زِنَاهَا وَكَشَفَتْ عَوْرَتَهَا، فَجَفَتْهَا نَفْسِي كَمَا جَفَتْ نَفْسِي أُخْتَهَا. ۞وَأَكْثَرَتْ زِنَاهَا بِذِكْرِهَا أَيَّامَ صِبَاهَا الَّتِي فِيهَا زَنَتْ بِأَرْضِ مِصْرَ. ۞وَعَشِقَتْ مَعْشُوقِيهِمِ الَّذِينَ لَحْمُهُمْ كَلَحْمِ الْحَمِيرِ وَمَنِيُّهُمْ كَمَنِيِّ الْخَيْلِ)[1].

نربأ بأنفسنا أن نؤمن بأن هذا النص كلام الله، فالوصف هنا وصف كهنوتي متعصب يدعو إلى التوبة والرجوع إلى ناصية الدين بأسلوب عنصري متخلف يشدد على أن اللاهوت وحده من يصنع الانتصار وبناء الأمة والكيان السياسي، ولا يقر بالحتمية التاريخية، ويعمل على لوي ذراع التاريخ والتطور في منطقة يشكل فيها التاريخ والجغرافيا أحد أهم مقومات تطورها ووحدتها وتوحيدها وثقافتها. فالوصف في قول حزقيال هنا هو لمملكتي إسرائيل الشمالية (السامرة سبسطية) ومملكة يهوذا الجنوبية في القدس والمنقرضتين بعد وفاة الملك سليمان الحكيم، حيث تنسب الأقوال الواردة توراتياً الأسباب التي أدت إلى انهيار

١ - العهد القديم سفر حزقيال 23: 1-20. تقول الرواية التوراتية إن سليمان تزوج من الشعوب الأخرى، وكانت له ثلاثمئة من الزوجات وسبعمئة من السراري؛ وإنه عاد لعبادة البعل وبعل كموش وعشتروت بسبب زيجاته؛ وإن قلبه لم يكن سليماً مع الرب، لا سيما بزواجه من ابنة الفرعون.

المملكتين إلى سليمان بانفتاحه وتعاونه واختلاطه مع شعوب المنطقة، وبزواجه من نساء شعوب مختلفة، وتحالفه مع الآشوريين، وتحالف المملكة الجنوبية من بعد وفاته مع المصريين. وفي ذلك خلط كبير بين اللاهوت والتاريخ!

بالمنطق وحده ندرك أن خروج البعض من بني إسراءيل ومن معهم من فردوس دلتا النيل، وانتقالهم إلى المجهول والتيه كان نتيجة للعبودية والتسخير. ويعد هذا الخروج بالمفهوم السليم محاولة للتحرر والانعتاق والانتقال نحو الحرية بمفهومها الأخلاقي والإنساني. وهذا السياق لم تتطرق إليه الرواية التوراتية إلا بالمعنى الضيق الذي يطبق على بني إسراءيل وحدهم، وليس بالمعنى الإنساني الشامل لكتاب وعقيدة يفترض بها أن تكون كونية وأممية، وكما أمرت التوراة (...أَنَا الأَوَّلُ وَأَنَا الآخِرُ وَلاَ إِلَـهَ غَيْرِي)[1]، وهو إقرار ضمني بوجود آلهة أخرى غير إله إسراءيل، فكان الأمر كذلك إقراراً بوجوب الحصول على الحرية والانعتاق من العبودية، ولكن هذه الحرية والانعتاق هو لبني إسراءيل وحدهم كشعب مختار من الرب.

بل تذهب الأوامر الكتابية إلى الأمر باستعباد الآخرين وإبادتهم وسلب حريتهم وممتلكاتهم، كما هو الحال اليوم مع الديمقراطية الصهيونية والغربية، فهي حكراً على شعوبهم وعلى من يلوذ بهم!

ما أقره القرآن الكريم وشهد للنبي موسى به (..فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ..)[2]. من هذا القول ندرك أن فرعون الخروج هو بخلاف فرعونَ الفردوس المصري، الذي عاش فيه يوسف الصديق وإخوته وعشيرته. ندرك أيضاً من هذا القول الإلهي أن أسباب الخروج ليست أسباباً دعوية أو لاهوتية وتعبدية، بل هي أسباب تحررية وأخلاقية وإنسانية تحولت بعد الانعتاق والحرية وبعد التيه إلى طموحات سياسية وقومية وقبلية بغض النظر عن الديانة أو الإله المتبع، حتى لو كان هذا الإله وهذه الديانة وثنية. من هنا كان لا بد من الانقلاب على الشريعة التي أتى بها النبي موسى، والتي تضع على كواهلهم أحمالاً وتعاليم إلهية لم يكن بمقدورهم تحملها أو العمل بها واتباعها، لأنها سوف تطيح بكل الطموحات والغايات والأهداف المبيتة، والتي تتعارض كلياً معها ومع أهدافها وأطماعها. ويقول العالم الألماني يان أسمان بهذا الصدد: (إن قصة الخروج من مصر تصوِّر

١- العهد القديم سفر إشعياء 44: 6.
٢- القرآن الكريم سورة طه الآية 47.

عملية تحرر الإله السياسي. والمعنى هنا هو الخروج من دار العبودية والدخول إلى دار الحرية، على الرغم من أن الحرية ليست كلمة (توراتية)، ولم تستعمل بهذا الصدد، ولكن الحلف الذي عقده موسى في سيناء مع الإله يعني بوضوح التحرر من الخنوع الإنساني)[1].

ويشير أسمان إلى كتاب سيغموند فرويد (موسى والتوحيدي)، حيث يقول فرويد (بتصرف): (كان موسى رجلاً مصرياً ومن أتباع أخناتون، جاء بالتوحيدية للإسرائيليين أثناء هروبه من الاضطهاد في مصر، ولكن الإسرائيليين قتلوا موسى، لأنهم لم يكونوا من النضوج بحيث يتقبلون رسالته، ثم ارتكبوا هذه الخطيئة). ويستعمل فرويد هنا وبهذه الحادثة المثيرة بوصفها وتفسيرها تعبير التحليل النفسي، إلى درجة أنهم رفعوا بعد ذلك موسى المقتول في العهد القديم إلى (رسول الوحي والقائد المميز). وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[2].

أما النبي العظيم عيسى المسيح فيقولَ في إنجيل يوحنا: (۞أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذَلِكَ تَقْبَلُونَهُ. ۞كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْداً بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟ ۞«لاَ تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الآبِ. يُوجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ مُوسَى الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ. ۞لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي. ۞فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تُصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كَلاَمِي؟»)[3].

بقليل من التأمل والمقارنة في القولين الكتابيين سوف نرى فيهما صحة ما جاء به فرويد الذي يطرح قضية العامل النفسي المستحكم داخل العقلية العبرانية، وما أسماه فرويد في أفكار أخرى (داخل التفكير الجمعي)، لا سيما للأحبار والكتبة والكهنة، الذين دفعوا باليهودية من الكونية إلى الصيغة الإرثية الانعزالية، التي أدت بها للانكفاء والتقوقع على ذاتها بخصوصية اعتناقها وراثياً وليس هدائياً وأممياً.

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 59.
٢- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 87.
٣- العهد الجديد إنجيل يوحنا 5: 43-47.

هذا العامل النفسي التمييزي تمثل في اعتبار الديانة المصرية - على الرغم من تطورها - ديانة متعددة الآلهة يقودها إله واحد هو (حورس)؛ ديانة وثنية لا أخلاقية. وبناءً عليه فإن الانبعاث التوحيدي الأول والوحيد (الذي لا قبله ولا بعده) جاء على يد بني إسراءيل العبرانيين (الشعب المختار)، في حين أن الأديان الأخرى وفي مقدمتها (ديانة السيد المسيح)، تأتي بدين جديد يشكل بديلاً ونقيضاً مناهضاً للدين التوحيدي الأول (دين موسى). من هنا كان التنكر كتابياً وتاريخياً لثورة أخناتون وديانته التوحيدية، واعتماده عبادة الإله الواحد الخالق، عبر التوجه داخل الرواية من عصر يوسف ومليكه الكريم المتعاون المحب، الذي أعطى يعقوب وقبيلته أرضاً وخيراً، وخليفته أبي الموحد أخناتون الذي تم تجاهله وتغييب عصره وتوحيده تماماً، بالقفز إلى عصر فرعون الخروج الخارج عن ديانة أخناتون التوحيدية الإصلاحية والمعتنق لديانة تعدد الآلهة باعتباره إلهاً، فكان لا بد من التنكر أيضاً لرسالة المسيح الأممية الهدائية التي جاء المسيح بها ليلغي المفاهيم اليهودية لمقولات ودعوات (شعب الرب وأبناء الرب وأرض الميعاد). فمن وجهة النظر اليهودية اعتبرت المسيحية ديانة إصلاحية إحلالية حلت محل اليهودية وشكلت بديلاً عنها، لتجعل منها ديانة منغلقة ومنطوية على ذاتها وغير مؤهلة لنشر التوحيدية في مواجهة الوثنية، وتماماً كما الرواية الكتابية التي تجاهلت الدعوة المصرية الأخناتونية لعبادة الإله الواحد والتي طوت صفحتها وحلت مكانها، فليس من الممكن أن يسمح بنو إسرائيل أن يعيد التاريخ نفسه بالمسيحية.

ابتلعت الكثير من الجماعات اللاهوتية والكهنوتية السياسية الطعم الصهيوني المبكر باللجوء إلى المزج والوسطية بين العهدين القديم والجديد، بما سمي (الحركة الإصلاحية)، التي اجتاحت بعض مناطق أوروبا، مروّجة للمفهوم الصهيوني الماكر الذي كرّس لدى البعض مفهوماً متناقضاً عن جوهر الديانة المسيحية. توجه هذا الاعتقاد نحو اعتبار اليهودية الديانة التي كرست الحرية والانعتاق في سيناء، وأصبحت الثقافة المؤسسة لجذور وحضارة أوروبا القديمة ذات المنابع اليهودية الأولى قبل ظهور المسيحية. وتمت الإساءة للمسيحية من خلال طغيان العهد القديم على العهد الجديد ضمن الكتاب المقدس عبر فكر ممنهج ومدروس في ظل نظم علمانية في ظاهرها، لكنها توراتية تلمودية في باطنها وعقيدتها، كحال (المحافظين الجدد أو المسيحية المتصهينة). وبدا واضحاً أن الفكر التوراتي يبدو مناسباً للإمبراطوريات الاستعمارية التي تبنت مبادئ

عنصرية مستوحاة من القصة الكتابية: كسيادة الشعوب البيضاء وتميزها عن الشعوب الأخرى، ولا سيما (الأنجلوساكسون)، الذين اعتبروا أنفسهم (الشعب المختار)، واعتبروا أوطان وبلاد الشعوب الأخرى (أمريكا وأستراليا) (أرض ميعاد لهم)، وأصبح خلق أوروبا للولايات المتحدة الأمريكية (أرض كنعان الجديدة) على حساب السكان الأصليين (الهنود الحمر) يوازي القصة التوراتية بإبادة الكنعانيين والفلسطينيين واستيطان موطنهم باسم أوامر الرب والإرادة الإلهية. هذا المنطق الشاذ الاستعلائي التلمودي يكرس العهد القديم والتلمود منهاجاً ومبرراً وعقيدة سياسية عنصرية تتناقض كلياً مع دعوة السيد المسيح (صلى الله علبه وسلم) والديانة المسيحية!

حاولت المسيحية في الماضي - كما يحاول أحرارها اليوم - فك القيد الكتابي. كان ذلك عبر الرسول بولص في رسائله إلى الأمم بالقول: (۞فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ الأَوَّلُ بِلاَ عَيْبٍ لَمَا طُلِبَ مَوْضِعٌ لِثَانٍ. ۞لأَنَّهُ يَقُولُ لَهُمْ لاَئِماً: هُوَذَا أَيَّامٌ تَأْتِي يَقُولُ الرَّبُّ، حِينَ أُكَمِّلُ مَعَ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ وَمَعَ بَيْتِ يَهُوذَا عَهْداً جَدِيداً. ۞لاَ كَالْعَهْدِ الَّذِي عَمِلْتُهُ مَعَ آبَائِهِمْ يَوْمَ أَمْسَكْتُ بِيَدِهِمْ لأُخْرِجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَثْبُتُوا فِي عَهْدِي، وَأَنَا أَهْمَلْتُهُمْ يَقُولُ الرَّبُّ... ... ۞فَإِذْ قَالَ «جَدِيداً» عَتَّقَ الأَوَّلَ. وَأَمَّا مَا عَتَقَ وَشَاخَ فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الاِضْمِحْلاَلِ)[1].

تفاعلت المسيحية المبكرة مع محيطها وبيئتها المشرقية التي ولدت فيها، وانطلقت باتجاه الشعوب الوثنية، نحو العالمية. لا شك أنها أخذت العديد من الطقوس والعادات التي ارتبطت بمحيطها وتراثها شرق المتوسطي، وحالها حال الديانات الأخرى التي تفاعلت مع بعضها البعض كعادات وتقاليد اجتماعية سابقة للرسالات السماوية، فبقيت بعض العادات والتقاليد الموروثة (المصرية والكنعانية والإغريقية والرومانية) تشوبها، وكنتيجة لمحاولات الانعتاق والخروج من التقوقع والتحجر اليهودي، ولما عانته الجماعات المسيحية من اضطهاد وتجريح وتشكيك، والذي انتهى إلى جريمة محاكمة وصلب المسيح (صلى الله علبه

١- العهد الجديد الرسالة إلى العبرانيين 8: 7-13.

وسلم) لدعوته للعدل وللديانة الأممية والتوحيدية المسالمة المتسامحة والمحبة لله كنقيض لليهودية المتزمتة المنغلقة الموروثة التي حكمتها العقد النفسية ومشاعر الفوقية والتعالي على شعوب المنطقة الأخرى، والتي جاء السيد المسيح ليصححها ويصوب طريقها ويعمل على خلاصها. ومن هنا كان قول المسيح بدايةً: (❁...إِلَى طَرِيقِ أُمَمٍ لاَ تَمْضُوا وَإِلَى مَدِينَةٍ لِلسَّامِرِيِّينَ لاَ تَدْخُلُوا. ❁بَلِ اذْهَبُوا بِالْحَرِيِّ إِلَى خِرَافِ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ الضَّالَّةِ)[1].

يقول يان أسمان بما يتوافق مع ما ذكرته عن (عقدة الشعور بالتمايز والأنا التي سيطرت على العقلية والنفسية اليهودية: (لقد طُرحت مسألة معنى اسم سيناء في التلمود البابلي في رسالة السبت، 89 أ. وكان الجواب: لأنه الجبل الذي نزل فيه البغض على شعوب العالم وغادرت شعوب الأرض من الشعب المختار الذي نزلت عليه التوراة في سيناء. تلام هذه الحجة لأنها تنطوي على كون الضحايا أنفسهم مسؤولين عن مصيرهم)[2].

وهذا ما يعني التنكر التام للإرادة الإلهية القدرية. نسب بعض العلماء والمؤرخين حدة التطلع العبراني واليهودي نحو الشعور بالأفضلية والتعالي على الآخر إلى (الهبة الباسيونارية). هذا المصطلح ينسبه عالم الطبيعة والتاريخ المؤرخ الروسي ليف غوميليوف في كتابه (في دوامة التاريخ - النهاية والبداية) إلى ظهور طفرات غير عادية في بعض الشعوب والأعراق الإنسانية نتيجة لعوامل طبيعية تشكلها موجات (الباسيونارية) على الأرض بشكل عشوائي. وهي ناجمة عن التأثيرات الفضائية والنشاط الشمسي والطاقة التي تسقط على الأرض لتشكل الحقل الكهرومغناطيسي والحقل الحراري والطاقة. ويعطي من اليهودية مثالاً: (إن المسيحية التي تبدو لنا متراصةً تماماً لم تكن كذلك في القرن الأول، ذلك أن الحادثة التي وقعت عام (33) على الجلجلة غدت معروفة لكل العالم، ولكن الجميع تقبلوها بأشكال مختلفة تماماً، فالبعض اعتبر الأمر ليس أكثر من إعدام شخص؛ بينما قال البعض الآخر إنه انتقال الروح بلا جسد، ولا يمكنها أن تعاني. وإن موته على الصليب هو رؤيا فقط؛ أما البعض الثالث

١- العهد الجديد إنجيل متى 10: 5-6.

٢- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 30.

يرى أن ذلك يمكن أن يكون الشخص الذي سكنت فيه روح الإله ...إلخ. لقد كان عدد المذاهب كبيراً، أما زمام الأمور بهذه الحركة فأمسك بها اليهود، فهم بالذات، وبما يتصفون فيه من حدة، لهم آثار واضحة تقول إن الذي شنق شخص تافه، وإنه شنق عن حق، ولكن الأمر ليس هنا، بل في أن الرومان أوغاد وأنذال لأنهم يسوقون في الأرض المقدسة... ماذا تعتقدون؟ الخنازير! ويأكلونهم! ذلك أن المقاتلين الرومان حصلوا على مخصصاتهم على شكل خنازير واعتادوا عليها، ولهذا فإن الثكنات التي كانت موجودة في فلسطين أهانت مشاعر اليهود، فكيف الأمر قبل ذلك؟

قبل ذلك رأى اليهود كيف يأكل الرومان الخنازير، ولكنهم نظروا إلى ذلك دون اكتراث، وكانوا يقولون: لماذا تؤكل هذه القذارة، ولماذا يلمسونها أصلاً، تباً!، وهناك قالوا: كلا ليس تباً (اضرب). وكان ذلك تعديلاً جوهرياً جداً. هكذا بدأت الحرب اليهودية. كان يمكن للحرب اليهودية أن تكون ناجحة لو لم تقع هذه الباسيونارية تلك التي بنتيجتها انقسم اليهود. إن صلة اليهود القدماء باليهود المعاصرين مثل صلة الرومان بالإيطاليين تماماً، بمعنى أن اليهودية المعاصرة هي إثنوس آخر حافظ بدرجة كبيرة على التقاليد الثقافية السابقة إلى أربع مجموعات لا تطيق بعضها بعضاً)[1].

خاتمة هذا الفصل مما جاء في حاشية الشرح لكتاب المؤرخ غوميليوف حول اليهود في العصر الإغريقي في فلسطين: (تنكشف تخوم الحقبة الجديدة بوضوح عبر تاريخ اليهودية التي كانت الحقبة نقطة ساخنة من الإيكومين في القرن الأول. كان عدد اليهود الذين حررهم قير[2] من أسر بابل وجلبهم النبي عزرا إلى فلسطين قليلاً، ولكنهم كانوا مصممين على ترميم دولتهم، لكنهم اضطروا للرضوخ لسلطة الشاه الفارسي. وبعد ذلك منذ العام 198ق.م تعرضوا لظلم أنتيفونيس الرابع؛ أما القياصرة المقدونيون (البطالسة الإنسانيون والسلوقيون القساة)، الذين تقاسموا السلطة على فلسطين، ساعدوا بالقدر نفسه على جعل اليهود هيلينيين. وسار الإكليروس اليهودي وفق مشيئة القيصر، وسمحوا بتحطيم أورشليم وإلغاء السبت وعبادة زيوس الأولمبي).

بما يتعلق بالمفهوم اليهودي لعبارة ابن الله ورفض اليهود لهذا الادّعاء الذي يأخذ شكلاً مجازياً في مزامير داود 2: 7 (...قَالَ لِي: أَنْتَ ابْنِي. أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ)؛ فقد كان هذا الرفض نابعاً أساساً من اعتبار إسرائيل النبي ابن الله

١- ليف غوميليوف: في دوامة التاريخ النهاية والبداية ص 84-85.

٢- قير: المقصود به قورش الفارسي الذي دمر مملكة بابل واحتل بلاد الشام ومصر بعد سنة 635ق.م.

ولا ابن غيره، وعبارة (حسب عدد ملائكة الله) تصبح في التوراة (...حَسَبَ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيل)[1]، وليصبح بذلك بني إسراءيل (ملائكة الله) (شعب الرب). فالمقصود هنا في هذا الرفض للبشارة المسيحية أن تتحول الأبوة الإلهية من إسرائيل إلى السيد المسيح (صلى الله علبه وسلم)، ليس إلا، في حين أن المستنيرين من المسيحيين والمسلمين يعتبرون عبارة ابن الله مجازية، ويرجعها الكثير منهم إلى الخلق الأول لآدم دون واسطة جنسية بالمعنى الإنساني، فهي أمر الله ونفخة من روحه. وهذا الاعتقاد لا يغير من كون ولادة السيد المسيح (صلى الله علبه وسلم) معجزة إلهية وآية للناس تبين لهم قدرة الله العظيمة وأمره (...كُن فَيَكُونُ)[2]، والتي لم يؤمن بها يهود ذلك العصر باتهامهم للسيدة العذراء بفعل الزنى (...إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِناً...)[3] (...أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ...)[4]

يقول أندريه نايتون في كتابه (الأصول الوثنية في المسيحية) بهذا الصدد:

(يقول ميللر باروز: إن في مخطوطات البحر الميت مقطعاً من سفر التثنية نقرأ فيه (حسب عدد ملائكة الله)[5]، والنسخة العربية تقول: (حسب عدد بني إسرائيل). غير أن هناك من يفسر أولاد الله هنا بمعنى الملائكة، وبالتالي فإن هذا يعني في نظر بعضهم أن المسيح كان رئيس الملائكة. وفي المقابل نجد أن شارل غينيبر قد جاء بفرضية جديدة تقول: (إن المسيح قدم نفسه على أساس أنه عبد الله، وإن كلمة (عبد) بالعبرية تعني (الخادم)، كما تعني (الطفل)؛ وربما كان ذلك وراء البلبلة حول عبارة (ابن الله) (التي كانت بالأصل تعني (عبد الله))[6].

١- العهد القديم سفر التثنية 32: 8.

٢- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 117.

٣- العهد الجديد إنجيل يوحنا 8: 41.

٤- العهد الجديد إنجيل يوحنا 8: 39.

٥- اكتشفت هذه المخطوطات في مغارة قمران في الأربعينيات من القرن الماضي، وكشفت هذه الوثائق عن الكثير من التناقض والتغيير ضمن الرواية الكتابية التي بين أيدينا.

٦- أندريه نايتون (الأصول الوثنية في المسيحية من أجل الحقيقة) ص 38 ترجمة سميرة عزمي الزين 1991- منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية.

مصـــــر

أول التوحيد، أخناتون

من الاستخفاف بالعقل والمنطق والتاريخ أن تعتبر اليهودية داعية التوحيدية الأولى، أو أساس التوحيد الأول الذي عاصر الديانات التعددية الآلهة التي سادت عباداتها ما بين دجلة والفرات، وبين الفرات والنيل، وأجزاء من باقي الجزيرة العربية، بالإضافة إلى بلاد فارس وبلاد الإغريق والرومان، والتي عرفت بحضارات ما بين النهرين وشرق المتوسط وحوض المتوسط، فقد سبقها توحيد النبي إبراهيم الخليل ومن سبقه من الأنبياء كنوح وإدريس (صلى الله علبه وسلم)، إضافةً إلى مجموعة كبيرة من الأنبياء والقديسين والحكماء ممن لم يرد ذكرهم في الكتب السماوية الثلاثة، وصولاً إلى توحيد آدم (صلى الله علبه وسلم).

تتجلى هذه الحقيقة في القول الإلهي لرسوله الكريم محمد (صلى الله علبه وسلم في القرآن الكريم ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[1].

كلنا يحترم ويجل الرسالات السماوية التوحيدية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون عبر الوحي الإلهي، لكننا أيضاً نجل ونحترم ونحاول الإضاءة على المحاولات الأخرى الإنسانية المليئة بالحكمة والتقوى، التي قام بها عظماء وحكماء وقديسون وأنبياء، قد لا نعرفهم، تقرباً من الإله وإخلاصاً له. هذه القوة الإلهية الخفية غير خافية على أصحاب العقول بنعمتها وقدرتها وعطاياها الكريمة التي لا تحصى.

١- القرآن الكريم سورة النساء الآية 164.

رغم هذا النزوع الإنساني الفطري نحو البحث عن الإله والتقرب منه عبر محاولات مختلفة في أشكالها وتعابيرها، بيد أنَّنا لا نستطيع الجزم بأن أولئك العظماء والحكماء الباحثين عن السر الإلهي والحكمة في الحياة والموت والخلود، هم في مرتبة الأنبياء والمرسلين الذين أشارت إليهم الآية القرآنية الشريفة الآنفة الذكر.

والرسول الأعظم محمد (صلى الله علبه وسلم توجّه إليه خطاب إلهي في سورة الإسراء ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

وثمة أديان ومذاهب متعددة تنتشر في أفريقيا وبلاد الهند والصين واليابان ووسط وجنوب شرق آسيا وغيرها. قادت هذه الثقافات المذهبية والأديان مجتمعاتها وشعوبها المختلفة نحو نور العلم والتطور والعدل ونظام الأخلاق والفضيلة (السيخ، الهندوس، البوذية). علينا أن ندرك أن أبا الموحدين الكتابيين (التوراة والإنجيل والقرآن) إبراهيم الخليل (صلى الله علبه وسلم) آمن بالله بالفطرة، على الرغم من إحساسه الداخلي بوجود إله واحد، إلا أن هذا لم يمنعه من البحث عنه في النجم والقمر والشمس، وما ترسخ إيمانه المطلق والمحسوس إلا بعد تجربة وبرهان إلهي عن قدرة هذا الإله الواحد في إحياء الموتى، والتي وردت في (التوراة والقرآن الكريم معاً).

ومن المعروف تاريخياً أن محمد بن عبد الله (صلى الله علبه وسلم كان من المؤمنين بإبراهيم وقدسية البيت العتيق، على الرغم من أميته؛ وأنه كان على خلق عظيم وصفات خلقية فاضلة ويلقب بـ (الأمين) من قبل قومه الوثنيين الذين كانوا يقدسون مقام إبراهيم ويجلونه. يصف الله تعالى صفات (محمد) (صلى الله علبه وسلم بخطابه له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]، ثناءً على صفاته الحميدة وفضائله، حيث كان يعتصم فيَ غار حراء مَتفكراً بوجود الخالق باحثاً عنه، إلى أن جاءه الوحي الإلهي والأمر الإلهي الأول (اقرأ)، وصولاً إلى تكليفه بحمل رسالة التوحيد إلى العالم أجمع. ويقول الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[3].

١- القرآن الكريم سورة الإسراء الآية 85.
٢- القرآن الكريم سورة القلم الآية 4.
٣- القرآن الكريم سورة الأحزاب الآية 45.

الأنبياء المكرمون (موسى وعيسى ومحمد) عليهم السلام، أصحاب الرسالات السماوية الثلاث، كانت علاقتهم مباشرة مع الوحي الإلهي، حيث مكنهم الله تعالى من فعل المعجزات وتقديم البينات للناس بالبرهان والإحساس والرؤى المباشرة، وفي ذلك تكريم إلهي لمخلوقاته ورسله دفع بهم للهداية والنور واليقين.

توخيت من هذه المقدمة الدخول إلى قصة فرعون الموحد (الملك أمنحوتب الرابع) إخنى آتون المصري التوحيدي الأول في مصر، الذي حاول فلسفة اكتشاف وجود الخالق (الإله الواحد) القادر، بشكل علمي ومنطقي اعتُبِر متطوراً في عصر سادت فيه ثقافة تعدد الآلهة والثقافات الدينية المختلفة. وسواءً انتصر أخناتون التوحيدي أم أخفق في ذلك، فإن ثورة العمارنة التي قادها تركت لمصر تراثاً وأثراً عظيماً وإرثاً حضارياً أسس بدوره لظهور الديانات التوحيدية (كديانة موسى التوحيدية) التي تطورت مبادئها الأخناتونية لاحقاً إلى ثورة موسوية أسست بدورها للثورتين التوحيديتين (المسيحية والإسلام)، ذلك بغض النظر عن خروج الكثير من بني إسراءيل عن الهداية الموسوية لاعتناق معبودات وآلهة أخرى هي أقرب للوثنية والعصبوية القبلية البدائية منها إلى ديانة موسى التوحيدية الهدائية التي كملها وأضاف إليها مخلصها السيد المسيح عليه السلام، بالرسالة والإيمان المسيحي.

يُعد الملك المصري الشاب أخناتون من أوائل المبدعين الثوريين العلمانيين الذين اعتمدوا على التفكير والتجربة في اكتشاف قدرة الإله الواحد. رفض الملك التوحيدي الأول كل معالم الديانة التقليدية المحلية لنظام (تعدد الآلهة)، واعتبرها غير موجودة، وأمر بتحطيم صورها وأنصابها ومعابدها، ومنع عبادتها، ووضع بديلاً عنها عبادة الإله الواحد الذي لا شريك له، وجسّده بالشمس الساطعة التي تخلق الزمن والطاقة والخصب والحياة، وحاول توحيد العبادات المحلية والشعبية جميعها بعبادة إله واحد في إمبراطورية شاسعة تمتد من الفرات إلى النيل، متدرجاً بذلك نحو التوحيدية الأولى. ووَصَف الإله بأنه لا يصور، ولا يجسد، ولا يرى، وجسّد به الإيمان والحياة الأخرى والانبعاث، الذي كان مكرساً ببدائية في الديانات المصرية بشكل حمل معه نظام الأخلاق والعدالة والانضباط الاجتماعي.

(إن تصور عدم وجود الأخلاق في الأديان الوثنية ليس صحيحاً، والشيء الصحيح فقط هو أن الأخلاق لا تعود إلى الدين بالمعنى الدقيق، ولا إلى طقوس القرابين وقواعد الطهارة، إنما تعود إلى مجالات دنيوية للحكمة غالباً ما تكون طبقية أو بلاطية. والأخلاق لا تخص حياة البشر وسلوكهم مع بعضهم البعض، ولا تخص علاقتهم بالآلهة. وأنا أفترض أن العدالة لم تولد في أحضان الدين، إنما جاءت إليه من الخارج، وبهذا جعلت الدين أخلاقياً، وجعلت قبل كل شيء العدالة لاهوتية أو مقدسة، وتُظهِر أمام أعيننا أصول الأخلاق الدنيوية نسبياً، وترينا كذلك بداية جعلها لاهوتية. تقع الخطوة المصرية لجعل العدالة لاهوتية في فكرة محكمة الأموات، التي كانت بدايتها في عتبة الانتقال من الألف الثالث إلى الألف الثاني

قبل الميلاد، والتي وضعت فكرة العدالة على أسس إلهية. وحتى في حال فشل الملكية التي كانت مكلفة من قبل الخالق بتنفيذ العدالة على الأرض، يصبح الفرد مسؤولاً بعد موته عن أعماله في الدنيا أمام الإله، ولكن التعابير التي خصت محكمة الأموات لم تكن بالواقع سوى معايير الحياة الاجتماعية نفسها مثل: لا تقتل، لا تسرق، لا تكذب، لا تقم بأعمال الدعارة، لا تهِن الملك، لا تطعن الإله، لا تحرّض على التمرد، لا تمس ملكيات المعابد، لا تؤلم أحداً، لا تجوّع أحداً، لا تسبب ذرف الدموع، لا تعذب الحيوانات، لا ترفع مقدرة العمل بداية كل يوم، لا تشتم أحداً أو تتنازع معه، لا تفشِ سرّ أحد، لا تلوِّح لأحد باليد، لا تغضب، لا تقُم بعمل عدواني، لا تتكبر، لا تصمّ سمعك أمام كلمات الحقيقة.

إن الفكرة الحقيقية لجعل العدالة لاهوتية في مصر ليست هي في تكوين الدولة، إنما فكرة محكمة الأموات، وبهذا توضع معايير الأخلاق على أسس لاهوتية، على أن الإله لا يظهر هنا كمشرع إنما كقاضٍ، ولهذا الاختلاف ميزة حاسمة، لأن القانون الذي يحاكم به إله الأموات في مصر هو ليس من صنع الإله، إنما هو محكمة بشرية والإله يحاكم بمقاييس هذا الجيل والأجيال القادمة نفسها، ومن عاش يتجاوب مع البشر يعيش متجاوباً مع الإله أيضاً)[1].

قد أكون مبالغاً في هذا الاقتباس، ولكني وجدت فيه ما يثري هذا البحث ويسلط الضوء عمّا أردت أن أعبر فيه عن جوانب عديدة لا تزال غائبة عن المعرفة للكثير منا، لا سيما ما يتعلق بكتاب الأخلاق للديانة المصرية القديمة، وما حملته هذه الثقافة من قيم أخلاقية ومثل إنسانية رائعة وصالحة، فقيم محكمة الأموات المصرية تعد أكثر تقدمية وثورية ممّا جاء في الوصايا العشر وألواح موسى التوراتية التي تلقاها في سيناء على جبل الطور، رغم أن بين الحدثين أكثر من ألف عام في صالح الوصايا العشر حداثة وتاريخية، وأكثر من مئة عام أيضاً منذ وفاة قائد ثورة العمارنة التوحيدية الإصلاحية (أخناتون).

يلحظ القارئ الكريم التلميح الوارد على لسان يان أسمان فيما يتعلق بموضوع الدولة وعلاقتها بالأخلاق أو علاقة الأخلاق في تشكيل الدولة. في ذلك إشارة للهدف الرئيس الذي سعى إليه العبرانيون الذين خرجوا من مصر مع موسى في محاولة لتشكيل دولة، وفي المقام الأول تحت غطاء ادّعاء اتباع دعوة موسى للتوحيد ظاهراً، بينما كانوا يبطنون في نفوسهم إيجاد وطن قومي وإله سياسي يوفر غطاءً يشرعُ به اغتصاب ما سمي (أرض الميعاد)، بغض النظر عن اعتناق ديانة موسى أو غيرها من الديانات وتبني أي إله من الآلهة. ونلاحظ في قول أسمان: (إن الخطوة الحقيقية لجعل العدالة لاهوتية في مصر ليست في تكوين

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 71-72.

الدولة) إشارة للهدف الأساسي لبني إسراءيل وما سعوا إليه. كما يشير إلى أن النمط المصري لفكرة العدالة والأخلاق الذي لم يكن يتناسب مع مصالحهم وغاياتهم، وهو أحد الأسباب الرئيسة للخروج.

فالعدالة والأخلاق والحق والقانون لا تنطبق إلا على بني إسراءيل، وهي مبادئ إلهية مخصصة لهم لتطبق عليهم وحدهم ولا تطبق بالمطلق على غير اليهود من (الغويم، الأغيار، الأممين)، ولا تخص إلا الشعب المختار وحده. من هذه النقطة بالذات بدأ الانقلاب العبراني على موسى ومن اتبعه في سيناء وعين قادس، وعلى قمة جبل نبو على ضفة نهر الأردن . وهنا بالذات تحولت الدعوة الموسوية من ديانة هدائية أممية إلى دعوات قبلية بدائية منغلقة وروراثية، وتحولت التوراة من رسالة موسوية إلى حكاية كتابية تحمل العنصرية والبدائية والتوحش.

أستعرض هنا قليلاً من كثير من نصوصها المشوبة بالوثنية والعصبوية والاستعلائية: (۞لا تُقْرِضْ أَخَاكَ بِرِباً رِبَا فِضَّةٍ أَوْ رِبَا طَعَامٍ أَوْ رِبَا شَيْءٍ مَا مِمَّا يُقْرَضُ بِرِباً ۞لِلأَجْنَبِيِّ تُقْرِضُ بِرِباً...)[1]، (الغويم والخاسوت)، (لا تَأْكُلُوا جُثَّةً مَا. تُعْطِيهَا لِلغَرِيبِ الذِي فِي أَبْوَابِكَ فَيَأْكُلُهَا أَوْ يَبِيعُهَا لأَجْنَبِيٍّ...)[2]، (وَلا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ وَلا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ وَلا حَقْلَهُ وَلا عَبْدَهُ وَلا أَمَتَهُ وَلا ثَوْرَهُ وَلا حِمَارَهُ وَلا كُل مَا لِقَرِيبِكَ)[3].

الوصايا لا تطبق، وليس بمطلوبٍ تطبيقها على غير اليهود من بني إسراءيل، بل إن تفسير الوصايا ذهب إلى أبعد مما كان متبعاً في مصر فرعون ما قبل أخناتون، وما بعده بكثير من عنصرية وفوقية وتمييز: يسمح لليهودي استغلال ومراباة غير اليهودي والاستيلاء على ممتلكاته وعرضه وأرضه أيضاً. وبما أن لحم الميتة والجثة غير الطاهرة ضارة بالإنسان وصحته وحُرِّمَ تناولها إلهياً من قبل أي إنسان بغض النظر عن ديانته، لأنها تسبب له الأمراض والأضرار والموت أحياناً، لم يكن هناك أي مانع تعبدي يهودي من إطعامها للغريب (الغويم) لإيقاع الضرر به وأذيته، فالأمر هنا إلهي بإيذاء الأجانب.

أولئك الذين كانوا أصحاب الأرض الشرعيين جعلتهم ديانة التوحيد (يهوذا) أجانب وأغراب (تُعْطِيهَا لِلغَرِيبِ الذِي فِي أَبْوَابِكَ)! من البشر ذوات المراتب الدنيا، والمطلوب توراتياً استعبادهم أبد الدهر.

١- العهد القديم سفر التثنية 23: 19-20.
٢- العهد القديم سفر التثنية 14: 21.
٣- العهد القديم سفر التثنية 5: 21.

(۞حِينَ تَقْرُبُ مِنْ مَدِينَةٍ لِتُحَارِبَهَا اسْتَدْعِهَا لِلصُّلحِ ۞فَإِنْ أَجَابَتْكَ إِلى الصُّلحِ[1] وَفَتَحَتْ لكَ فَكُلُّ الشَّعْبِ المَوْجُودِ فِيهَا يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ)[2]. أيُّ إله صاحب هذه المُثل التي تشرع الغش والقتل والإبادة والعبودية. هو إله سفاح قبلي عنصري لا يستحق العبادة والتسبيح والطاعة، وهو الإله المتواجد داخل العقلية العبرانية الصهيونية والاستعمارية الإمبريالية فقط.

- ألم تهدد مصر (عبد الناصر) بوجوب تسليم قناة السويس عام 1956 من قبل الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا ثم قامتا بالعدوان الثلاثي والاحتلال لبور سعيد وقناة السويس المصرية؟
- ألم تهدد الولايات المتحدة الأمريكية (جورج دبليو بوش) العراق وشعبه بوجوب تسليم البلاد له ولأتباعه، وخروج قيادتها منها مستسلمة، وإعادة العراق وشعبه إلى القرون الوسطى، ونهب ثرواته ومصادرتها، وتشريد أهله منه، واغتيال واستعباد الباقين منهم؟
- أليس هذا تنفيذاً مخلصاً لأمر إلهي مُدّعى اعتمد عليه المتوحشون العابرون إلى فلسطين بهدف إبادة سكانها؟ أليس هو إخلاص وتنفيذ لما جاء في القول التوراتي (يَكُونُ لكَ لِلتَّسْخِيرِ وَيُسْتَعْبَدُ لكَ)؟
- المنطق الوثني الصهيوني أضاف أقوالاً توراتية جديدة وأغناها أتباعه بالدعم والمساندة من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها: دعاة حقوق الإنسان في الغرب، وشكّل له الميثاق العالمي الجديد لحقوق الإنسان اليهودي!

فلسان حالهم يقول: (إذا استعبدت واستوطنت وسلبت حرية الشعب الفلسطيني وأرضه، واستدعيته للمفاوضات العبثية وأنت تعلم أنك بها كاذب ومخادع، ولم يستجب لك ولشروطك المذلة حاصره واقطع عنه كل أسباب الحياة والبقاء لتفنيه في أرضه مع أطفاله ومرضاه وجرحاه وأسراه، حتى يعلم ويقرّ لك أنك أنت شعبي المختار، وأن أرضه هي لك مني أرض ميعاد. فإذا جاع وعطش ومرض وهزل لا تفك عنه حصارك، ولا تغثه، بل بطائرات أمريكا ودباباتها

١- عبارة الصلح هنا وبالمفهوم الصهيوني تعني الاستسلام والرضوخ لمطالب اليهود الصهاينة. وهذا ما يفهمه الكيان من عبارة مفاوضات.

٢- العهد القديم سفر التثنية 20: 10-11.

المتفوقة تقصفه وتحتل أرضه وتهجره، كما فعل بك يهوه عقاباً منه على عدم قبول طغيانك وفسوقك وقتلك وصلبك للأنبياء استكباراً وحقداً من دون حق).

في مصر اعتبر خروج بني إسراءيل انعتاقاً من العبودية والتسخير والإذلال والاستكبار الفرعوني الوثني. وفي أرض جلعاد، ضفة نهر الأردن الشرقية، أصبح بنو إسراءيل هم الطغاة المستعبدين المستكبرين الغزاة، لم يقبلوا دعوة موسى، ولم يطيقوا عدالة وأخلاق وأوامر تعاليمها، فسطوا بدواً متوحشين على شعوب كانت مسالمة تعيش في أوج تقدمها ومدينتها وحضارتها وتنظيمها، فدمروا بنيانها وسطوا على أسس تقدمها وخيراتها ونهبوا ونسبوا تراثها إلى تراثهم وثقافتها وتاريخها لهم ولرواياتهم العبرية. وفي العهد القريب، وكما استخدموا الأعذار بطغيان الفرعون عليهم، استخدموا الأسلوب ذاته المتجذر في أعماق نفوسهم وعقيدتهم، المحرقة النازية البشعة التي ارتكبتها أوروبا الغربية على يد أحد أقطابها وجلاديها (النازية العنصرية) بحق مواطنيها الغربيين من اليهود، لتكون عذراً ومبرراً وسبباً لتهجيرهم واستغلال التعاطف الإنساني معهم، ليشكلوا وطناً خاص بهم، وليرتكبوا الفعل النازي القبيح ذاته بحق الإنسانية، وليطبقوا محرقة أخرى أكثر دموية وبشاعة بحق شعبٍ آخر حلّوا ضيوفاً عليه، فشردوا من استضافهم قادة وساسة على أرض وطنه ومولد أجداده، فتحول شعب فلسطين على يدهم ويد الغرب إلى فلول من لاجئين، ولتصبح هذه الدولة قاعدة عدوانية للغرب تمارس عدوانها على كل شعوب المنطقة.

- يقول يان أسمان واصفاً قصة الخروج من مصر: «إن إله تحرير الإنسان من العبودية المصرية أو من أي عبودية أخرى هو القانون. وأنا أرى ذلك مثلما يراه نقادي، على أن الموضوع هنا لا يتعلق بالدرجة الأولى بتأسيس دولة بقدر ما يتعلق مبدئياً بالتخلص من الدولة وتكوين مجتمع بلا دولة، وبقدر تعلقه بالتخلص من الدولة. ويبدو هذا الدافع المعادي للدولة في قصة على شكل معارضة لمصر، لأن مصر تعتبر عريقة بالدولة، وهي دار للعبودية وليست بلد عبادة أوثان. كما إن السياسة الخاطئة وليس الدين الباطل هي التي جعلت إسرائيل تعتزل مصر من خلال الخروج منها وتحالفها مع يهوذا. السياسة الخاطئة هي التكبر الفرعوني، وسلطتها

في الاضطهاد والعبودية واغتصاب الحقوق والإهانة. أما من يرى أن القانون حملاً ثقيلاً والتزاماً، فيمكن أن يقال له: تذكر أنك كنت عبداً في مصر. وإذا نظرنا إلى التوحيد من الداخل ومن جهة نظر توراتية لوجدناه أصلاً وبالدرجة الأولى دين التحرر من الاضطهاد المصري، وتأسيس نظام بديل للحياة تنعدم فيه سيطرة الإنسان على الإنسان، ويعيش البشر فيه منسجمين في ظل الحرية، وذلك بتحالفهم مع سلطة الإله الواحد، وتظهر التوحيدية في تأسيسها في التصوير القصصي للخروج من مصر كحركة معارضة مسندة من قبل الإله، في الوقت الذي يتحرر فيه الإنسان من فرعون واضطهاده المذل)[1].

يوضح أسمان أن الخروج من مصر كان حركة سياسية تحررية معارضة لنظام دولة يقوم بالاستبداد والطغيان يقوده طاغية متجبر، وليست حركة معارضة لنظام وثني متناقض مع الديانة التوحيدية، لأنه لو كان الأمر كذلك لتم الخروج من مصر بعد سقوط نظام التوحيد وفشل ثورة العمارنة الأخناتونية، فالتحالف مع يهوذا، ويقصد أسمان (ابتداع اسم لليهود والإله يهوه)، إنما تم بعد الخروج إلى سيناء الحرية، وهناك فقط تم التحالف والعهد مع الإله ومع موسى. ويشير أسمان بعبارة مهمة إلى الانقلاب على العهد وعلى موسى وإلهه، وعلى الطغيان الذي مارسه بنو إسراءيل بحق الشعوب التي دخلوا إليها تدميراً لنظام الدولة والقانون بقوله: (تذكر أنك كنت عبداً في مصر)، فلا تستعبد ولا تستكبر فتطغى!

إذاً، فالقصة متعقلة بالخلاص من القانون والدولة، ثم التحول لإقامة كيان ودولة مهما يكن إلهها وطريقة الاعتناق الديني فيها، فمصر عريقة في النظام والدولة، ولا يمكن تأسيس دولة فيها، ولا بد من استضعاف شعوبٍ أخرى، هذا ما لاحظه موسى وكان موضع تكذيب وعناد وإيذاء، لأن دعوته لا تتناسب والغاية المرجوة والمبيتة من القبول بها دون تعديلها وتحريفها. فلو كان توحيد الإله الواحد ورفض الوثنية هو الغاية والهدف، فلِمَ البقاء في الفردوس المصري (الدلتا) لمدة طويلة مكث فيها يعقوب وأولاده وأحفاده (430) عاماً، وفي أخصب بقعة من أرض مصر تكرم بها الملك المصري على آل يعقوب أثناء فترة لجوئهم

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 60.

من كنعان إلى مصر؟ لو كان الخروج منها هادفاً لحمل رسالة التوحيد ومعارضة للوثنية، فلم البقاء هناك (430) عاماً لم تستطع خلالها القبيلة العبرية تقديم الولاء والتبعية والمواطنة إلى أرض مصر، على الرغم من كرمها وحسن ضيافتها؟

(۞فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: قُلْ لإِخْوَتِكَ: افْعَلُوا هَذَا. حَمِّلُوا دَوَابَّكُمْ وَانْطَلِقُوا اذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. ۞وَخُذُوا أَبَاكُمْ وَبُيُوتَكُمْ وَتَعَالُوا إِلَيَّ. فَأُعْطِيَكُمْ خَيْرَاتِ أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ الأَرْضِ. ۞فَأَنْتَ قَدْ أُمِرْتَ... ۞...لأَنَّ خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ)[1].

(۞...فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: «عَبِيدُكَ رُعَاةُ غَنَمٍ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا جَمِيعاً». ۞وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ فِي الأَرْضِ... ۞فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ جَاءُوا إِلَيْكَ. ۞أَرْضُ مِصْرَ قُدَّامَكَ. فِي أَفْضَلِ الأَرْضِ أَسْكِنْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ. لِيَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَهُمْ ذَوُو قُدْرَةٍ فَاجْعَلْهُمْ رُؤَسَاءَ مَوَاشٍ عَلَى الَّتِي لِي)[2].

(۞ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. ۞فَقَالَ لِشَعْبِهِ: هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. ۞هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الأَرْضِ». ۞فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ فَبَنُوا لِفِرْعَوْنَ مَدِينَتَيْ مَخَازِنَ: فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ)[3].

(وَأَمَّا إِقَامَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّتِي أَقَامُوهَا فِي مِصْرَ فَكَانَتْ أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً)[4].

هذه الرواية العبرانية لا تخفي أساليب اللف والدوران والتسويغ وتغييب الحقائق بأسلوب بدائي وغير مقنع ومكشوف: كرم وفادة واستقبال عظيم ليعقوب وبنيه، واحترام يجعل من طلبات يوسف الصديق أوامر! هبة عظيمة أرض جاسان (الأرض التي باركنا فيها) أخصب وأجود أرض في مصر، وعندها كان الفرعون متسامحاً ومحباً، وبعدها حقبة حكم الملك أمنحوتب الثالث. وقد تكون حقبة حكم السلالة الثامنة عشر، وحقبة (أمنحوتب الرابع أخناتون) الملك الموحد، الحقبة التوحيدية من حياة مصر الفرعونية والحقبة ذاتها التي أقام فيها

١- العهد القديم سفر التكوين 45: 17-20.
٢- العهد القديم سفر التكوين 47: 3-6.
٣- العهد القديم سفر الخروج 1: 8-11.
٤- العهد القديم سفر الخروج 12: 40.

بنو يعقوب، تنتهي هذه الحقبة بقمع ثورة أخناتون التوحيدي وتنقلب الأمور رأساً على عقب أمام بني يعقوب وأحفادهم. لماذا لم تشر الرواية التوراتية إلى هذه الحقبة المهمة من تاريخ بني إسراءيل هناك؟ ولِمَ لَمْ تشر كذلك إلى حقبة الملوك العرب العموريين السوريين (الهِكسوس)، ومنذ زيارة النبي إبراهيم لهم ومن بعده النبي يوسف؟

تعتم الرواية الكتابية عليها بعبارة لا تخفي انتحال العذر. وتقوم بتغييب متعمد لواقع يكشف أبعاد القصة الحقيقة: (ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ)[1]!. هذا الملك تدعي الرواية الكتابية أنه خشي عظمة بني إسراءيل بقوله: (❁...هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا. ❁...إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُمْ يَنْضَمُّونَ إِلَى أَعْدَائِنَا...)[2]. مصر الإمبراطورية العظيمة، وفرعون صاحب الفتوحات ما بين الفرات والنيل ينظر بحسد وغيرة لعظمة شعب إسراءيل، الذين قالوا لفرعون عبيدك وآباؤنا رعاة غنم جئنا لنغترب. وكما قال يان اسمان: (مصر عريقة بالدولة). وقال سيمسون نايوفيتس عنها: (أول دولة ونظام حكم في العالم). وكرر أسمان قول: (التخلص من الدولة). هذه الدولة ومليكها يخشون بني إسرائيل بالقول: (شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا)؟.

- هل شعر المصريون بأن ورثة يعقوب يتآمرون مع الغزاة المفترضين لإقامة دولة داخل الدولة؟
- وهل عامل أحفاد يعقوب مصر بالإساءة إليها كمن شرب من بئر ورمى فيه حجراً ليكرر أحفاد يعقوب فعلة آبائهم بغدر أخيهم يوسف كما فعلوا في الماضي؟!، أم هو التبرير العبراني للانتقال إلى أرض كنعان وفلسطين لإقامة كيان بديل عن الإقامة في مصر، من خلال حبك رواية درامية سميت بالخروج من العبودية تحت وصايا وأوامر الرب والدعوة التوحيدية؟

هذه القصة المشابهة لقصة خروج وحرب (الملوك الرعاة الهِكسوس) من الدلتا يتوافق تاريخ حدوثها مع القصة الكتابية الغامضة للقصة المروية في سفر الخروج.

١- العهد القديم سفر الخروج 1: 8.
٢- العهد القديم سفر الخروج 1: 9-10.

يقول يان أسمان: (ومن يقول إن الأخلاق والدين ليست لهما علاقة مترابطة بطبيعتهما، فهو يدّعي وجود أخلاق من دون دين، وقد أدى هذا الادعاء الذي قام به بايله عام 1700م إلى موجة استياء شديدة. وقد نقض حتى فولتير هذه الفرضية حينما قال: إذا لم يكن الإله موجوداً فعلينا اختراعه، وذلك لعدم إمكانية تحقيق العدالة على الأرض من دونه، ولكن المسألة لا تزال إلى اليوم تشكل نقطة النزاع، كما إن فرضية اعتبار الحق والأخلاق من الأمور الدنيوية، وليست من الأمور السماوية، ما زالت تثير في الأوساط اللاهوتية بين الحين والآخر بلبلة عميقة)[1].

أعود للقصة المثيرة للأمير الموحد أخناتون لاستعراض الأصل في حركة العمارنة الأولى المتبنية لنظام الإله الواحد ونبذ نظام تعدد الآلهة، واحتمال أن تكون (الملكة تا، تي) زوجة ثانية للملك أمنحوتب الثالث والد الأمير أخناتون، والذي يشير البحث إلى وجود أخ غير شقيق له. يقول سيمسون: (واتخذ أمنحوتب الثالث خطوة غير عادية تتعلق بعدم استخدام اسم ولادته (اسمه الثاني) - أمون راض إلى أمون. وكان قصره الفاخر في ملقطة، ووحدة ممتازة في جيشه، والمركب الملكية، ويا (الخاصة بزوجته) تي، جميعها تسمى (آتون يومض) أو قرص الشمس المتألق. وكان يشار أحياناً إلى أمنحوتب نفسه على أنه (قرص الشمس المتألق)، ورعى كذلك أمنحوتب الثالث المعابد والأقاصير لآتون، ولكن من المؤكد أنه في سنوات حياته الأخيرة لم يعارض قرار ابنه وربما شريكه على العرش أمنحوتب الرابع الذي سيصبح أخناتون، في بناء أربعة معابد لآتون، أو ربما (مكان لقاء آتون)[2] في الكرنك بجوار معبد آمون، بما في ذلك (جم باآتون) (آتون موجود في عالم آتون)، أو ربما (مكان لقاء آتون). لم يكن أمنحوتب الرابع قد سمي أخناتون بعد، ولم يصبح ابن الإله الواحد (آتون)، ومع ذلك كان قد قطع شوطاً طويلاً في إزعاج كهنة آمون أصحاب النفوذ حيث شرع في الثورة الآتونية، بل بذر بذور ثورته آمون رع المضادة في المستقبل، بعد ذلك بدأ تثوير عبادة أبيه (آتون)، حيث حول آتون من مجرد إله قرص الشمس المرئي وأحد أوجه رع، إلى إله الشمس المعلن، ومنح أخناتون الذي لا شك أنه تزوج من نفرتيتي (حمت نيسوت ورت) (الزوجة - الملكية الكبرى)، حيث أصبح شريكاً على العرش وأعطى زوجته اسماً إضافياً وأوضح صلتها بآتون. وأحبها أخناتون وأظهر تقديره الكبير لها: نفرنفرتوآتون (جميلة جميلات آتون)، أو ربما (كامل هو جمال آتون)، أو (تامٌ هو جمال آتون). وحدد آتون الجديد عبادة قرص الشمس الخفي التي اخترعها أخناتون وجرى تكريسها في مدينته المقدسة (أختيتاتون)

١- يان أسمان: التمييز الموسوي ص 66-67.

٢- آتون: اسم الإله الواحد (رع) المتجسد في قرص الشمس، والنقيض والبديل للإله (آمون) متعدد الآلهة ما قبل الثورة الإصلاحية الدينية للأمير أخناتون وديانته التوحيدية الجديدة.

رع هو أختي باعتباره إلهاً ومفهوماً عالميين للشمس مع تجسيد ضوء الشمس وإله الجو بين الأرض والسماء (شو). وجرى رفع مبدأ شو (ضوء الشمس، أشعة الشمس) إلى الواقع الجوهري للكون والحياة. وأبقى أخناتون كذلك على المفهوم الأساسي لماعت (الحكم بناءً على الحقيقة، التوافق الكوني الأزلي). كما استوعب الوضع الإمبريالي العالمي الذي بلغته قوة مصر وآلهتها، ولا سيما آمون رع، مع تكون الإمبراطورية التي أرسى دعائمها تحتمس الثالث قرابة (1479-1425). وأضاف مفاهيم الإخاء. وتبنى أخناتون مبدأ العالمية السياسية واللاهوتية لآمون رع وغيره من الآلهة في النوبة وآسيا. ها هو أخناتون يشيد المعابد لآتون في عمق النوبة في مدينة جم آتون بالقرب من كاو، وفي سوريا في موقع لا يزال مجهولاً)[1].

بناءً على المعلومات والحقائق التاريخية التي سبق ذكرها، لا سيما ما يتعلق بالإمبراطورية المصرية التي امتد نفوذها من بلاد النيل إلى بلاد الفرات في زمن تحتمس الثالث ما بين (1479-1425ق.م)، التي يتصادف أيضاً تاريخها مع التواريخ الكتابية (معجم التواريخ في الكتاب المقدس)، الذي يعتبر تاريخ الخروج من مصر على وجه التقريب (1250ق.م)، بينما يعتبره فرويد وغيره من الباحثين بالشؤون الكتابية قد حدث تقريباً في العام (1300ق.م)، وهو تاريخ أقرب للحقيقة، وبفرضية اعتماد التواريخ الكتابية (1250ق.م)، فإقامة بني إسرائيل بمصر استمرت لـ (430عاماً) بحسب ادّعاء الرواية التوراتية، فإذا احتسبنا مدة الإقامة وأضفنا إليها سنة الخروج فسنصل إلى نتيجة مفادها أن بني إسراءيل (يعقوب) كانوا متواجدين في دلتا النيل المصرية عام (1680ق.م). وهي كالتالي 430 إقامة +1250سنة الخروج = 1680ق.م. وبما أن عصر أخناتون ما بين (1364-1347ق.م)، فبأي حال يكون بنو يعقوب قد عاصروا أخناتون الموحد وبقوا لما بعده في دلتا النيل إلى مدة أكثر من (150) عاماً؟

كما إنهم عاصروا حروب تحتمس الثالث لاسترداد سلطته عند نهر الفرات، التي اقتبسوها ودونوها في التوراة ونسبوها إلى الملك داود[2]، فلِم إذاً تم إغفال هذا الحدث التوحيدي البارز في التاريخ المصري وحياة بني إسراءيل في مصر؟!

١- سيمسون نايوفيتس: مصر أصل الشجرة - ج2 ص 172-186 بتصرف.
٢- راجع العهد القديم سفر الملوك الأول.

وتتوافق تواريخ إقامتهم أيضاً بمصر مع التواريخ الكتابية والبحثية الأخرى لعصر (الملوك الرعاة)، أو ملوك البلاد الآسيوية الأجنبية (الخاسوت)، وهي قرابة (1775-1550ق.م)، والذين سموا (بالهكسوس)، وقام بطردهم من أرض الدلتا أحد الملوك المصريين إلى حدود سوريا، وقامت معركة كبيرة في منطقة مجيدو (المجد)، التي سميت بهذا الاسم تمجيداً لانتصار المصريين عليهم هناك. ومن المعروف تاريخياً وأثرياً أنهم كانوا خليطاً من العموريين والخبيرو (العبيرو) العبرانيين والبدو سكان الرمال والرعاة والكنعانيين. هذه التواريخ المتناقضة والمغفلة تدعو للشك والريبة، وتدفع باتجاه الاعتقاد بالانتحال والتحريف داخل النص التوراتي، وتضع العديد من الإشارات وعلامات الاستفهام حول صحة الرواية الكتابية التوراتية، ولا سيما قصة الخروج!

إذاً، كانت الغاية الحقيقية من هذا الاقتباس والتدوين خلق قصة وتاريخ وأنشودة وطنية قومية تحاول جمع قبائل متعددة ومختلفة حول رواية ومجد يتخفى وراء عقيدة توحيد وديانة توحيدية وأوامر إلهية!

ونتابع مع سيمسون نايوفتس وثورة أخناتون وديانته التوحيدية الجديدة (الوحدانية للإله الواحد): (ولكن بحلول العام الخامس أو السادس على أقل تقدير من عهد أخناتون كان قد بلغ الكمال الثوري في لاهوته الآتوني، فقد رفض المفهوم المصري الأساسي الخاص بالتعدد. وكان آتون الواقع الإلهي الوحيد. وكان ضياء شمسه (أشعته) المبدأ الفريد الذي يستند إليه كل شيء في الحياة. وهاهو يوجد إله واحد، ومبدأ تفسيري واحد رفض سائر الآلهة والإلهات، بأشكالها الفردية أو المركبة، مع أن هذا الأمر لا يزال من دون إثبات. فربما كان في ذلك الوقت قد أغلق أخناتون كل المعابد المكرسة في مصر لآلهة غير آتون، وشرع في سياسة واسعة النطاق لتدمير تماثيل آمون وكشط اسمه في كل مكان، فلابد أن ننظر إلى لاهوت أخناتون على أنه ثورة وتراكم لعملية طويلة. وخلاصة القول: إن أخناتون قفز قفزة نحو توحيد الشمس الأحادي الأول لم يقفزها كهنة هيليوبليس وطيبة على نحو كبير بنسقيها الخاصين بـ رع وآمون رع لم يكملها أبوه بتفضيله لآتون، ولكن تظل هناك أسئلة أساسية: هل كان آتون أول إله توحيدي[1]، وقريباً من الإله العبراني القدير شبه التوحيدي المبكر وتوحيد يهوه العبراني المتأخر؟ هل كان آتون إلهاً توحيدياً على النمط العبراني أو الإسلامي اللاحق، أم هو توحيد متعدد الأشكال على النمط المسيحي؟ إلى أي حد كان آتون مختلفاً عن سائر الآلهة؟ إلى أي

١- المقصود هنا بالإله التوحيدي القدير المبكر (شبه التوحيدي) من جهة نظر سيمسون هو الإله الإبراهيمي الذي آمن به إبراهيم الخليل؛ إلهاً قديراً لا شريك له.

حد كان آتون نمطاً جديداً كل الجدة من الإله، وهو الإله المجدد الأصيل الذي كان أكثر من مجرد الشمس المادية؟

لا تغير الشكوك المشروعة بشأن وحدانية آتون التامة الحقيقية أن أخناتون ألمح على أقل تقدير إلى شيء مهم بشأن الوحدانية الإلهية؛ كان ذلك قبل 800 عام من إعلان النبي العبراني إشعيا له على نحو لا لبس فيه ولا غموض. ويبدو من المؤكد أنه لأول مرة في التاريخ يستخدم مفهوم أوحد (ضوء الشمس) (شو)، لتغيير شيء بالوجود مثلما استخدمت الإرادة القديرة ليهوه العبراني فيما بعد للغرض ذاته)[1].

الأسئلة الاستفهامية التي طرحها سيمسون بما يتعلق بالوحدانية الإلهية والتشابه بين دعوة النبي إشعيا لإله واحد وحاسم لا لبس فيه، والذي صحح من خلاله مسار بني إسراءيل أو حاول بعد انحراف صارخ عن إله موسى وتوحيده الأصيل، والإشارة إلى النمط المسيحي في تعددية الآب والابن؛ هذه الأسئلة على الرغم من إعطائه جواباً ضمنياً عنها، عاد ليؤكد أن أخناتون قد ثبت مفهوم التوحيد للإله الواحد أولاً (أي قبل العبرانيين).

لابد من العودة للحكاية الكتابية لعلنا نجد فيها أجوبة وأمثلة عما جرى التطرق إليه ووُضِعَت إشارات الاستفهام حوله؛ ومن العهد القديم سفر إشعيا، وهو من الأنبياء المتأخرين: (۞اِسْمَعِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ وَأَصْغِي أَيَّتُهَا الأَرْضُ لأَنَّ الرَّبَّ يَتَكَلَّمُ: «رَبَّيْتُ بَنِينَ وَنَشَّأْتُهُمْ أَمَّا هُمْ فَعَصُوا عَلَيَّ. ۞اَلثَّوْرُ يَعْرِفُ قَانِيهِ وَالْحِمَارُ مِعْلَفَ صَاحِبِهِ أَمَّا إِسْرَائِيلُ فَلاَ يَعْرِفُ. شَعْبِي لاَ يَفْهَمُ». ۞وَيْلٌ لِلأُمَّةِ الْخَاطِئَةِ الشَّعْبِ الثَّقِيلِ الإِثْمِ نَسْلِ فَاعِلِي الشَّرِّ أَوْلاَدِ مُفْسِدِينَ...)[2].

بلا لبسٍ أو غموض يشير النبي إشعيا هنا لارتداد بني إسراءيل ومن معهم عن عبادة الإله الواحد إله موسى وإبراهيم (صلى الله عليه وسلم) إلى عبادة آلهة محلية وشعبية ووطنية لا علاقة لها بالتوحيد ودعوة الهداية ودين الحق، لذلك بشرهم الإله بالعقاب والسبي والخراب والمذلة، فالله يقرأ الأعمال والنوايا ويحاسب عليها.

لم أستدل على أي ذكر ليهوه من الإصحاح الأول وحتى الإصحاح السادس والستون من سفر إشعيا، ولا في السفر الذي يليه: سفر إرميا، حيث يذكر بدلاً منه عبارة (الرب) أنا الرب. ويبدو حدوث التطوير والتحول شيئاً فشيئاً من اعتماد الإله يهوه إلى تبني الإله الواحد الشامل للكون، مع ملاحظة أن الزمن الذي يفصل بين الحدثين أكثر من ثمانمئة عام!

١- سيمسون نايوفيتس - مصر أصل الشجرة - ج2 ص 174-175، 177-187 بتصرف.

٢- العهد القديم سفر إشعيا 1: 2-4.

وفي هذا الشأن يصر بعض الكتاب والباحثين، لا سيما الغربيين منهم، على الإشارة إلى أن تسمية الرب المعدلة مقصود بها يهوه، فيشيروا في أبحاثهم إلى (يهوه) خلافاً للنسخة العربية التي اعتمدتها، والصادرة عن دار العالم العربي للكتاب المقدس، التي تستبدل اسم يهوه باسم الرب في مراحل متقدمة من الرواية.

أما الإشارة التي أشار فيها سيمسون للتعددية في نمط العبادة المسيحي، فلابد من الإقرار بوجود اختلاف في شكل الاعتقاد والتفسير وفهم الآخر له في هذه النقطة بالذات ما بين المسيحية وبين اليهودية والإسلام، مع الإقرار بإيمان الديانات التوحيدية الثلاثة بالإله الواحد الخالق لكل شيء. ويكرس القرآن الكريم هذا الإيمان بوجوب الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، ولا يفرق بين أحد منهم. ونبقى في موضوعنا الرئيس في هذا الفصل: توحيد أخناتون. من الحقائق الدالة على توحيد إله واحد ترنيمة أخناتون: (أيها الإله الواحد الذي لا إله غيره! لقد فطرت الأرض حسب مشيئتك وحدك، وخلقت كل الشعوب والقطعان والأسراب، وكل ما يمشي على أرجل على الأرض، وكل ما يطير بجناحين في الأعالي، وأنشأت أراضي خور (سوريا وكوش النوبة وأرض مصر)، ووضعت كل إنسان في موضعه، وأنت من يقضي حوائجهم)[1].

لا أدّعي أن مزامير النبي داود (صلى الله عليه وسلم)، لا سيما المزمور رقم 104، قد نقلت وعدلت عن أنشودة أو ترنيمة أخناتون، لأدلل على صوابية الآراء والنقد التي عبّر عنها الكثير من الباحثين والمتخصصين بدراسة العلوم الكتابية والأثرية التي أشارت إلى كثير من النصوص الكتابية التي اقتبست من الثقافات والحضارات والديانات التي عاش مدونو العهد القديم بينها، وأنها نقحت وعدلت لتتماشى والادّعاء اللاهوتي اليهودي. وكان ذلك بعد أزمان طويلة من حدوثها ووقوع أحداثها وأساطيرها.

لكنني أشير هنا إلى التشابه والتطابق الكبير في نمط التعبد والمعتقد بينها وبين الثقافات المصرية والبابلية والكنعانية والفارسية. ويرجع الباحث والأستاذ في علم اللاهوت في جامعات كوبنهاغن، توماس طمسن، هذا التشابه إلى الخلط بين التاريخ واللاهوت، ويشير إلى تاريخ إسرائيل القديم على أنه تاريخ لاهوتي لا علاقة له بالتاريخ الحقيقي ودراسات التاريخ، وأن اختلاط الخارجين من مصر والذين دخلوا كنعان على شكل موجات سلمية متعاقبة بالشعوب التي دخلوا إليها، وبفعل العوامل الطقسية المناخية وطبيعة شرق البحر المتوسط، وهي العوامل التي أدت إلى تلك الهجرات وهذا الاختلاط وهذا الاقتباس والتبني، وحصار أريحا الكنعانية وهدم أسوارها وحرقها بالنار لم يحدث قط؛ وأن اللاهوت لا ينتمي لدراسة التاريخ وعلم طبقات الأرض وعلم الآثار بأي

1- LICHHEIM MIRIAM - ANCIENT-Egyptian.LITERATURE VOLU-ME II.P89.

صلة. لنقارن ما بين المزمور 104 وترنيمة أخناتون التي تسبقه بأكثر من أربعمئة عام على الأقل: (۞بَارِكِي يَا نَفْسِي الرَّبَّ. يَا رَبُّ إِلَهِي قَدْ عَظُمْتَ جِدّاً. مَجْداً وَجَلاَلاً لَبِسْتَ. ... ۞الْمُؤَسِّسُ الأَرْضَ عَلَى قَوَاعِدِهَا فَلاَ تَتَزَعْزَعُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ... ... ۞تَسْقِي كُلَّ حَيَوَانِ الْبَرِّ. تَكْسِرُ الْفِرَاءُ ظَمَأَهَا. ۞فَوْقَهَا طُيُورُ السَّمَاءِ تَسْكُنُ... ۞...مِنْ ثَمَرِ أَعْمَالِكَ تَشْبَعُ الأَرْضُ. ۞الْمُنْبِتُ عُشْباً لِلْبَهَائِمِ وَخُضْرَةً لِخِدْمَةِ الإِنْسَانِ... ۞تَشْبَعُ أَشْجَارُ الرَّبِّ أَرْزُ لُبْنَانَ الَّذِي نَصَبَهُ... ۞تُشْرِقُ الشَّمْسُ فَتَجْتَمِعُ وَفِي مَآوِيهَا تَرْبِضُ. ۞الإِنْسَانُ يَخْرُجُ إِلَى عَمَلِهِ وَإِلَى شُغْلِهِ إِلَى الْمَسَاءِ... ۞تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ. وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الأَرْضِ)[1].

وأقدّم هنا مقاربة ومقارنة أكثر دقة للأنماط المتشابهة بين اللاهوت المصري واللاهوت العبراني في محاولة لمعرفة أكثر عمقاً حول فكرة الإله الواحد للمذهب الأخناتوني الرافض لفكرة تعدد الآلهة والعبادات المحلية والإنسانية معاً، وكيف كان الغموض والتهويش يشوب وحدانية الإله يهوه باعتباره إلهاً إلى بني إسرائيل، وليس الإله العالمي من خلال نموذج إله يبحث عن شعب، فيلبي مطلبه ويقضي حاجته، وبين شعب يبحث عن إله يكون معه موعده وميثاقه دون غيره من الشعوب الأخرى التي هو خالقها، هذا إن كان هذا الإله هو إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى!

يشرح سيمسون هذا الموضوع بقوله: (كانت فكرة الإله العالمي الودود أكثر تقدماً في هذا الخصوص من فكرة إبراهيم وموسى اللاحقة الخاصة بالإله القومي الواحد، مع ذلك فإن كلاً من أخناتون ومن بعده بمئة وخمسون عاماً موسى كان يرى أن هناك خالقاً (فرداً) لكل البشر والأشياء في الكون: هو آتون أو يهوه. وكان حكم أخناتون بأن يكون آتون إلهاً واحداً ليس معه إله آخر يتسم بالغموض في السياق الذي خلفه، حيثُ استوعبَ آتون رع، حور أختي و (شو) الذي هو آتون وإشاراته المتكررة إليهما، لا سيما في السنوات الأولى من عهده. وبالنسبة لموسى، فليس من الواضح إذا كان يهوه هو الإله الواحد في الكون، أم هو الإله الأقوى في الكون. ولا يبدو أن مفهومي الوحدانية الحقيقية والتوحيد العالمي الودود على النمط الآتوني ظهر في إسرائيل قبل القرن السادس قبل الميلاد، مع مجيء النبيين إشعيا وإرميا. وقد ظهر في بلاد فارس قبل ذلك بشكل أقل تقدم مع مجيء النبي زرادشت وأتباعه)[2]. يلاحظ التأثير الفارسي ونمط توحيد زرادشت في الأسفار التي كتبت بعد السبي والجلاء إلى بابل، وحتى سقوطها بيد قورش الأخميني الفارسي، وضمن أسفار حزقيال وهوشع ودانيال، وحتى في سفر الرؤيا في العهد الجديد. ويؤشر تبشير الفرس الموحدين لزرادشت

١- العهد القديم المزامير 104: 1-30.

٢- سيمسون نايوفيتس: ج2 ص 183.

بمولد المسيح في إنجيل متى إلى هذا التأثير بشكل لافت وواضح: (۞وَلَمَّا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ إِذَا مَجُوسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ قَدْ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ ۞قَائِلِينَ: أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّنَا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ)[1].

وأرى أنه قبل التعمق أكثر بالجانب المتعلق بأوجه التشابه بين التوحيد الموسوي والأخناتوني (المصريين) من المفيد للبحث والتقصي إشباع الجانب التاريخي المغفل داخل النص الكتابي، والذي يلقي بظلال من الشك والغموض حول حقيقة الكثير من الأحداث الواردة داخل هذا النص، فحدث مهم ومفصلي في تاريخ دلتا النيل وبناء معبد الإله الواحد في سوريا من قبل الملك الموحد أخناتون الذي يسيطر على الإمبراطورية ما بين الفرات والنيل، على الرغم من عدم اكتشافه إلى اليوم، ما كان ليتم تجاوزه سهواً في رواية الكتبة والأحبار، ولا بد أن وراء هذا التجاهل إنكاراً لتواريخ مهمة قصد من تجاهلها تسويق آخر لحكايات لا يمكن تسويقها لو تم الزج بهذه الأحداث داخل هذا النص الكتابي. على الرغم من ذلك، فإن أكثر الكتاب والمتخصصين الكتابيين، ولا سيما الإسرائيليين منهم، لم يستطيعوا رتق الفجوات أو إعطاء التبريرات لتغطية وتبرير هذا الخلل التاريخي الذي انتاب الرواية التوراتية برمتها! وبهذا الخصوص يقول الأستاذ في علم الآثار الكتابية في جامعة تل أبيب (إسرائيل فلنكشتاين)، ومعه الأستاذ المتخصص نيل سلبرمن في كتابهما (التوراة مكشوفة على حقيقتها): (ولكن هناك تشابهاً أكبر صدقاً بين قصة الهكسوس والقصة التوراتية للإسرائيليين في مصر على الرغم من اختلاف القصتين الحاد في اللحن، ويصف ماثيو انتهاء احتلال الهكسوس لمصر بأنه تم أخيراً من قبل ملك مصري مستقيم هاجمهم وهزم الهكسوس وقتل العديد منهم وتابع فلولهم إلى حدود سوريا - ويقولا - إذاً المصادر الأثرية والتاريخية تخبرنا عن هجرات الساميين من كنعان إلى مصر، وعن قيام المصريين بطردهم بالقوة. هذه

١- العهد الجديد إنجيل متى 2: 1-2.

الخلاصة للهجرة والعودة العنيفة لكنعان تتوازى مع القصة التوراتية للخروج الجماعي. ويبقى هناك سؤالان رئيسان: الأول: من هم أولئك المهاجرون الساميون؟ والثاني: كيف يتطابق تاريخ زيارتهم لمصر مع الترتيب الزمني للأحداث التوراتية؟ ويؤرخ طرد الهكسوس عامةً على أساس السجلات المصرية للمدن المحطمة لكنعان بقرابة (1570ق.م). يخبرنا سفر الملوك الأول 6-1 بأن بناء المعبد الذي بدأ في السنة الرابعة من عهد حكم سليمان إنما حدث بعد 480 سنة من حادثة الخروج الجماعي في سنة (1440ق.م)، أي أنه بعد أكثر من مئة سنة بُعيدَ الطرد المصري للهكسوس قرابة (1570ق.م)، وهذا إشكال أكثر جدية أيضاً)[1].

يلاحظ أنه على الرغم من الإضاءة المهمة للباحث الإسرائيلي على جانب من الحقيقة، إلا أنه تبنى محاولة للخروج عن قاموس التاريخ للعهد القديم، اعتبر وحسب ما تخبره التوراة أن الخروج الجماعي قد تم في العام (1440ق.م)، في حين أن القاموس ينسبه إلى تواريخ متأخرة بأكثر من مئة وخمسون عاماً من هذا التاريخ، رغم ذلك تزامن خروج الهكسوس مع وجود بني إسراءيل، ويكون خروجهم بعد أكثر من مئة عام، كما ذكر فنلكشتاين. وعلى الرغم من محاولته ردم الهوة داخل النص بقي سؤاله قائماً: كيف تتطابق هجرتهم إلى مصر مع الترتيب الزمني لدخول وخروج الهكسوس من مصر؟ داخل الرواية التوراتية، ودون الإشارة إلى إغفال الرواية للأحداث برمتها لأن الزج بهذه الأحداث داخل النص سوف يطيح بالرواية التوراتية لقصة الخروج من مصر وما ترتب عليها، هو ما سوف نتوسع فيه في الفصل الرابع.

وإشارةً لما تعرض له الباحث إسرائيل فنلكشتاين حول الإشكالية القائمة في المقاربة والتوافق ما بين تواريخ الخروج من الدلتا المصرية لبني إسراءيل وتواريخ طرد الهكسوس (الملوك الرعاة الآسيويين) كنعانيين وعبرانيين وعموريين وبدو سيناء منها أيضاً. وهذه التواريخ التي يتوافق فيها وجود بني إسراءيل فيها معهم.

١- إسرائيل فلنكشتاين - ونيل سيلبرمن - التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها ص 89-90.

وبعد إجراء دراسة ومقارنة لقصة الصديق يوسف (صلى الله عليه وسلم) في كل من الروايتين الكتابيتين (التوراة والقرآن) اتضح لنا جلياً أن سفر التكوين وسفر الخروج يكرران مراراً وصف الحاكم بالفرعون، وربما في زلةٍ للكتبة المدونيين تظهر عبارة (ملك) بدلاً من فرعون في مقطعين من خروج 1: 8: (ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ). وذكرت عبارات ملك بدلاً من الفرعون في مقطعين من خروج 1: 15 وفي 1: 17، ثم تعود التوراة إلى وصف الفرعون بعد ذلك!

في الرواية القرآنية يذكر وصف حاكم مصر بـ (الفرعون)، وفي سورة البقرة وحتى قصار السور. ولم تذكر الرواية القرآنية عبارة الفرعون مطلقاً في سورة يوسف تحديداً كوصف لحاكم تلك الحقبة، بل تصفه (بالملك) أربع مرات، إلى جانب وصف (العزيز)، على الرغم من ارتباط قصة يوسف مباشرة بسكنى آل يعقوب في دلتا النيل بمصر؛ هذه المعلومة اللافتة التي لم تغفلها الرواية القرآنية لوقوعها في سياقها التاريخي والجغرافي الصحيح، بالتفريق ما بين الملوك الرعاة الكنعانيين العرب والعموريين وسكان سيناء ومعهم العبرانيين، وما بين سقوط هذه الممالك، وهو أحد أسباب الخروج من مصر، لا سيما بعد سقوط سلطة الفرعون الموحد أخناتون، وهذا يعيدنا أيضاً إلى قصة النبي إبراهيم في سفر التكوين، وزيارته والسيدة سارة إلى مصر في حقبة ما قبل رحيل يعقوب وأولاده إلى هناك، مما يدفع بالحقيقة المغيبة عمداً داخل النص التوراتي، وهي أن إبراهيم الخليل قد حلَّ ضيفاً على ملوك الدلتا المصرية الذين كرموه بتقديم الأميرة العربية هاجر زوجة ومصاهرة له، وهي من بنات الملوك وليست بجارية مصرية كما يدعي كتبة التوراة المحرفين، وهذا ما يدعونا لإعادة قراءة النص التوراتي بما يتطابق مع السياق التاريخي والجغرافي الموضوعي بعيداً عن تحريف وتسييس النصوص التي طالت الرواية الكتابية برمتها في سفر التكوين 37: 25 في وصف إخوة يوسف وكيدهم له: (...ثُمَّ جَلَسُوا لِيَأْكُلُوا طَعَاماً. فَرَفَعُوا عُيُونَهُمْ وَنَظَرُوا وَإِذَا قَافِلَةُ إِسْمَاعِيلِيِّينَ مُقْبِلَةٌ مِنْ جِلْعَادَ وَجِمَالُهُمْ حَامِلَةٌ كَثِيرَاءَ وَبَلَسَاناً وَلاَذَناً ذَاهِبِينَ لِيَنْزِلُوا بِهَا إِلَى مِصْرَ).

الوصف لهذه الأحداث يعود وبحسب التاريخ التوراتي إلى أواخر القرن السابع عشر قبل الميلاد تقريباً، حيث يباع يوسف الصديق في أرض مصر، ولم تكن في ذلك الوقت أي سلطة أو مملكة في أدوم ومؤاب وعمون (جلعاد)، ولم تكن أيضاً قد نشأت أي تجارة على الجِمال من شرق الأردن في تلك الحقبة المبكرة مع

مصر، ولم تكن الجِمال الكبيرة تستعمل في قوافل التجارة عبر سيناء إلا في حقبة سيادة الآشوريين في القرن الثامن تقريباً![1]

وهذه القصص المنسوبة للقرن السابع عشر قبل الميلاد إنما تعود في حقيقتها إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وهو تاريخ تقريبي لتدوين الكتبة للتوراة بالآرامية قبل استكمال العبث في قصصها أثناء وجودهم في بابل. هذا التدوين لتواريخ قديمة وربطها بالقصص التوراتية يعود بنا للتحريف التوراتي في سفر الملوك الأول والثاني، وادّعاء الفتوحات العظيمة للملك داود ما بين الفرات والنيل، والمبالغة في عدد المركبات والخيول في وقت لم يكن للخيول أثراً في تلك المنطقة، وكذلك في وقت لا يزال فيه الملك داود يركب على بغلته الملكية شيخاً، والتي نصب عليها ولده سليمان ملكاً على إسراءيل حسب قول الرواية الكتابية: (۞فَقَالَ الْمَلِكُ لَهُمْ: خُذُوا مَعَكُمْ عَبِيدَ سَيِّدِكُمْ، وَأَرْكِبُوا سُلَيْمَانَ ابْنِي عَلَى الْبَغْلَةِ الَّتِي لِي وَانْزِلُوا بِهِ إِلَى جِيحُونَ، ۞وَلْيَمْسَحْهُ هُنَاكَ صَادُوقُ الْكَاهِنُ وَنَاثَانُ النَّبِيُّ مَلِكاً عَلَى إِسْرَائِيلَ...)[2].

لا أزال أستعرض أوجه التشابه بين التوحيد الآتوني المصري والتوحيد الموسوي. نرى هنا وجه ونمط الاعتقاد باعتبار الفرعون في الديانة المصرية إلهاً أرضياً نائباً للإله الواحد وممثلاً لإرادته على الأرض، على الرغم من محاولة أخناتون شطب هذا النمط الفرعوني الذي أخذ في بداياته الأولى مفهوم الأب الإله الأكبر، والابن الوسيط الإله على الأرض، والذي يرد مشابهاً من حيث الآلهة الأرضية بقول الرب لموسى توراتياً: (...جَعَلْتُكَ إِلَهاً لِفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ)[3]. ويبدو الانتقال الأصولي من الديانة المصرية إلى اليهودية قد استمر بالانتقال إلى المسيحية أيضاً، مثلما نجد في إنجيل متى (...لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: «مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي»)[4]، ومع ذلك فقد تم التطور المهم والجذري للاتجاه بالإيمان المسيحي نحو اعتناق حقيقة البعث والقيامة واليوم الآخر

١- في القرآن الكريم سورة يوسف الآية 19 ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. يفسر علماء التفسير: ابن كَثير وعبد الوهاب النجار، السيارة بالقافلة التي تحمل البضائع دون ذكر أو تأكيد لوسائل النقل المتبعة على الدواب، وهل هي من الجِمال أم من الحمير والبغال وهو الأرجح.

٢- العهد القديم سفر الملوك الأول 1: 33-34.

٣- العهد القديم سفر الخروج 7: 1.

٤- العهد الجديد إنجيل متى 2: 15.

بوفاة المسيح وبعثه من بين الأموات. هذه الأسس والشروط المسيحية ذات القواسم المشتركة مع الإسلام لم تقرها بصراحة الموسوية، كما أطلعنا عليها العهد القديم. وبدا التلميح إليها خجولاً في سفر دانيال في بلاد فارس، هذا السفر الذي يتشابه مع سفر الرؤية في العهد الجديد إلى حد كبير ولافت.

ويبدو أن الموحد المصري الأول أخناتون كان يدرك جيداً أهمية إله الأموات أوزيريس لدى العقيدة والتقاليد المصرية الشعبية، فاستمر في احترامه لهذا المعتقد الشعبي، الذي شكل كتاب الأخلاق المصري (محكمة الأموات). من المؤكد أن نهاية أخناتون غير السعيدة، ونهاية موسى كذلك، ساهمت في اضطهاد الفرعون الذي خلف أخناتون للآسيويين (عبرانيين وكنعانيين ومصريين)، لاعتناق البعض منهم ديانة أخناتون التوحيدية للإله الواحد. وتركز الاضطهاد في أفاريس، رعمسيس، أرض جاسان في دلتا النيل. ويقول سيمسون بشأن إله الأموات المصري والإله الأعلى حورس: (ومع أنه من المفروض أن إله الناس هو أخناتون نفسه، فلم يقضي قضاءً فعلياً على العبادة الشعبية للإله حورس أيضاً، الصديق المخلص للإنسان، أو على العبادة الموسعة للإله المخلص أوزيريس أمنحوتب)[1].

يُبدي الباحث أ. ويغال 1923 في هذا الموضوع رأياً آخر أكثر وضوحاً وتوثيقاً في كتابه (حياة أخناتون وعصره)، والذي يبدو أكثر تخصصاً وتوسعاً في هذا المجال، إذ يقول: (كان أخناتون يرفض الاعتراف بفكرة جحيم يثير الرعب لا سبيل إلى التوقي منه إلا برقى سحرية لا تقع تحت حصر[2]. رمى أخناتون بهذه الرقى جميعاً بالنار، وقدم الجن والغيلان والمسوخ وأنصاف الآلهة و أوزوريس نفسه مع بطانته كلها لقمة سائغة لألسنة اللهب، فآلت إلى رماد). ويقول أيضاً: (لم يسمح أخناتون بأن تحفر لآتون أي صورة على القبور، وكان الملك يقول: إن الإله الحقيقي لا شكل له، وقد بقي على رأيه طوال حياته)[3].

١- سيمسون نايوفيتس: ج2 ص 197.

٢- صرح الحاخامات الإسرائيليون بأنهم قاموا بقتل الرئيس جمال عبد الناصر بالشعوذة والسحر الأسود، عقاباً له على ما فعل بإسرائيل. أخبار قناة الدنيا الفضائية 2009/3/7.

٣- أ. ويغال: حياة أخناتون وعصره. ص 102.

أما أرمان فيقول: (لم يرد ذكر لا لـ أوزريس ولا لملكته)[1]. ويقول العالم بريستيد: (لقد تجوهل أوزيريس كلياً ولم يرد له أي ذكر في أي مدونة لأخناتون أو في قبر من قبور العمارنة)[2].

و خلاصة القول في ثورة العمارنة الآتونية: على الرغم من ثورية وعلمية وعظمة الخطوة الملكية وإنسانيتها وحضارتها وتقدمها وقوتها في الوقت نفسه، إلا أنها لم تنتصر نهائياً وبشكل حاسم في المعركة الفكرية والسياسية في مواجهة الديانات التعددية وإبطالها، والانتقال بالشعب لعبادة (الإله الواحد) الذي تبناه أخناتون وجسده في إشراقة ونور الشمس. كانت مصالح الأعيان والإقطاع والكهنة والطبقة الأرستقراطية والساسة والعسكريين أقوى من أن يفرض أخناتون سيطرته عليها خلال خمسة عشر عاماً من حكمه. أضاعت هذه القوى المتنفذة فرصة كبرى للإمبراطورية المصرية لقيادة العالم باتجاه التوحيدية، كما فعلت الإمبراطورية الرومانية بركوبها موجة المسيحية والتوحيدية للسيطرة على حوض البحر المتوسط، وعلى أوروبا الوثنية الممزقة والمتخلفة في ذلك الوقت. وتبرز أهمية الاعتناق الديني القديم للسيطرة والنفوذ والطاعة في قول الفرعون للسحرة في قصة موسى والسحرة في القرآن الكريم: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾[3]. والطَريقةَ المثلى هَناَ هيَ استمرَار اعتماد الفرعون كَإله على الأرَض يتمتع بالطاعة المطلقة والسلطان وملكية الأرض ومن عليها من مخلوقات وخيرات.

يصف سيمسون في كتابه انهيار النظام الآتوني: (انهار الاستطراد التوحيدي الآتوني الراديكالي بعد 15-20 عاماً فقط. وربما كان أخناتون في الثلاثين من عمره حين مات، وكان بلا شك رجلاً وحيداً، وقد مات حُباه الكبيران: نفرتيتي وكيا. وكان على الأقل أربعة من بناته الست ومعظم أحفاده وأمه (تا - تي) قد أخذهن الموت، ربما بسبب الوباء الذي أثر في جزء كبير من مصر الوسطى في تلك الفترة. ومن المؤكد أنه كان يعي أن الإمبراطورية في سبيلها للانهيار، وربما كان من التعقل بحيث يفهم أن فرص إبقاء توحيده الآتوني ضئيلة. ومن الواضح أنه دفن في المقبرة المحفورة في الصخر (TA26) التي أعدها لنفسه

١- أرمان: دين مصر 1905، ص 70.
٢- بريستيد: فجر الوجدان، ص 291.
٣- القرآن الكريم سورة طه الآية 63.

في جروف العمارنة الشرقية، ولكن لم يعثر على شيء في تلك المقبرة المنهوبة التي لم ينتهِ العمل بها سوى تابوت مكسور من الجرانيت ليس بداخله مومياء. وفي عام (1891م) اكتشف بيتري (BETRE) الأواني الكانوبية وتماثيل الأوشامبي التي تخص أخناتون، وقد نُثِرت في شوارع بقايا العمارنة)[1].

على الرغم من فشل ثورة العمارنة وعدم قدرتها على الصمود والبقاء بعد وفاة الملك الموحد أخناتون، لكنها بلا شك استطاعت ترك الإرث الكبير والبذور الأولى للديانة التوحيدية واللازمة لتطور وبروز الديانات التوحيدية بعدها، وتركت إرثاً كبيراً للديانة الموسوية وصولاً للمسيحية والإسلام.

كانت ثورة جديرة بالاحترام والثناء كمبادرة جريئة في عالم الأديان الوثنية القديمة في الشرق وحوض البحر المتوسط. ونستمر في المقارنة والاستنتاج حول الكيفية التي طورت فيها الديانة التوحيدية بعد عصر أخناتون: يختتم سيمسون بحثه الشيق والمهم: (كان إبراهيم حنيفاً بالفعل ولم يكن مصوراً حتى بعد أن أسمى موسى في القرن الثالث عشر ق.م هذا الإله يهوه. ظل يهوه خفياً دون أن تكون له أي صورة مادية. وكان يهوه من التجريد بحيث أنه رداً على موسى المُلِحّ أن يكشف له عن اسمه. وصف يهوه نفسه بأنه «أهيه» و «أهيه الذي أهيه»؛ أي «أكون وأكون ما أكونه»). ويضيف إن أخناتون لم يتخلَّ عن دوره كفرعون إله، ولكنه برر ألوهيته وأكدها: «كان العبرانيون يعتقدون أن الاسم يكشف عن الهوية العميقة، مثلهم مثل المصريين»[2].

لم يجرؤ موسى أو محمد (صلى الله عليه وسلم ادّعاء ذلك (والرأي لسيمسون هنا)، وكان مجرد تلميح يسوع الغامض إلى أنه ربما يكون ابن الله كافياً لأن يتهمه اليهود بالتجديف. واعتبر المسلمون الثالوث المسيحي شديد القرب من الشرك (التعددية)، وأعلن القرآن الكريم أن الله (..لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ..)[3]، (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ)[4]، و (لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ..)[5]. واعترف كل من موسى ومحمد (عليهم السلام) بأن يهوه أو الله لا بد له من رسول، ولكن من المؤكد أنه ليس بحاجة إلى وسيط لا يصل إليه أحد غيره. ومن ناحية أخرى هناك تشابه بين ديانة آتون والمسيحية في أن كلاً من يسوع ومن ثم العقيدة الكاثوليكية أكدا السبيل إلى الآب يكون من خلال الابن الإلهي

١- سيمسون نايوفيتس: ج2 ص 207.
٢- بتصرف.
٣- القرآن الكريم سورة الفرقان الآية 2.
٤- القرآن الكريم سورة الإخلاص الآية 4.
٥- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 73.

والبشري (...لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي)[1]، مثلما أنه لم يكن هناك من سبيل إلى آتون (الإله) إلا من خلال ابنه (أخناتون)[2].

قبل اختتام هذا الفصل المتعلق بالتوحيد الأول لمصر والموحد الأول أخناتون، وقبل الدخول في فصل آخر من مرحلة الاضطهاد الفرعوني للآسيويين (الخاسوت) وفترة الخروج من مصر أنقل وجهة نظر يان أسمان التي قد تبدو مختلفة عن المفاهيم الموروثة لقصة النبي موسى ودعوته التوحيدية.

ينقل يان أسمان في كتابه (التمييز الموسوي) عن سيغموند فرويد (عالم النفس النمساوي اليهودي). ويصف قول فرويد بـ (فرضيتين خارقتين في الجرأة) الأولى: هي أن موسى لم يكن عبرياً، وإنما مصرياً. والثانية: أنه لم يمت في مؤاب مثلما تروي التوراة، إنما قتل من قبل شعبه نفسه. ويحاول تقرير (التوراة) حسب رأي فرويد أن يحجب الحقيقتين الأساسيتين بكل صعوبة، وهما الأصل المصري وقتله، ولكن حيلته تنكشف من خلال الآثار التي بقيت على الرغم من ذلك. ومن هذه الآثار هو اسم موسى المصري الواضح الذي أرادت التوراة تغطيته بالكاد بلون الأصل العبري. وهناك أثر آخر هو أسطورة الطفولة التي تقلب الخطة الأسطورية لـ (ولادة) البطل وعلى رأسها بشكل لا يقبل سوى نتيجة واحدة: (وجوب تهويده)، تهويد رجل مصري. أما الأثر الثالث فهو (اللسان الثقيل) لموسى الذي يشير إلى أنه لم يكن يجيد اللغة العبرية ولا يمكن أن يتفاهم مع اليهود[3] إلا بواسطة مترجم، ويدافع أسمان عن فكرة العدالة بقوله: (فإن فرضيتي عن الأصل الدنيوي لفكرة العدالة تدافع عن التوحيدية (التوراتية) ضد الاتهامات التي رفعها (فريدريك نيتشه)، فقد ادّعى أن مبادئ العدالة المنفذة ليست سوى (أخلاقاً عبودية)، لذلك يعتبرها من اختراع التوحيدية (التوراتية)، وبهذا اعتبر دين المسحوقين والمستضعفين، الذي ولّد الأحقاد والضغائن ضد انتصارات الإغريق والرومان الذين كانوا يمثلون القيم (الأصيلة) والقوة والجمال لطبقة الأغنياء والنبلاء)[4].

أتفق مع أسمان بالشق الأول من رأيه حول العدالة والأخلاق ذات الأصل الدنيوي، ولهذا نزلت الرسالات السماوية لترسيخها وتعميمها بين أبناء البشرية

١- العهد الجديد إنجيل يوحنا 14: 6.

٢- سيمسون نايوفيتس: ج2 ص 219-220.

٣- ملاحظة فرويد حول عدم معرفة موسى للعبرية أكدتها الآيات القرآنية بطلب موسى شد أزره بأخيه هارون (حيث يصفه أطلق لساناً). ويقصد فرويد باليهود العبرانيين، لأن اليهودية لم تظهر للوجود إلا في القرن التاسع ق.م.

٤- يان أسمان - التمييز الموسوي ص 66-67، 120-121 بتصرف.

كافةً دون تمييز أو تفضيل لأحد على الآخر بسبب لونه أو جنسه أو معتقده أو انتمائه، وأتفق أيضاً مع (نيتشه) في الشق الأول أيضاً من تحليله الموضوعي المثير حول (أخلاق العبودية)، التي هي اختراع عبراني متوحش دس دساً من خلال الرواية التوراتية وبشكلها الذي بين أيدينا وبتاريخها الماضي العنصري الأسود، لا سيما إذا ما تم الابتعاد عن التبني المطلق والأعمى للنظرة الاستشراقية والمركزية الأوروبية الفوقية والغربية الاستكبارية، بالفصل ما بين الدعوة التوحيدية الموسوية التي شكلت أساساً لظهور الديانات التوحيدية الأخرى (المسيحية والإسلام)، وبين ما شاب الرواية الكتابية من ادّعاء الأوامر الإلهية بالأمر في السرقة والكذب والخداع والمكر والإبادة والقتل والسلب والحرق لشعوب أخرى لم يكن بنو إسرائيل بأفضل منها، ولم يكن للأوروبيين وغيرهم، أن يدعوا إلهياً بأن الله قد أمر بإبادتها وسلب ممتلكاتها وهضم حقوقها واستيطان أراضيها بادّعاء أيضاً أن الإله يختار له شعباً يكون إلهه ليهبه أملاك الشعوب الأخرى في فرضية مخالفة للعقل والمنطق الإلهي. من الطبيعي أن تختار الشعوب آلهة لها أو إلهاً لها، ولكن أن يبحث الإله الخالق عن شعب له يتبناه ويكون إلهه الخاص دون الشعوب الأخرى، فإن الأمر يستدعي الشك والريبة، وإثارة الكثير من علامات الاستفهام حول الرواية برمتها، فالعالم نيتشه على ما يبدو قد أجرى المقارنة ما بين الممارسات الإغريقية والرومانية الوثنية التي شابها نظام العدالة والأخلاق والتحضر والرقي والعلم، وبين أخلاق المستعبدين والمضطهدين على يد الفرعون في مصر، والكتابيين، وما قاموا به من ظلم واضطهاد واستعباد وإبادة جماعية بحق الشعوب التي دخلوا إليها، حسب روايتهم الكتابية، فكان لا بد له من وصف معتقداتهم وأفعالهم، بأن مبادئ العدالة المنفذة ليست سوى (أخلاقاً عبودية) في محاولة من نيتشه ليقول إن أخلاق العبودية والهمجية متأصلة في نفوسهم ولن تغيرها أي قوانين إلهية.

بكل أسف ومرارة نقول: هذه الجذور الاستعلائية الحاقدة تشكل أصول الحضارة الأوروبية الغربية، حيث أصبحت مصدر إلهام وقدوة للمحتلين والإمبرياليين ولصوص الرأسمالية المتوحشة الصهيونية المرابية ونظامها

الاستبدادي الآيل للسقوط والانهيار أمام حتمية التاريخ ونضال الشعوب المستضعفة على هذه الأرض التي ابتليت بالنظم الاحتلالية الإمبريالية والعنصرية التوراتية التلمودية!!

تحدث العالم نيتشه عن القيم الأصلية والقوة والجمال لطبقة الأغنياء والنبلاء الرومان والإغريق، لكنه أغفل الجانب العلمي؛ هذا الجانب المهم الذي احتكم إليه الموحد المبدع (أخناتون) في تأكيد اكتشافه وإيمانه بالعلم حينما أكَّد أن الشمس ليست مصدر الطاقة والنور فحسب، بل هي مصدر إنتاج الزمن ومواقيته وفصوله، من خلال تعاطيه مع العقل والمنطق، فقد أبطل كل المعتقدات التي تخالف منطق العلم والعقل، حيث رفض وحارب الآلهة المحلية المتعددة والشعوذة والسحر والتعاويذ وكل ما يناقض منطق العلم والعقل، في وقت نرى فيه العبرانيون (حسب الرواية التوراتية) بقيادة يوشع بن نون قد حولوا ديانة وتوحيد موسى (صلى الله علبه وسلم) الإلهية إلى معتقدات وأخبار خرافية تجافي منطق العلم والوحي الإلهي الذي لا يمكن أن يوحي بما يخالف منطق خلق الكون والعلم وطبائع الأشياء، فأي تعاليم أو إضافات دست من قبل الكتبة والكهنة ولا تتوافق ومنطق العلم والواقع فهي باطلة، ولا يمكن نسبها للوحي الإلهي والكتب السماوية الموحى بها إلهياً للأنبياء والمرسلين. قام رجال الكنيسة الجهلة باضطهاد وتعذيب وحرق العلماء الأوروبيين لأن اكتشافاتهم ودراساتهم خالفت رواية العهد القديم، حينما تعارضت هذه العلوم والمكتشفات معها. ومن أولئك العلماء (جيوردانو برونو) الذين أُحرِقوا أحياء بعد تعذيب شديد على يد عصبة محاكم التفتيش الأوروبية، وتقول التوراة المكتوبة: (۞حِينَئِذٍ قَالَ يَشُوعُ لِلرَّبِّ، يَوْمَ أَسْلَمَ الرَّبُّ الأَمُورِيِّينَ أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَمَامَ عُيُونِ إِسْرَائِيلَ: «يَا شَمْسُ دُومِي عَلَى جِبْعُونَ، وَيَا قَمَرُ عَلَى وَادِي أَيَّلُونَ». ۞فَدَامَتِ الشَّمْسُ وَوَقَفَ الْقَمَرُ حَتَّى انْتَقَمَ الشَّعْبُ مِنْ أَعْدَائِهِ. أَلَيْسَ هَذَا مَكْتُوباً فِي سِفْرِ يَاشَرَ؟ فَوَقَفَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْ تَعْجَلْ لِلْغُرُوبِ نَحْوَ يَوْمٍ كَامِلٍ)[1].

أي منطق ووحي هذا المدعي الذي يناقض منطَق خلق الكون والعلم؟ متى توقفت الشمس وتوقف القمر، وبالتالي توقف دوران الأرض حول نفسها؟ هل

١- العهد القديم سفر يشوع 10: 12-13.

شاهد العالم هذه الكارثة؟ وهل تبقَّى على سطح الأرض من يشاهد ويشهد؟ إنها الخرافة والأسطورة التي أراد الأحبار والكتبة إضفاء الصفة الإلهية والوحي عليها تسويغاً لروايتهم المدعاة غير الإلهية!

الخـــروج
بين الأسطورة والحقيقة

قصــة خــروج بنــي إسـرائيل ومـن معهـم مـن العبـرانيين والكنعـانيين (الآسيويين) من مصر فرعون العبودية إلى الانعتاق والحرية، بين الرؤية القرآنية والرواية التوراتية، بين الواقع وبين الأسطورة والادّعاء، هو ما سيكون محور البحث في هذا الفصل من الكتاب.

سبق وبينت في كتابي السابق (أبٌ هو إبليس)، الفصل الثالث، وتحت عنوان: (هل عبر موسى البحر الأحمر؟)، أن النص المنحول يضع شكوكاً كبيرة حول الرواية برمتها، وبرأيي أيضاً أن عدد الخارجين من مصر مع موسى يبدو عدداً خيالياً وأسطورياً، وفي الواقع لم يتعدَّ عددهم بضعة آلاف! وتوصلتُ إلى نتيجة مفادها أنه لا بد من إعادة البحث في قصة الخروج من كل جوانبها.

تطرق إلى هذا الموضوع عددٌ من الباحثين والمهتمين بالدراسات الكتابية والتاريخية للقصة العبرية، إلا أنه من النادر أن يتطرق إليها أحدٌ مستعيناً بالرؤية القرآنية، ولو على سبيل المعرفة والتقصي لإثراء البحث، وهذا يعود بالأصل للعصبوية والأصولية الغربية ومركزيتها وإصرارها على استبعاد القصة القرآنية التي جاءت بالإسلام كرسالة سماوية توحيدية خاتمة. تلك الرسالة السمحاء التي سلطت الضوء على صحة الرسالات السماوية التي سبقتها، فاتفقت معها في الكثير واختلفت معها في بعض الجوانب الأخرى التي تم التغيير فيها أو تسييسها أو التغيير في تعابيرها من خلال التناقل والترجمة والظروف المختلفة التي مرت فيها.

استحضرت الرواية القرآنية أوجه الاختلاف أو الفهم إلى ساحة النقاش والحوار والمراجعة، بروح من الإخاء والتسامح والمحبة، فلا إلغاء أو إقصاء للآخر، فالكتب السماوية: التوراة والإنجيل والقرآن، وحامِلوها: موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام)، جميعهم يلتقون في مبادئ العدل والمساواة والخير والحق

والأخلاق، حيث بقي هذا التباين ما بين هذه الديانات متعلقاً في حقيقته حول قصص من سبق من الأنبياء والمرسلين وما نسب إليهم، دون نفي الآخر أو التنكر له أو لشريعته السماوية.

كما نرى في بعض كتابات الكتبة والباحثين الغربيين واستبعادهم للرواية القرآنية في الكثير من بحوثهم وأعمالهم وكتاباتهم، ربما يعود ذلك في الأصل للثقافة الغربية وتراثها الأصولي المتعصب، الذي يعتنق مبدأ (ثقافتي ومعتقدي هو الأفضل، وما عداه من الثقافات والمعتقدات الأخرى هي ثقافات وعقائد دونية).

على أي حال سأتطرق لقصة الخروج من جوانب عديدة ومختلفة: توراتية وقرآنية وإنجيلية، مع الاستنارة بما أنجزه الباحثون والمختصون في هذا الشأن. والغاية هنا إثراء هذا البحث والإضاءة على المعرفة والحقيقة مع الإقرار المسبق بأن أي بحث ودراسة موضوعية وجادة لمضمون القصة العبرية سوف يقود إلى معرفة ما شابها من تغيير وتبديل عما جاء به النبي موسى (**صلى الله عليه وسلم**)، مع وجود انتحال وتحريف لا تزال تكشفه تناقضاتها التاريخية وتشير إليه المكتشفات الأثرية الحديثة والبحوث العلمية، ما يجعل من اعتمادها بصيغتها التي هي عليها استغباءً وتطاولاً على العقل البشري والمنطق العلمي والإنساني السليم، لا سيما عندما تنسب الأعمال والممارسات فيها للأوامر الإلهية، ونسبها إلى (كما أمر الرب)، وهذا الأمر الذي نحاول تسليط الضوء عليه من خلال البحث والتقصي داخل الكتب السماوية الأخرى، وفي العهد القديم: (وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَأَثْمَرُوا وَتَوَالَدُوا وَنَمُوا وَكَثُرُوا كَثِيراً جِدّاً وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْهُمْ)[1].

يمهد القول التوراتي مسبقاً لتقبل عقل المتلقي إلى العدد الهائل الذي سوف يدّعى لاحقاً عن عدد الخارجين من مصر مع موسى (**صلى الله عليه وسلم**)، لا بد هنا من الأخذ بالحسبان قتل الفرعون لذكورهم واستحياء الإناث منهم: (۞فَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ رَعَمْسِيسَ إِلَى سُكُّوتَ نَحْوَ سِتِّ مِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الأَوْلاَدِ. ۞وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضاً مَعَ غَنَمٍ وَبَقَرٍ مَوَاشٍ وَافِرَةٍ جِدّاً)[2].

هذه المبالغة الواردة في القصة قد تطيح بالرواية برمتها!

١- العهد القديم سفر الخروج 1: 7.

٢- العهد القديم سفر الخروج 12: 37-38.

لكن ما الغاية من المبالغة في وصف أعداد الخارجين ومعهم لفيف كبير أيضاً من غير العبرانيين؟ الغاية هنا التغيير في النتائج التي سيترتب عليها الخروج لجماعة مستعبدة مضطهدة، لتتحول هذه الجماعة من مُسخَّرة مُعتدى عليها إلى شعب وأمة تحمل مقومات الوطنية والقومية، حيث سيكون في انتظاره على جبل سيناء إله يبحث عن شعب له ليعطيه أرض ميعاد وشعوبٌ أخرى تكون بانتظاره هناك، ليسخرها الإله يهوه، فيكونون عبيداً لبني إسرائيل.

لم تستطع القصة إخفاء الحقيقة (وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضاً). من هم أولئك اللفيف الكثير غير العبريين؟ هل هم الهكسوس، العموريون، الكنعانيون، عمالقة سيناء، الليبيون، البربر، أم بعض المعارضين المصريين؟

من المعروف أن الأرض التي باركنا فيها، وهو الوصف القرآني لإحدى أطراف مثلث الأرض، التي بارك الله بها للعالمين (من اليمن للحجاز والدلتا وفلسطين وما حولها)، وهي ترجمة للآية القرآنية: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ۝﴾[1] والتي يقابلها في توراة موسى: (فَقَالَ: جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ[2] وَأَتَى مِنْ رَبَوَاتِ الْقُدْسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ)[3] هذه الأراضي المباركة كانت على الدوام موطناً للهجرات المشرقية والمغربية. وأصبحت دلتا نهر النيل ملاذاً لجماعات وشعوب كثيرة كانت تعاني، وعلى فترات مختلفة، من عدم الاستقرار والتوطن نتيجة لمناخ الجفاف والقحط والتصحر لمناطق واسعة من الجزيرة العربية وجنوب وشرق البحر المتوسط بعد انحباس الأمطار لفترات طويلة.

أصبحت بذلك مجاري الأنهار ومصباتها من الملاذات الآمنة، التي تعتمد على مياه الأنهار. وكانت دلتا نهر النيل في شمال مصر أهم هذه المناطق التي هاجرت إليها جماعات من الكنعانيين العموريين والعبرانيين، ومنهم يعقوب (صلى الله علبه وسلم) الآرامي اللسان الكنعاني التربية والثقافة مع أبنائه الذين ارتحلوا إلى دلتا النيل بمصر نجاةً من الجفاف والقحط، الذي طال أيضاً شمال أفريقيا. كما كانت هناك هجرات متلاحقة للّيبيين والبربر إلى منطقة الدلتا بين فرعي (دمياط والرشيد) شرقاً وغرباً.

١- القرآن الكريم سورة التين الآيات 1-3.

٢- جبل فاران: هو جبل عرفات في مكة المكرمة. وهي التسمية القديمة له وللحجاز وجنوب سيناء (برية فران).

٣- العهد القديم سفر التثنية 33: 2.

هذا ما قام به أيضاً أجداد النبي إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) في رحلتهم إلى شمال الجزيرة العربية (أوركلدان) العراق، إثرَ الجفاف الشديد الذي أصاب جنوب الجزيرة العربية، حيث كان الموطن الأصلي لأجداد إبراهيم (صلى الله عليه وسلم).

شكل الليبيون والبربر في دلتا النيل وفي مصر جالية كبيرة خلقت طبقة كبيرة من التجار والملاك والموظفين والعسكريين الذين وصلوا إلى مراتب عليا في مصر الفرعونية.

لا علاقة للدعوة والتوحيد بهذه الهجرات التي حمل فيها المهاجرون معتقداتهم وثقافاتهم التي اختلطت بعضها ببعض فتفاعلت وتأثرت وأثرت بمحيطها الجديد، فلا سبيل للادّعاء بأن قصة الخروج تحمل طابعاً تعبدياً أو دينياً على الإطلاق، أو أنها معارضة لنظام تعدد الآلهة الوثني. هذا الادّعاء لا علاقة له كذلك بموسى الذي كان يحمل مبادئ أخناتونية توحيدية معارضة لنظام لا أخلاقي جائر. ودليل ذلك ما جاء في القرآن الكريم ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1]، وفي سورة أخرى ﴿وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾[2].

حين تتحدث الرواية العبرية في سفر الخروج عمّا خرج معهم من (...غَنَمٍ وَبَقَرٍ مَوَاشٍ وَافِرَةٍ جِدّاً)[3]، فهذا يعني أن المصريين لم يسلبوا العبرانيين ومن معهم ممتلكاتهم وأرزاقهم وهم الأقوياء القادرون وأصحاب الدين الوثني اللاأخلاقي (وهنا توجد الحلقة المفقودة)، بل على العكس من ذلك، ما حصل أن بني إسرائيل الموحدين هم من سلب وسرق المصريين!

سفر الخروج يجعل من الموحدين المضطهدين المسخرين لصوصاً سارقين ومخادعين!

سرقة أواني فضة وذهب وحوائج بالخديعة للجوار من المصريين بتبرير توراتي تكاد الرواية تعتبره أمراً إلهياً: (۞وَأُعْطِي نِعْمَةً لِهَذَا الشَّعْبِ فِي عُيُونِ الْمِصْرِيِّينَ. فَيَكُونُ حِينَمَا تَمْضُونَ أَنَّكُمْ لاَ تَمْضُونَ فَارِغِينَ. ۞بَلْ تَطْلُبُ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْ جَارَتِهَا وَمِنْ نَزِيلَةِ بَيْتِهَا أَمْتِعَةَ فِضَّةٍ وَأَمْتِعَةَ ذَهَبٍ وَثِيَاباً وَتَضَعُونَهَا

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 138.
٢- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 92.
٣- العهد القديم سفر الخروج 12: 38.

عَلَى بَنِيكُمْ وَبَنَاتِكُمْ. فَتَسْلِبُونَ الْمِصْرِيِّينَ»)[1]. القصة هنا تبين أن الرواية تناقض ذاتها بقولها: (وَصَعِدَ مَعَهُمْ ...غَنَمٍ وَبَقَرٍ مَوَاشٍ وَافِرَةٍ جِدّاً)[2]، ما يعد ثروة في ذلك الزمان هذا الذهب وهذه الفضة المسروقة من الكثرة والوفرة، بحيث شكلت حملاً ووزراً عليهم في سيناء عند عبادتهم للعجل الذهبي المصنوع منها في غياب نبيهم موسى، وهو يتلقى هناك الشريعة والوصايا على جبل الطور.

وترد القصة في القرآن الكريم كما يلي: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ۞ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ۞﴾[3].

هناك أيضاً تبرير كاذب على موسى بادّعاء الوزر والشعور بالذنب لسرقة ذهب المصريين ليصنع منه عجلاً ذهبياً، يقال له: (..إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى..)[4]. لم يتعرض بنو إسراءيل وحدهم للتسخير والعبودية على يد الفرعون الجديد الطاغية، بل شاركهم هذا التسخير الآسيويون والمصريون، الذين اتبعوا أخناتون وثورته التوحيدية. والسؤال المهم هو: هل آمن بنو إسراءيل ومن معهم من الآسيويين والأفارقة بديانة الموحد أخناتون وموسى ودعوته؟ وهل ارتحل الجميع في خروج جماعي قارب المليونين من الخارجين مع موسى؟

من سفر الخروج خرج (۞...سِتِّ مِئَةِ أَلْفِ مَاشٍ مِنَ الرِّجَالِ عَدَا الأَوْلاَدِ. ۞وَصَعِدَ مَعَهُمْ لَفِيفٌ كَثِيرٌ أَيْضاً...)[5]. وباحتساب العيال والنساء واللفيف غير العبراني قد يصل العدد إلى ما يقرب من المليونين من الخارجين مع موسى. وتأتي الحقيقة الغائبة من القرآن الكريم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ۞ فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ۞ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ۞﴾[6]. في سياق الآيتينَ القرآنيتين مشهد لَجَمْعَيْن كل يرى الآخر بعد التوجه شرَقاً، والشرق هنا منطقة (رعمسيس)، حيث سكناهم هناك، وليس البحر الأحمر الذي يقع إلى الجنوب؛ إنه فرع النيل المسمى (بالفرع البلوظي) مصرياً، والمسمى في التوراة

١- العهد القديم سفر الخروج 3: 21-22.
٢- العهد القديم سفر الخروج 12: 38.
٣- القرآن الكريم سورة طه الآية 88.
٤- القرآن الكريم سورة طه الآيات 87-88.
٥- العهد القديم سفر الخروج 12: 37-38.
٦- القرآن الكريم سورة الشعراء الآيات 60-62.

(نهر الشيحور)، وحيث تتشكل هنا بحيرة اليم الذي تخلفه موجات المد والجذر المختلطة مع مياه البحر المتوسط. وحيث تتشكل هنا بحيرة المنزلة، وجنوب هذه البحيرة وفي سبخاتها المتحركة جرى العبور، وهناك غرق فرعون وجنوده، وليس في البحر الأحمر كما تدّعي الرواية التوراتية. وهذا ما تخبرنا به الآية القرآنية الكريمة ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا[1] فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۝ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝﴾[2]. نلاحظ عبارة ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، حالة من المد والجزر تشكل (يماً)، وهذا ما أمر الله به أم موسى: أن ألقيه باليم يقذفه اليم بالساحل، وسنلاحظ أيضاً عبارة: ﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾. لم تقل الآية غرقاً!

تذكر الآية الكريمة ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى..﴾[3]. تظهر الآية بجلاء ووضوح عقم الادّعاء التوراتي المبالغَ في أعداد الخارجين من مصر مع موسى ﴿..قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[4]. وعبارة (أصحاب) ترمز لغوياً إلى العدد القليل من الكثير النسبيَ من (قوم موسى) الذين اتبعوا موسى منهم وخرج معه من مصر، وليس الخارجين هم جميع بني إسراءيل. فعندما نقول (أصحاب المسيح)؛ أي تلامذته ومن اتبعه من بني إسراءيل وغيرهم من الوثنيين. وعندما نقول (محمد وصحبه)، فنشير بذلك إلى العدد القليل الذي اتبعه من قومه من قريش، ونقوم بالثناء على أتباعه عندما نقول الصلاة على محمد وعلى آله وصحبه، استثناءً للمشركين من قومه. ونقول (أصحاب الكهف) مثلاً، فهذا القول القرآني يدل على الذين اتبعوا وخرجوا مع موسى إلى سيناء من الباقين في مصر من العبرانيين والآسيويين، والذين ربما كانوا يخفون إيمانهم، كما بعض المصريين من آل فرعون، حسب ما ذكره القرآن الكريم، إضافةً إلى الليبيين والبربر الذين سكنوا دلتا النيل الغربية، ولعل دليل ذلك الآية القرآنية التالية:

١- ﴿..فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا..﴾: أي أسلك بهم طريقاً في السبخة، فالضرب هنا مماثل للقول لما ورد في سورة المَزمل الآية 20 ﴿..يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ..﴾، وليس المعنى (اضرب بعصاك).

٢- القرآن الكريم سورة طه الآيات 77-78.

٣- القرآن الكريم سورة الشعراء الآية 61.

٤- القرآن الكريم سورة الشعراء الآية 61.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

ويأتي التأكيد مرة أخرى في سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۞ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۞ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ۞ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞﴾[2]، وتثبيت إلهي آخر من سورة الدخان: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ۞ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۞﴾[3]. أشير هنا لقول فرعون في الآية ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: يلاحظ القارئ في الآيات السابقة عبارات مهمة جداً: ﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾. والمقصود هنا فرعي النيل: الدلتا الشرقية والغربية، وبالدليلَ ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي لم يتم خروجهم جميعاً بعد غرق فرعون وقومه. و ﴿أَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾: وهم قوم غير قوم بني إسراءيل أيضاً (مصريون ليبيون بربر موحدون)، نلاحظ ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾، ووراثة الأرض التي باركنا فيها (دلتا النيل) حيث الموطن ومنه كان الخروج. وملاحظة مهمة تدل على صحة تفسير الآية (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى) قول فرعون في الآية الأخرى من سورة الشعراء ما قاله فرعون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۞﴾، والله أعلم.

حاول المدونون وَأحبارهم السياسيون تغييب الحقائق الموضوعية لقصة الخروج بالمبالغة في أعداد الخارجين من مصر مع موسى إلى سيناء، بهدف إعطاء الرواية بعداً توحيدياً، وقومياً سياسياً، وعرقياً في آن واحد، لوصف شعب مؤمن اعتنق ديانة موسى التوحيدية، فتعرض للعبودية والسخرة والاضطهاد المصري، مما اضطره للهجرة إلى مناطق أخرى يستطيع فيها ممارسة ديانته وطقوسه بحرّية بعيداً عن اضطهاد النظام الوثني المصري. ولما كان من المستحيل ممارسته في مصر، فإنه لا بد من وطن لهذه الممارسة والعبادة بعد

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 137.
٢- القرآن الكريم سورة الشعراء الآيات 52-59.
٣- القرآن الكريم سورة الدخان الآيات 25-29.

تحرير وتطهير الأرض الجديدة من الوثنيين الكفرة، ولا مفر لهم من إبادة وسلب واستعباد (الشعوب الكافرة) غير الموحدة، حتى لا تتكرر العبودية مرة أخرى، رغم إقرارهم ضمن توراتهم بعبادتهم للعجل ولبعل وعشتروت وملكوم وإله المدينيين ويهوه، وآلهة محلية شعبية أخرى، فهم ذنبهم مغفور!

مع كل المعجزات والرؤى التي حققها لهم موسى (صلى الله عليه وسلم)، والتي لم تثبت من إيمانهم ويقينهم، بخلاف غيرهم من الشعوب الأخرى، التي لم تشهد معجزة موسى ليطلبوا من نبيهم أن يريهم الله جهراً!

لم تكن طموحاتهم ومراميهم اعتناق التوحيد ونبذ ديانات تعدد الآلهة، إنما العمل على تشكيل نواة شعبٍ وإيجاد وطن وكيان سياسي على غرار الكيان المصري الراسخ، حتى لو تحقق ذلك لهم بواسطة أرباب وديانات أخرى وآلهة وثنية متعددة. وكما يقال: (الثورة تأكل أبناءها)، فقد كان النبي موسى أول ضحايا ممارسات العبرانية البدائية. وتشير آيات القرآن الكريم إلى ذلك بوضوح، وتعبر عن مطالبهم التعجيزية الاستكبارية، وعن إيذائهم لموسى وتذمرهم وخروجهم على الوصايا العشر الإلهية، والعبادات التي فرضت عليهم بموجب الشريعة، كما تذكر سورة النساء: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً ۞ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً ۞ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞﴾[1].

للتفريق بين أعمالهم وكفرهم وبين رسالة النبي موسى وإيذائهم له وعدم اتباع دعوته وتوحيده لله، تقول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾[2]. ثبت لموسى يقيناً مجاراتهم وانصياعهم المؤقت له، وعلم يقيناً ما يبيتون ويكنون في أعماق نفوسهم، فاشتكاهم لربه ووصفهم بأنهم (...قُسَاةَ الرِّقَابِ...)[3].

١- القرآن الكريم سورة النساء الآيات 153-155.
٢ - القرآن الكريم سورة الأحزاب الآية 69.
٣- العهد الجديد سفر أعمال الرسل 7: 51.

عبر عن ذلك سيغموند فرويد. ومن خلال قراءة للباحث يان أسمان في كتابه التمييز الموسوي يصف ذلك بالقول: (ويرى فرويد هذه الآثار في العنف المميت، وفي نية القتل المكشوفة التي شعر بها موسى عدة مرات). ويقول أيضاً: (ويستنتج فرويد من هذه الآثار أن اليهود قتلوا موسى لأنهم لم يتحملوا المطالب العالية التي وضعها دينه المجرد (السامي) ثم الالتزام بها طوال الحياة، كما أدى التقدم في الروحية وما يرتبط به من الشعور بالتفوق إلى ردود فعل عنيفة. كان موسى الضحية الأولى لذلك، وعلى هذا فإن اليهود الذين قتلوه هم أول المعادين (للسامية).

اعتبر فرويد كما هو معروف (موسى) من أنصار أخناتون. وكان قد هاجر بعد موت أخناتون مع اليهود المستوطنين في الدلتا إلى فلسطين، ونشر بينهم الدين التوحيدي. إلا أن اليهود[1] لم يكونوا على استعداد لتحمل المطالب العالية، أو بالأحرى لتحمل روحية التوحيد المجردة، لذلك قتلوا موسى وكتبوا بعد ذلك هذا العمل (ويقصد كتبوا التوراة)[2]. وكان هذا تجربة نفسية لازمة، لأنه أدى إلى تذكر المكبوت لقتل الأب الأصل الذي يعود لبدايات عرقية[3].

ويعني قتل موسى (إعادة يقظة التذكر الذي كان منسياً لحد الآن)، وذلك بإعادة واقعية هذا الحادث الذي يتمثل بقتل موسى. وأدت توحيدية موسى إلى إعادة مجيء الأب؛ وقتل موسى إلى إعادة قتل الأب الأصل)[4].

ينسجم ويتطابق قول العالم النمساوي اليهودي فرويد مع الاستنتاجات المنطقية التي ذكرتها، ويدخل في سياق الآيات القرآنية التي تشير إلى قتلهم للأنبياء بغير حق. ولا بد من الإشارة هنا وباهتمام بالغ وتدقيق مع هذا التحليل (قتل الأب الأصل)، بحيث تفهم أن موسى (صلى الله عليه وسلم) يمثل الأب للديانة الموسوية التوحيدية الأولى، فلا بد من قتله، لأن الديانة الوثنية القديمة

١- يعتبر فرويد اليهودية أصلاً عرقياً، وهو ما لا نتفق معه عليه كون اليهودية ديانة والعبرانية عبارة عن عرقية؛ فالدين ليس عرقاً.

٢- إشارة فرويد (لذلك قتلوا موسى وكتبوا بعد ذلك هذا العمل) إشارة إلى أنهم كتبوا العهد القديم بعد موت موسى بما يتوافق وأهدافهم. وهي إشارة من فرويد إلى أن التوراة التي بين أيدينا ليست توراة موسى ولا كلمة الله.

٣- قول فرويد (يعود لبدايات عرقية) قد يكون نسبة العبريين إلى قابيل قاتل أخيه حسداً منه، وهو قول ورد على لسان السيد المسيح (عليه السلام) تلميحاً في العهد الجديد. إنجيل متى 23: 29-36.

٤ - يان أسمان: التمييز الموسوي ص 122-123.

اعتنقت مبدأ (قتل الإله ذبيحة تؤكل ويشرب دمها)، فيتجسد الإله (الطوطم) في أجساد آكليه وعابديه ومعتنقيه. هذا المعتقد مورس في الرومانية والإغريقية والكنعانية، حتى إن الهنود الحمر مارسوه في قارة أمريكا. فقتل الأب الأول موسى، كأول أب بعد الخروج من العبودية، يماثل تماماً (قتلهم للمسيح) الأب الأول للمسيحية بعد اليهودية! فصلب المسيح كان مطلوباً، وبغض النظر عن محاكمته أو اتهامه بالتجديف (الكذب)، تماماً كما اتهم موسى!

هذا الفعل الذي أسماه فرويد (المكبوت الأبوي)، ويشير أسمان إلى (همجية الأصل) تلميحاً في إشارة للأطماع العبرانية وهمجيتها وممارساتها قبل ظهور إبراهيم الخليل إلى الوجود بأزمان طويلة. وربما ألمح فرويد بعبارة (التذكر المكبوت لتقتل الأصل) إلى الأب الأول، والذي نسبه إلى (بدايات عرقية)، متفقاً في ذلك تماماً مع السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) في الإنجيل بهذا الصدد، وخطابه الموجه للعبريين اليهود وأحبارهم وكتبتهم بقوله الإنجيلي المقدس: (۞وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ الْمُرَاؤُونَ لأَنَّكُمْ تَبْنُونَ قُبُورَ الأَنْبِيَاءِ وَتُزَيِّنُونَ مَدَافِنَ الصِّدِّيقِينَ ۞وَتَقُولُونَ: لَوْ كُنَّا فِي أَيَّامِ آبَائِنَا لَمَا شَارَكْنَاهُمْ فِي دَمِ الأَنْبِيَاءِ! ۞فَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنَّكُمْ أَبْنَاءُ قَتَلَةِ الأَنْبِيَاءِ. ۞فَامْلأُوا أَنْتُمْ مِكْيَالَ آبَائِكُمْ. ۞أَيُّهَا الْحَيَّاتُ أَوْلاَدَ الأَفَاعِي كَيْفَ تَهْرُبُونَ مِنْ دَيْنُونَةِ جَهَنَّمَ؟ ۞لِذَلِكَ هَا أَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ أَنْبِيَاءَ وَحُكَمَاءَ وَكَتَبَةً فَمِنْهُمْ تَقْتُلُونَ وَتَصْلِبُونَ وَمِنْهُمْ تَجْلِدُونَ فِي مَجَامِعِكُمْ وَتَطْرُدُونَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ ۞لِكَيْ يَأْتِيَ عَلَيْكُمْ كُلُّ دَمٍ زَكِيٍّ سُفِكَ عَلَى الأَرْضِ مِنْ دَمِ هَابِيلَ الصِّدِّيقِ إِلَى دَمِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرَخِيَّا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ بَيْنَ الْهَيْكَلِ وَالْمَذْبَحِ. ۞اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَذَا كُلَّهُ يَأْتِي عَلَى هَذَا الْجِيلِ!)[1].

فقول السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) (مِنْ دَمِ هَابِيلَ الصِّدِّيقِ) يتوافق مع التحليل القائل (بدايات عرقية)، وتؤكده بنسب أعمال القتل والصلب والجلد والطرد من قبل العبرانيين إلى دم هابيل الصديق، فنسبهم إلى (همجية الأصل) إلى قابيل قاتل أخيه غيلةً وحسداً أو يكاد ينسبهم إليه! وعبارة (إِنَّ هَذَا كُلَّهُ يَأْتِي عَلَى هَذَا الْجِيلِ!) إشارة للعقاب الإلهي القادم بتدمير الهيكل والشتات الموعود، بمعنى العودة إلى البدايات وتفعيل الله للعهد الجديد على يد عيسى المسيح بن مريم (صلى الله عليه وسلم).

١- العهد الجديد إنجيل متى 23: 29-36.

فقتل الرسول موسى (صلى الله عليه وسلم) يعني قتل رسالته. وهذا الأمر لم يقتصر على النبي موسى (صلى الله عليه وسلم)، بل طال المسيح أيضاً. إن قتل وصلب المسيح عيسى (صلى الله عليه وسلم) إنما يعني قتل رسالته. ومحاولتهم قتل النبي محمد (صلى الله عليه وسلم مراراً إنما يعني عدم قبولهم بالديانات التوحيدية الثلاث. وتنص توراة موسى صراحةً على إخبارٍ وبشرى بالأنبياء عيسى ومحمد (عليهم السلام). وكان أحبارهم وكهنتهم يعرفونها جيداً على الرغم من تحريفهم لها. فقد جاء في إنجيل يوحنا سؤالهم للنبي يحيى (صلى الله عليه وسلم) (يوحنا) عن القادم، هل هو المسيح؟ هل هو إيليا؟ وهي بشارة للتوراة بمحمد (صلى الله عليه وسلم رسولاً بعد الرسول عيسى (صلى الله عليه وسلم) مكملاً، وقد حرفها علماء اليهود لتصبح إيلياء بدل أحمد. وقد جاء في الإنجيل: (۞وَهَذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» ۞فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ وَأَقَرَّ أَنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ. ۞فَسَأَلُوهُ: «إِذاً مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟» فَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا». «أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟» فَأَجَابَ: «لاَ». ۞فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ لِنُعْطِيَ جَوَاباً لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا؟ مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ؟» ۞قَالَ: «أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ». ۞وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ)[1].

يعلق أسمان على ما جاء به فرويد بقوله: (مع الرسالة التوحيدية لموسى المصري، ظهر دين الأب بحقوقه الصارمة للسمو ومعاييره عن الطهارة والعدالة، على هيئة هيكل متغير من اللاوعي ثانية، وقتل موسى كان حالة لماضٍ معمول به وغير متذكر انطمر على شكل تجارب نفسية للروح اليهودية، وظهر بعد عدة قرون من الكمون في رسالات الأنبياء التوحيدية على شكل «عودة المكبوت»)[2]، ويقول أيضاً: (ومن الطبيعي ألا تعتبر الديانات التوحيدية (اليهودية والمسيحية والإسلام) نفسها أديان ثانوية أو أديان مضادة والتوحيد في نظرهم هو

١- العهد الجديد إنجيل يوحنا 1: 19-24.

٢- من كتاب فرويد TOTEN UND TABU CT912.

الدين التوحيدي الأصيل. وإن مجيء موسى وعيسى ومحمد (عليهم السلام) كان من أجل الرجوع إلى الحقيقة التوحيدية التي كانت مغطاة من الضالّين، لكن الغريب في الأمر هو تأكيد الدقة التي تصور فيها أسطورة الخروج من مصر، والانتقال من دين أولي إلى دين ثانوي، وبهذا الانتقال الذي تسميه التقاليد اليهودية والمسيحية (ما قبل القانون) إلى ما تحت (سيطرة القانون) تغيرت فيه الحالة الكلية للدين، حيث استند الدين هنا إلى قاعدة معيارية صارمة (القوانين)، وحدد نفسه بدقة أمام الآخرين. (وكانت مصر وكنعان) الرمزين اللذين اتّخذا لنفسيهما (إلهاً شعبياً). ولم يعد الدين من منظوره الداخلي للإنارة الذاتية (التوراتية) (ويقصد الكتابية) حالات سابقة، إنما خلق تجديداً جوهرياً. وأنا أفهم مسألة الخروج وسيناء كونها مسألة الصيغة القصية لهذا التحول من الدين الأول إلى الدين الثانوي، نحو حالة تجمع أكثر وعياً وثقافةً والتزاماً)[1].

أتفق مع أسمان في أن اليهودية والمسيحية والإسلام اعتبرت نفسها أدياناً مضادة في مواجهة نظام تعدد الآلهة، وجمعت القواسم المشتركة بالإيمان بالله الواحد لا إله غيره. وسأتفق مع أسمان أيضاً في أن (الكتاب المقدس) يعتبر الديانات والمذاهب التي سبقت اليهودية والمسيحية ديانات (ما قبل القانون)؛ وبعبارة أخرى قبل الوصايا العشر. وفي هذا تمايز موسوي ومسيحي في آن واحد، لا سيما حين يضع (الكتاب المقدس) المصريين والكنعانيين، وكذلك البابليين، كأعداء مركزيين للتوحيدية، ويعتبرهما مصدر الوثنية. وفي هذا تجنٍّ على الإغريقية والرومانية اللتين تعتبران من أمهات اعتناق الوثنية في حوض المتوسط من حيث الترتيب الزمني، ويصفهما؛ أي مصر وكنعان، ولتبنيهما الآلهة الشعبية المتعددة بديانات ما (قبل القانون) أي الوصايا العشر.

من الإجحاف والتجني أن يصف الكتاب المقدس مصر وكنعان بالمركزيتين في الاعتناق الوثني دون الإغريق والرومان، وبصفتهما أول من تبنى التعددية الإلهية قبل ديانة موسى وديانة الكنعانيين بأكثر من ألف عام، ناهيك عن الهنود والفرس والبابليين والسومريين.

فالرومان بأسرهم القديس بولس الرسول وجلبه إلى روما، والذي أُخِذت المسيحية الشرقية أسيرة معه، إنما توخوا من ذلك الفصل التوجه بالمسيحية الحقة إلى غايات وأهداف تخدم مصالحهم وعقائدهم وحملاتهم العسكرية الإمبراطورية،

١- يان أسمان - التمييز الموسوي ص 146- عن ثيوسندر ماير وكتابه (الدين). بتصرف.

ما يجعل من المسيحية موجة جديدة يتم ركوبها للسيطرة على أوروبا الوثنية المتخلفة حينها أيضاً، فالرومانية هي أول من أدخل العادات والتقاليد الوثنية التي كانت تخص ثقافتها إلى المسيحية بعد ظهورها لتغريبها في محاولة لشطب عادات وتقاليد المسيحية المصرية (القبطية الشرقية) الأصيلة المنبع الحقيقي للمسيحية. هذه الممارسات عُبِّرَ عنها بشكل لافت داخل الكتاب المقدس، وفي تفسيرات بعض كهنة الكنيسة الغربية.

ما جاء به أسمان حول ديانات (ما قبل القانون) يعتبر نقداً وقولاً صحيحاً إيجابياً، لكنه ليس كاملاً أو ناجزاً، فالإسلام بعدالته ومساواته وتوحيده للإله الواحد لم يعتبر الأديان التي سبقته (التوحيدية) (أديان ما قبل القانون)[1]، كما اليهودية والمسيحية اللتان لا تزالا تتنكران للإسلام (كديانة سماوية بعد وضمن القانون). هذا يشير إلى عصبوية لافتة لا تتقبل الآخر، على الرغم من دوره الكبير في ولادة حضارات أوروبا التي اعتبر كتّابها وباحثوها الوجدانيين الثقافة العربية والإسلامية ذات الأصول الإسلامية والمسيحية المشرقية (الولادة والقابلة) لحضارة أوروبا التي هذبها وقدم أسس معارفها (ابن رشد) وابن خلدون، وغيرهم الكثير، خلال عصور الظلمات التي كانت فيها الشعوب الأوروبية أسيرة المفاهيم الكهنوتية الجاهلة والمتسلطة على شعوبها المتناحرة فيما بينها على الملكية والسلطات الإقطاعية والكنسية.

وأرى أيضاً أنه من العصبوية التنكر للقيم والمبادئ الأخلاقية والنظم والقوانين التي أرستها الديانة المصرية والثقافة الفرعونية التي استقى منها كتبة القصة العبرية معظم معتقداتهم، لا سيما (كتاب الأموات) المصري، الذي يفوق ما جاءت به الوصايا العشر (القانون) تقدماً وثورية وإنسانية، وأُذكر هنا بشريعة حمورابي الفراتية البابلية التي أرست دعائم أول قانون للبشرية.

يقول الباحث أندريه نايتون في كتابه المترجم (الأصول الوثنية في المسيحية): (أما أشهر آلهة عُبِدت في مصر فهي أوزيريس، إيزيس، حورس. وهناك ثلاثية هيأت الطريق لتثليث المسيحي اللاحق، هو الإله بتاح، وكلمته - توت، وروحه القدس - حورس. وهذا التثليث المصري قديم جداً، وهو الذي عبّد طريق الهرمسية السكندرية المؤلفة من العقل الأكبر أولاً، ثم الكلمة الخلاقة ثانياً، ثم روح القدس ثالثاً. وكان الأفلاطونيون قد طوروا هذه النظريات الخاصة بالتثليث، وربما كان هذا ما دفع القديس سيريل المقدسي إلى

١- راجع الوصايا العشر، وبشكل أكثر وضوحاً وكمالاً في سورتي الإسراء والأنعام القرآنيتين.

أن يكتب في القرن الرابع أن فلاسفة اليونان كانوا يؤمنون بالتثليث المقدس، وإنهم يقولون أن الطبائع الثلاث ممتدة من دون واسطة). ويقول: (وأحد الشعانين هو مقدمة لاحتفال المسيحيين بـ (موت المسيح وآلامه). وإن عيد الفصح الذي يحتفل به في 25 آذار/مارس اختير موعده ليتماشى مع يوم الاعتدال الشتائي في تقويم جوليان كما يذكر البحاثة الإنكليزي جيمس فرايزر. إذاً، فإن الاختيار للتاريخ الخامس والعشرين من آذار للاحتفال بعيد الفصح كان الأصل محاولة للتوفيق بين الشعائر الوثنية وبين الإيمان المسيحي. والكنيسة تحتفل بـ (موت المسيح وقيامته) بطريقة مشابهة جداً لتلك التي كانت الوثنية تحتفل فيها بموت الإله أدونيس[1] وبعثه)[2].

فيما يتعلق بنظرية فرويد حول مقتل النبي موسى على يد العبرانيين من بني إسرائيل تؤكدها الروايتين الكتابيتين (التوراة والقرآن معاً).

جاء في العهد القديم على لسان النبي هوشع بعد أكثر من خمسمئة عام على وفاة النبي موسى (**صلى الله علبه وسلم**): (إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لاَ ذَبِيحَةً وَمَعْرِفَةَ اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ مُحْرَقَاتٍ. وَلَكِنَّهُمْ كَآدَمَ تَعَدَّوُا الْعَهْدَ. هُنَاكَ غَدَرُوا بِي. جِلْعَادُ قَرْيَةُ فَاعِلِي الإِثْمِ مَدُوسَةٌ بِالدَّمِ)[3]. ويأتي عصر النبي هوشع بعد عصري إشعيا وإرميا. ويشير بقوله إلى الغدر ونقض العهد إلى الجبل والسهل الذي يطل على قبالة فلسطين من جهة نهر الأردن الشرقية (جلعاد)، حيث يدعي توراتياً أن موسى مات هناك ودفنه الرب ولم يعرف أحد قبره!

أشار علماء الشريعة والفقه الإسلامي إلى جرائم اليهود بحق الأنبياء والقديسين والرسل، وقد أكون أوائل الذين يؤكدون قتل موسى على يد بني إسراءيل، وبالاستناد إلى آيات القرآن من سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ

١- أدونيس: أحد آلهة الإغريق؛ يموت ثم يبعث من جديد.
٢- أندريه نايتون (الأصول الوثنية في المسيحية) ص 44-45، 55 بتصرف.
٣- العهد القديم سفر هوشع 6: 6-8.

إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

نلاحظ في هذه الآية من ذكر للذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، وقتلهم للأنبياء بغير حق، فالقول (فلم قتلتموهم) بالجمع، هو قول إلهي مقصود به الرسولين

موسى وعيسى (عليهم السلام) بتكذيبهم ثم قتلهم، فالآية الكريمة التالية موجهة للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[2]، فالمقصود بهذه الآية الأنبياء الثلاثة موسى وداود وعيسى (عليهم السلام). وقد لعن الذين كفروا من بني إسراءيل على لسان داود وعيسى، والبينات أتى بها النبيان (موسى وعيسى) (عليهم السلام)، وهي الآيات والمعجزات الواضحة الصريحة. والآية الكريمة تحاكي دعواهم ونواياهم وأفعالهم بالقول: ﴿قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وتماشياً مع دعواهم الواردة في سورة النساء ﴿..وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً۞ بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً۞﴾[3]. وأقول: وسواءً تم الرفع بالروح قبل الصلب أو بعث الروح والقيامة في اليوم الثالث، فإن جريمة القتل أو الصلب قد جاءت للنبيين موسى وعيسى (عليهما السلام) على يد نفر من بني إسراءيل طبقاً للآيات الواردة، والله أعلم.

أتابع طريق الخروج دون تفاصيل الدخول في العبور وجبل سيناء وصولاً لمحطة متقدمة ومهمة تقع ما بين سيناء وفلسطين (عين قديس) وتوراتياً (قادش برنيع). الشكل (1).

إنها المحطة التالية للتيه التي قدموا إليها قبل (عصيون جابر) في برية فاران (أرض الحجاز)، وتقع بالقرب من العقبة الحالية والممتدة إلى الأرض التي باركنا فيها (فاران). تم هذا الترحال بعد إظهار الكثير من المعجزات على يد موسى (صلى الله عليه وسلم)، وصولاً للعصيان في السبت في ساحل العقبة (عصيون جابر)، وقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي

١- القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 183.
٢ - القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 184.
٣- القرآن الكريم سورة النساء الآيات 157-158.

كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ[1] يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)[2].

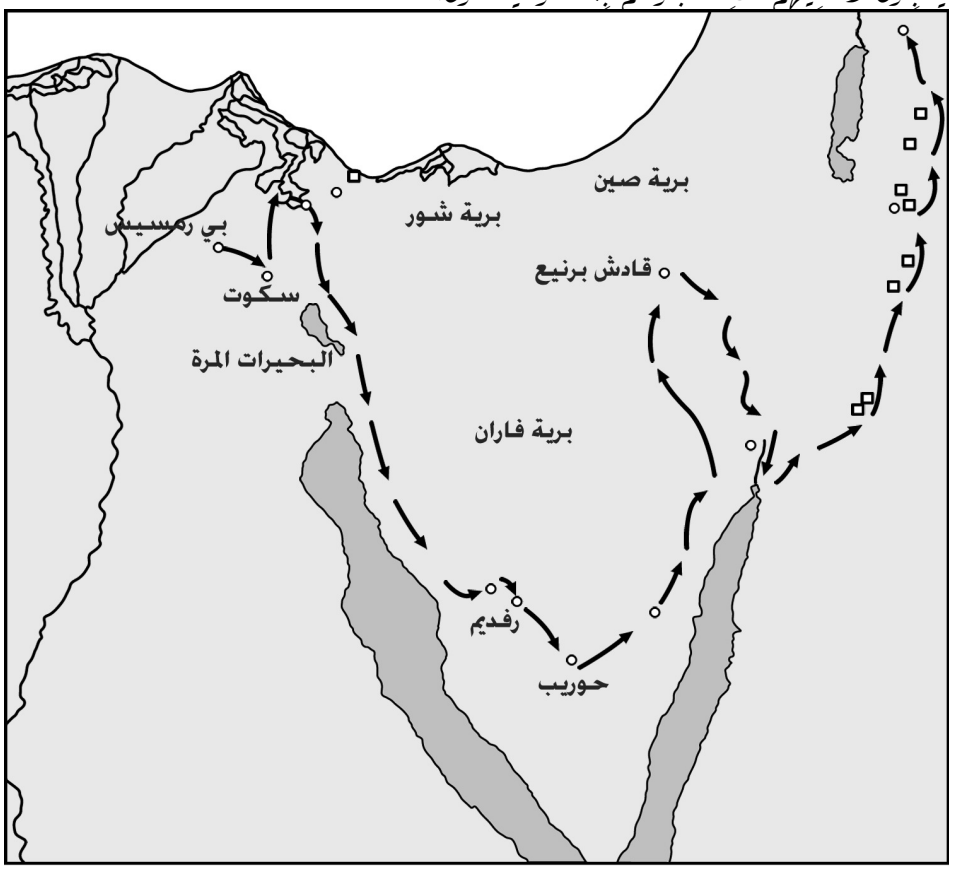

الشكل 1: طريق الخروج من مصر. الطريق الذي يفترض أن يكون أصحاب موسى قد اتبعوه، بخلاف ادّعاء الرواية التوراتية من عبور للبحر الأحمر. وتظهر محطتهم الأولى التي أمرهم الله بسكناها (عين قادس) (قادش برنيع)، وهي مناطق سكنى العرب المدينيين، ما بين سيناء وفلسطين، وتمتد حتى جنوب العقبة والتيماء.

أمر الله بني إسراءيل بسكنى واحة قديس في أرض المدينيين الذين استقبلوا موسى، وكانت تعبد هناك آلهة شعبية، ومنها (يهوه) إله البراكين والظلام، الخاص بطبيعة منطقة البراكين وجبال البحر الأحمر وبرية فاران، وهو إله لا يظهر إلا ليلاً. في كل بلدة وقرية كان هناك معبد أو هيكل للعبادة. ويصف القرآن الكريم هذه الحادثة وصفاً دقيقاً في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا

١- حيتانهم تعني أسماكهم.
٢- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 163.

هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَادْخُلُوا۟ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۝ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ۝)[1][2]

الأمر الإلهي: (اسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ؛ ادْخُلُوا۟ الْبَابَ سُجَّدًا) هو أمرهم الله بسكنى عين قادس وبدخولهم لمعبدها ساجدين لإله موسى، ويغفر الله خطيئاتهم. يلاحظ هنا القول خطيئاتكم وليس خطاياكم، كما سيأتي في سورة البقرة (خطاياكم)، فعصوا ربهم وذهبوا وراء آلهة أخرى (ليس بصيغة الجمع التام) (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ)، وهذا يفسر وجود موسى وهارون ويوشع ومن اتبع إيمان موسى وبقي على عهده وميثاقه.

والظلم هنا هو ظلم النفس بعبوديتها لغير الله الواحد الخالق والخروج عن وصية (لا تتخذ إلهاً غيري)، وعبارة (..بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ) من سورة البقرة الآية 59. والمقصود بالفسوق هنا رفض أوامر الله وعدم طاعته كما كان الحال مع إبليس (..فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ..)[3] أي رفض أوامر الرب إليه.

يلفت الأستاذ الباحث صلاح الدين الكلاس النظر في كتابه (القصص الحق موسى (صلى الله عليه وسلم)، إلى المقاصد الإلهية في عملية التشابه والتكرار الواردة في القرآن الكريم، بشرح للفارق بين الزمان والمكان وأسباب النزول والمرحلة التاريخية التي واكبت هذا التنزيل الإلهي. هذا التفسير قائم على منهج تفسير القرآن في منهج القرآن، وأنقله بتصرف: (لم يرد ذكر القرية في سورة البقرة (والمقصود الفارق بين اسكنوا هذه القرية في سورة الأعراف وأدخلوا هذه القرية في سورة البقرة) إلا بعد ذكر ثلاثة حوادث في سورة الأعراف، في قوله تعالى

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآيات 161-162.

٢- الانتباه إلى الفارق بين سورة البقرة والأعراف بالمقارنة لكل ما تحته خط لملاحظة الفروق الكبيرة ما بينها والتي توضح الاختلاف في الزمان والمكان والغاية الإلهية للنزول بإيضاح الفارق بين قادس والقدس.

٣- القرآن الكريم سورة الكهف الآية 50.

(1)- ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ..﴾[1]

(2)- ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

(3)- التذكير بما أخذه رب العالمين من بني آدم ﴿..أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[3].

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ۞ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ۞﴾[4].

ونحن لن نكتفي بأدلة السياقات القرآنية في مقابلات التشابه لإثبات أقدمية الأمر الإلهي الموجه إلى بني إسراءيل بسكنى القرية على القضاء الإلهي بدخولهم قرية أخرى، وهي بيت المقدس، إنما نقدم للقارئ الكريم لأول مرة مقابلات التشابه لم يسبقنا أحد إليها من قبل نقدم من خلالها الأدلة على أن القرية المذكورة في الأعراف هي غير القرية المذكورة في البقرة. ولعل ما يرد في الشكل الرمزي الإيضاحي التالي ما يضع النقاط فوق حروفها هو الدليل الأول:

تشابه {
سورة الأعراف الآية 161 ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ..﴾
سورة البقرة الآية 58 ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ..﴾
}

إن من يستقرئ آيات الله التي تتحدث عن القول الإلهي يدرك أن التعبير القرآني (قلنا) هو قضاء إلهي نافذ، فالله تعالى قضى أن يدخل بنو إسراءيل القرية المشار إليها في الآية 58 من سورة البقرة. وقد تبين أن المقصود بهذه القرية الأرض المقدسة التي كتب الله تعالى لبني إسراءيل دخولها فحسب، ولم يكتب لهم سكناها أبداً، وقال الله تعالى على لسان موسى (صلى الله عليه وسلم): ﴿يَا

١- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 163.
٢- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 171.
٣- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 172.
٤- القرآن الكريم سورة البقرة الآيات 58-59.

قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ)[1]. ومما لا شك فيه أن الفترة التي أمضوها في سكنى الأرض المقدسة لم تدم، ولم تكن سكنى مخالفة للقضاء الإلهي، إنما خضعت إلى ملابسات أرضية تعرضنا لذكرها في البحث السابق تحت عنوان (النهايات)؛ أي إن بني إسراءيل سكنوا أثناء فترة التيه في موقع سمي في كتاب العهد القديم (قادش)[2].

ما اقتبسناه من قول للأستاذ الباحث صلاح الدين الكلاس يبين الاختلاف الجغرافي والفارق بين القريتين الوارد ذكرهما في سورتي الأعراف والبقرة. سوف ندلل على صحة التفسير وبيان اختلاف أوجه التشابه وتاريخية كل منها من السياق التوراتي لقصة الخروج، كما وردت كتابياً (۞ثُمَّ رَجَعُوا مِنْ تَجَسُّسِ الأَرْضِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْماً. ۞فَسَارُوا حَتَّى أَتُوا إِلى مُوسَى وَهَارُونَ وَكُلِّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيل إِلى بَرِّيَّةِ فَارَانَ إِلى قَادِشَ...)[3].

من الأمانة والإنصاف، وبما يتوافق مع التنزيل الإلهي في القرآن الكريم، التمييز ما بين أوجه الاختلاف بين ممارسات الخارجين عن الموسوية واعتناقهم لمعبودات وآلهة أخرى محلية وما بين عهود الأنبياء والتقاة من بني اسراءيل، التي برز فيها التوحيد الموسوي (حقبة الأنبياء داود وسليمان)، وما بعدهما من ارتداد نحو الصهيونية والوثنية والانغلاق القبلي والتقوقع على الذات ونبذ الآخر المشوب بالطغيان والفساد والظلم للشعوب الأخرى التي ساكنوها، وما رافق ذلك من حقبة الأنبياء المتأخرين: إشعيا، إرميا، حزقيال، هوشع، دانيال (ما بعد الخروج من بابل ودمار الهيكل الأول، والعودة إلى القدس في حقبة عزرا (الوراق) وصولاً إلى النبي) زكريا ويحيى، ووصولاً للرسول الأعظم عيسى المسيح عليه السلام، القضاء الإلهي الذي قضى على من تواجدوا من بني إسراءيل في فلسطين بدخول الأرض المقدسة، ومن ثم الخروج منها، عقاباً إلهياً على ما ارتكب من محرمات وموبقات وظلم وعصيان بحق الله والآخر والقتل والصلب بحق الأنبياء والمرسلين واتهامهم للقديسة مريم البتول بالمعصية وفعل الزنا من دون وجه حق. هذا القضاء الإلهي ورد صراحةً على لسان الأنبياء المتأخرين، وعلى لسان النبي عيسى بن مريم، وفي القرآن الكريم. وقضى هذا الأمر الإلهي بانتشارهم في الأرض (الدنيا) (العالم) من أقصاه إلى أقصاه. وجاء

١- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 21.
٢- صلاح الدين الكلاس - القصص الحق - موسى (ﷺ) ص 369-370، 372 بتصرف.
٣- العهد القديم سفر العدد 13: 25-26.

في سياق الآيات من سورة الإسراء ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ۞ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۞﴾[1].

الانتقام الإلهي في هذه الآية يعطي مثلاً بفرعون وعمله واضطهاده وقتله ذكورهم، وفي ذلك استفزاز لهم المعني به (الإفناء) والحرمان من حق الحياة. ومن هنا يأتي أيضاً معنى الأرض في الآية الكريمة، إذ ليس معناه الاستفزاز من أرض مصر أو أرض فلسطين، بل هو محاولة إفناء من الحياة على وجه الأرض كلها، لذلك كان الله يضرب بما فعله فرعون مثلاً لما فعلوه أيضاً بالآخرين بمحاولة ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ (...لإِفْنَائِهِمْ وَإِبَادَتِهِمْ)[2]، كما ورد في النص التوراتي، وفي قوله تعالى ﴿اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي وعد نجمعكم فيه من شتى بقاع الأرض ثانية، (لفيفاً) منَ مختلف الألوان والألسن والثقافات، لتشهدوا انتهاء دعواكم وطغيانكم، كما فعلنا بفرعون عندما ظلم الناس بمثل ظلمكم وطغيانكم ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[3].

وتبرز هنا حقيقة تاريخية مهمة: خروج العدد القليل منهم مع موسى وبقاء معظمهم في مصر وشمال أفريقيا. ومن هناك عبروا عبر المضيق إلى أسبانيا وأوروبا، بينما عبر الآخرون منهم إلى بلاد فارس وبلاد الخزر وأوروبا الشرقية، فنشروا الديانة هناك بين شعوب مختلفة لا علاقة لها ببني إسرائيل، والسامية عرقياً. والبيان القرآني واضحٌ فيما يقول: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[4]

في هذه الآية تأكيد إلهي ببقاء معظمهم في دلتا النيل، كما أسلفنا. إن الوصف القرآني بفسوق معظمهم، كما ورد في سورتي الأعراف والبقرة، يماثل

١- القرآن الكريم سورة الإسراء الآيات 103-104.
٢- العهد القديم سفر أستير 9: 24.
٣- القرآن الكريم سورة طه الآية 24.
٤- القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 137.

فسوق إبليس وعصيانه أمر ربه (..إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)[1].

وقولهم للرسول عيسى المسيح إنه ابن زنى، وإنهم أبناء إبراهيم، حيث يخاطبهم عليه السلام في إنجيل يوحنا، عندما قال له اليهود: (...«إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِنىً. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: لَوْ كَانَ اللَّهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كَلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ)[2]

قد يبدو للبعض أن التطرق لتلك القصة القديمة (الخروج من مصر)، وغيرها من النقاط التي يتطرق إليها هذا البحث، لن يغير في الواقع والنتائج على الأرض، حيث منطق القوة والهيمنة وعالم القطب الواحد والشيطان الأكبر وحدهما يقرران نتائج الصراع، ويضعان النهاية للرواية المختلف عليها في هذا العصر القائم على المصالح المادية والأطماع الاستعمارية. ربما يكون هذا القول صحيحاً من وجهة نظر البعض، لكن الواقع والحقائق والمنطق يفيد بعكس ذلك تماماً. إن إخلاء الساحة الدولية عربياً، مسيحياً وإسلامياً، للطرف الصهيوني ليسيطر عليها، وليغير في حقيقة الرواية التوراتية موظفاً لصالحه ما جاء فيها، هو وحده من أنتج هذا الواقع المرير، وخلق عبر السيطرة على الساحة الأوروبية صهيونياً، وبغياب عربي وإسلامي شبه تام، أسباباً سياسية وثقافية وربوية دفعت بالغرب وساسته وبعض مثقفيه إلى تبني الادّعاءات التوراتية والتلمودية، وربطها اقتصادياً وعسكرياً بالمصالح الربوية الغربية، فمنذ قرون عديدة خلت عملت الحركة الصهيونية بحرية تامة على تسويق روايتها المشوهة، بما أنها تسيطر إعلامياً واقتصادياً وسياسياً على مفاصل الحياة الأوروبية ومراكز صنع القرار داخل المنظومة الغربية ذات الطموحات الاستعمارية والثقافات الاستعلائية العنصرية.

اعتبر الغرب بنتيجتها هذه الرواية مصدراً لجذور الثقافة والحضارة الغربية التي توافقت مع دعوات الاستعلاء والاستيطان والسيطرة والإبادة، التي تضمنتها وسوقتها ضمن (الكتاب المقدس) بالرواية العبرية!

١- القرآن الكريم سورة الكهف الآية 50.

٢- العهد الجديد إنجيل يوحنا 8: 41-44.

هذه النصوص المحرَّفة للكتاب المقدس الذي يجري عليه الصراع بين الشرق والغرب، هي الثقافة التلمودية التي أفرزت (معسكر دول الشر)، وما سماه الرئيس الأمريكي جورج بوش (محور الشر) (الدول المارقة) في مواجهة التحالف الدولي الديمقراطي الحر الذي ارتكب ويرتكب مختلف الجرائم بحق الشعوب المستضعفة غير التلمودية، في كلٍ من فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان والسودان والصومال، وقريباً ستضم أمريكا باكستان أيضاً إلى قائمة الدول الإرهابية. ويلاحظ القارئ الكريم أنها كلها دول عربية وإسلامية!

ألم يوصلنا - عرباً ومسلمين - تخاذلنا و (اعتدالنا) وغباء الكثير من ساستنا إلى التطاول على شعوبنا واستباحة معتقداتنا ومقدساتنا وثقافتنا وحضارتنا، من خلال تبعيتنا ورضوخنا لإملاءات الطاغية بوش إلينا لحضور مؤتمر (أنابوليس): المؤتمر الذي أباح إبادة غزة والمقاومة، والذي أُعلِن فيه وبوقاحة وعنصرية (يهودية الدولة) على الأرض الفلسطينية العربية.

ألم يقبل الكثير من القادة العرب والمسلمين سياسة الركوع والخضوع (والتهميش الذاتي)، والقبول الطوعي لمفاهيم صهيونية مغلّفة برداء السلام والتطبيع السري والعلني؟!

للدلالة والبرهان على أن خروج (أصحاب موسى) إنما تم بخروج عدد قليل لم يتعدى عدة آلاف، مع بقاء العدد الأكبر منهم في دلتا النيل وشمال أفريقيا، نقرأ في سفر إرميا: (۞اَلْكَلِمَةُ الَّتِي صَارَتْ إِلَى إِرْمِيَا مِنْ جِهَةِ كُلِّ الْيَهُودِ السَّاكِنِينَ فِي أَرْضِ مِصْرَ السَّاكِنِينَ فِي مَجْدَلَ وَفِي تَحْفَنِيسَ وَفِي نُوفَ وَفِي أَرْضِ فَتْرُوسَ: ۞هَكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَنْتُمْ رَأَيْتُمْ كُلَّ الشَّرِّ الَّذِي جَلَبْتُهُ عَلَى أُورُشَلِيمَ وَعَلَى كُلِّ مُدُنِ يَهُوذَا فَهَا هِيَ خَرِبَةٌ هَذَا الْيَوْمَ وَلَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ ۞مِنْ أَجْلِ شَرِّهِمِ الَّذِي فَعَلُوهُ لِيُغِيظُونِي إِذْ ذَهَبُوا لِيُبَخِّرُوا وَيَعْبُدُوا آلِهَةً أُخْرَى لَمْ يَعْرِفُوهَا هُمْ وَلاَ أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ)[1]. وإرميا أيضاً (لإِغَاظَتِي بِأَعْمَالِ أَيَادِيكُمْ إِذْ تُبَخِّرُونَ لِآلِهَةٍ أُخْرَى فِي أَرْضِ مِصْرَ الَّتِي أَتَيْتُمْ إِلَيْهَا لِتَتَغَرَّبُوا فِيهَا لِكَيْ تَنْقَرِضُوا وَتَصِيرُوا لَعْنَةً وَعَاراً بَيْنَ كُلِّ أُمَمِ الأَرْضِ)[2].

إرميا من الأنبياء المتأخرين. ظهر في حقبة الجلاء إلى بابل. يحاول بخطابه رد بني إسراءيل العاصين والعابدين لآلهة أخرى إلى عبادة الإله الواحد إله موسى.

١- العهد القديم سفر إرميا 44: 1-3.

٢- العهد القديم سفر إرميا 44: 8.

يبدو هذا القول صحيحاً لاهوتياً، ولكن أين يكون المنطق هنا تاريخياً وجغرافياً؟ إنه وصفٌ درامي أسطوري يحاول أن يكون لاهوتياً (...فَهَا هِيَ خَرِبَةٌ هَذَا الْيَوْمَ وَلَيْسَ فِيهَا سَاكِنٌ)[1].

التعبير هنا أسطوري لاهوتي خيالي. إن إرميا يرى القدس وجميع المدن الأخرى خربة خالية من السكان، فينسب ذلك للفعل الإلهي. وبالواقع هي ليست خربة ولا خالية من السكان، بل هي مسكونة وعامرة بالناس، لكنه لا يرى فيهم سكاناً يهوداً ولا حتى بشراً. إنها تبريرات تجافي حقيقة التاريخ والأحداث التاريخية ومنطق الأمور، لتضع القارئ في هالة من الخيال الواسع لنص درامي إلهي لاهوتي بعيد عن المنطق والواقع على الأرض، هذا ليس تاريخاً. وفي محاولة لإعادة ربط يهود يهوذا بيهود مصر وبالقدس والهيكل، يتم التلويح بالانقراض والفناء والعار واللعنة. تستمر الدعوة القبلية والانعزالية والعنصرية داخل النص، فلن يعتبر يهود مصر وفارس وبابل وأرض كوش (الحبشة) مؤمنين وموحدين إلا إذا استوطنوا فلسطين وحصروا عبادتهم لله داخل الهيكل!

- هل كان بالإمكان لليهود في مصر والحبشة، أو في الاسكندرية وجزيرة الفيلة واليمن وجبال البربر المغربية، والمفترض أنهم اتبعوا ديانة يهودية هدائية، أن يكونوا جميعاً من بني إسراءيل؟ أو ألا تتم عبادتهم وصدق إيمانهم إلا إذا تركوا أوطانهم وثقافاتهم التي هم عليها ليهاجروا إلى فلسطين كمستوطنين غرباء، ليقال لهم حقاً لقد أصبحتم الآن يهوداً؟

مع ظهور الديانة المسيحية واعتناق الإيمان المسيحي لم يحدث أي تغير ديموغرافي في فلسطين، لكن ما حصل فعلاً هو أن بعض اليهود وكثيراً من الوثنيين أصبحوا مسيحيين. لم يغير ذلك من كونهم سكان فلسطين بتغير انتمائهم الديني؛ لم تتغير أعراقهم بتغير معتقدهم، لكن بقي الجليلي جليلياً والسامري سامرياً والكنعاني كنعانياً، كلهم من سكان فلسطين؛ بالمقابل لم يصبح الرومان كنعانيين أو فلسطينيين أو إسرائيليين على الرغم من اعتناقهم المسيحية أو اليهودية أو من بقي منهم على وثنيته، اعتبروا في النهاية رومان غزاة وأجانب مصيرهم الرحيل!

١- العهد القديم سفر إرميا 44: 2.

نلاحظ ابتداءً من سفر إشعيا وما بعده تبني لمفردة (الرب) والإله، وتختفي مفردة (يهوه) داخل الخطاب في تدرج داخل الرواية نحو الاعتناق للإله الواحد، تشابهاً مع التطور الأخناتوني القديم التدريجي نحو مفهوم الإله الواحد، وبقاء الغموض مسيطراً على مفهوم الموت والبعث والقيامة، الأمر الذي يشير إلى تبني التفكير الأخناتوني. ونحن نعلم أن لأخناتون أسبابه بالإبقاء على النمط الشعبي لمحبة أوزيريس إله الأموات، ومحاولة التدرج وفق المعطيات اللاحقة والمستجدة.

لا ذكر للبعث والقيامة والعالم الآخر داخل الرواية الكتابية، باستثناء إشارة غامضة وخجولة وردت في سفر دانيال الذي تهيمن عليه الثقافة الفارسية، والذي يسجل تطابق كبير بينه وبين سفر الرؤيا، حيث تبرز فيه بوضوح الثقافات البابلية والفارسية والرومانية والإغريقية.

حملت قصة الخروج معها الكثير من أوجه التشابه والنمطية بين طرائق العبادة الآتونية والموسوية، وبالمقارنة بين أسفار العهد القديم. ومن سفر التكوين حتى سفر إرميا يظهر بوضوح وجود خطابين لشعبين مختلفين وإلهين غير متشابهين. وكما جاءت ثورة أخناتون الإصلاحية الشابة بمفاهيم جديدة إيمانية، حدث ذلك أيضاً من خلال الأسفار المضافة للتوراة، كما قلنا ابتداءً من سفر إشعيا.

ففي الخطاب القديم ورد في مخاطبة فرعون لموسى وهارون: (۞فَقَالَ فِرْعَوْنُ: «مَنْ هُوَ الرَّبُّ حَتَّى أَسْمَعَ لِقَوْلِهِ فَأُطْلِقَ إِسْرَائِيلَ؟ لاَ أَعْرِفُ الرَّبَّ وَإِسْرَائِيلَ لاَ أُطْلِقُهُ». ۞فَقَالاَ: إِلَهُ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدِ الْتَقَانَا...)[1]. وفي سفر التثنية إقرار ضمني لآلهة ظواهر الطبيعة. وهذا ما أخذه العبرانيون من الآشوريين والفرس والرومان أيضاً: (وَلِئَلا تَرْفَعَ عَيْنَيْكَ إِلى السَّمَاءِ وَتَنْظُرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومَ كُل جُنْدِ السَّمَاءِ التِي قَسَمَهَا الرَّبُّ إِلهُكَ لِجَمِيعِ الشُّعُوبِ التِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ فَتَغْتَرَّ وَتَسْجُدَ لهَا وَتَعْبُدَهَا)[2]، ومن سفر الملوك أيضاً: (۞فَاسْتَشَارَ الْمَلِكُ وَعَمِلَ عِجْلَيْ ذَهَبٍ، وَقَالَ لَهُمْ: [كَثِيرٌ عَلَيْكُمْ أَنْ تَصْعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. هُوَذَا

١- العهد القديم سفر الخروج 5: 2-3.
٢- العهد القديم سفر التثنية 4: 19.

آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ]. ۞وَوَضَعَ وَاحِداً فِي بَيْتِ إِيلَ وَجَعَلَ الآخَرَ فِي دَانَ)[1].

ونقلاً عن العالم أرمان، حيث يصف مشاهدات العالم والمؤرخ التاريخي الإغريقي هيرودس، الملقب بـ (أبي التاريخ)، يقول: (يروي هيرودس الذي زار مصر قرابة عام 450ق.م في قصة رحلته واقعة تصلح فعلاً لتمييز شعب مصر، وتنطوي على محاكاة مذهلة لبعض الخصائص المعروفة عن اليهودية المتأخرة. إنهم من جميع الوجوه أكثر ورعاً وتقوى من سائر البشر الذين تميزهم عنهم أيضاً عادات أخرى: كانوا يمارسون الختان الذي كانوا هم أول من أخذ به لدواعي النظافة، ثم إنهم يشمئزون من الخنازير، وهذا يرجع بالتأكيد إلى ون (ست) الملتبس شكل خنزير أسود، وقد جرح (حوريس)؛ وأخيراً وعلى الأخص تراهم يحلبون الأبقار التي لا يأكلونها البتة ولا يضحونها لأنهم لو فعلوا لأهانوا إيزيس التي لها قرون بقرة، ولهذا يأبى الرجل أو المرأة من المصريين تقبيل يوناني أو استعمال سكينه أو فرشاته أو قدوره، ويأبون أكل لحم بقرة طاهرة ذبحت بسكين يونانية. وكانوا في كبريائهم الضيقة ينظرون من علٍ إلى الشعوب الأخرى التي كانت نجسة وأكثر ابتعاداً منهم عن (الآلهة) - ويتابع التساؤل - وطبيعي أننا ننسى قطعاً هنا المقارنة المستمدة من حياة الهندوسيين. ولنتساءل، بالمناسبة، من أوحى للشاعر اليهودي هنري هايتي في القرن التاسع عشر الميلادي أن يشتكي من دينه بقوله إنه «تلك الآفة الوافدة من وادي النيل، تلك العقيدة الموبوءة لمصر القديمة»)[2].

هذه الشهادة للمؤرخ الإغريقي أشارت وعن غير قصد إلى الانتحال التوراتي الوارد في سفر التكوين: (۞وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ. ۞...يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ ۞فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ... ... ۞وَأَمَّا الذَّكَرُ الأَغْلَفُ الَّذِي لاَ يُخْتَنُ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ فَتُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ شَعْبِهَا. إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ عَهْدِي»)[3]. فإبراهيم ينتمي إلى الآراميين الذين سكنوا وادي الفرات وشرق البحر المتوسط، وعادة الختان لم تكن معروفة في تلك البلاد. وكان المصريون يختنون منذ مئات السنين قبل ولادة إبراهيم. وقد كشفت المومياءات المحنطة

١- العهد القديم سفر الملوك الأول 12: 28-29.
٢- أرمان: دين مصر (الديانة المصرية)، ص 181.
٣- العهد القديم سفر التكوين 17: 9-14.

والمكتشفة بأن الفراعنة كانوا يتبعون عادة الختان، وأن بني إسراءيل في مصر قد اقتبسوا هذه العادات عن المصريين، أو أن إبراهيم الخليل تعلمها وطبقها على أبنائه بعد زيارته إلى مصر، التي كان ينتقل إليها من بادية الشام والفرات والحجاز وفلسطين؛ هذه البلاد التي كان لإبراهيم فيها تجارة وقيادة وعلاقات تجارية وسياسية، وينتقل ما بينها داخل الوطن والانتماء الواحد المشرقي.

عمدت الجماعة العبرانية إلى الإبقاء على ديانتها كديانة محلية خاصة بها ولفترات طويلة، وتبنت دعوات عنصرية وعرقية ربطت ديانتها فيها تحت مسمى (الشعب المقدس). هذا المسمى بنى عليه شعب الرب تبنّيه لدعوة (أرض الميعاد)، فوضعت نفسها في مواجهة شعوب المنطقة برمتها، وأصبحت السمة اليهودية التوحيدية هي سمة وراثية غير هدائية. تطلّب هذا الاعتناق اعتبار الأم غير اليهودية ولادة الأجنبية، واعتبار نسلها ووليدها خارج الجماعة اليهودية. قد يكون هذا الاعتقاد العرقي هو ما دفع بالأحبار والكهنة والكتبة للتنكر لأسنات المصرية زوجة الصديق يوسف وابنتها التي تم تجاهلها، وهذا ما يجعل من أبناء وبنات يوسف من المصريين أصلاً خارج الجماعة العبرية اليهودية.

ربطت الصهيونية المبكرة مصالحها بمصالح الحكام والملوك وبكهنة الطبقة الإقطاعية الحاكمة في أوروبا، ووفرت لها المكاسب والمراباة على حساب شعوبها التي كانت ترزح تحت سياط طبقات الأشراف والكهان الإقطاعية، فربطت مصالحها معها وسيطرت من خلال النفوذ والمال على الكنائس الغربية معظمها، وتم تسويق عبارة السيد المسيح (...مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ)[1] بما يتوافق ومصالح الفئة الكهنوتية اليهودية في اعتماد العهدين القديم والجديد داخل الكتاب المقدس، وأدى ذلك لهيمنة ما هو قديم وفي طريقه للفناء بطغيانه على العهد الجديد وأتباعه ومعتنقيه. ويعبر عن ذلك الباحث اللاهوتي نيل سلبرمان في كتابه (البحث عن إله ووطن) بالقول: (بينت موجة الاستكشاف التي أعقبت غزو نابليون لفلسطين بوضوح مدى ضخامة العمل الذي ينتظر الإنجاز هناك، إذا كانت أورشليم السماوية ستتجلى فعلاً خلال سني الحياة الراهنة).

وجاء كلام أول المستكشفين ليؤكد أدق تفاصيل حالة الفقر والاضطهاد والجهل المطبق التي يعاني منها أهل البلاد، فمن تجب هدايتهم لم يكونوا المسلمين (المتعصبين) واليهود (المتشددين) فقط، بل المسيحيين المحليين، أسرى التعاليم

١- العهد الجديد إنجيل متى 5: 17.

الدوغمائية للكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية. هكذا توضح أن الاستعادة التبشيرية للأرض المقدسة كانت مهمة تتعذر مراوغتها أو الهروب منها، على الرغم من أن أنظار البعثات التبشيرية الإنكليزية كانت تنجذب أكثر فأكثر إلى الحاجات الروحية لكل من الهند وأفريقيا والشرق، حيث طريق إمبراطورية أمتها. وقبل أن يمضي وقت طويل بادرت نظيرتها الدينية في أمريكا إلى قبول التحدي، إذ كانت الجهات الأولى التي أوفدت إليها بعثة مقدسة هي أورشليم الأرضية.

كان أوائل المستوطنين البروريانيين في نيو إنغلاند الذين قطعوا أشجار الغابات الكثيفة واستصلحوا السفوح الصخرية للتلال لتحويلها إلى حقول أو قرى أو بلدات، يعتبرون أنفسهم الخلفاء الحقيقيين لبني إسراءيل، والعالم القديم كان (مصرهم)، في حين كانت البراري الأمريكية الواسعة (أرضهم الموعودة) ولاهوتهم.

كما تمت صياغة أكبر المواعظ الملتهبة لكل من (إنكريز وكورتون ماثر وجون ونثروب ونتائيل وارد)، التي لم تتضمن إلا القليل من الرحمة والشفقة الموجودين في (العهد الجديد): فقد رأوا أن قصة الخروج من مصر والضياع والتيه الذي دام أربعين عاماً، وإلحاق الهزيمة بالكنعانيين، شديد القرب من الوقائع التي كانوا يعيشون في ظلها. والمدن التي أسسوها حملت أسماء (كتابية) مثل: بيت إيل، وحبرون، وكنعان الجديدة، وأريحا، وبيت لحم، وصهيون؛ أما الأسماء التي حملوها هم أورثوها لأبنائهم، مثل: يشوع، وموسى، وجونثيان، وأبييغل، وربكا (رفقة)، وآحاب، وسارة، وراحيل)[1].

بعدما تقدم من قول لسلبرمان، هل يبقى أي شك أو تردد لدى أصحاب نهج التفاوض العبثي والاعتدال والواقعية والانهزام من أن الغرب التوراتي التلمودي والرأسمالي الجشع قد خلق دولة إسرائيل وفق الرؤية اللاهوتية الأيديولوجية والعنصرية التي ينتهجها مبدأً وممارسةً في تعامله مع غير اليهود من العرب مسلمين ومسيحيين؟

العقيدة التوراتية الصهيونية أصبحت موروثة ومتجذرة في أعماق النفسية الغربية الأصولية، وهي مستقاة من صلب الرواية العبرية (للكتاب المقدس)، وتشكل تراثاً وثقافة عنصرية واستعلائية واستيطانية وإباحية تعتبر بمثابة الأيديولوجيا والسياسة المتبناة لكثير من قادة الغرب وساسته ومفكريه ومستشرقيه، ومن الذين ورثوا هذه المعتقدات جيلاً بعد جيل إلا من رحم ربي من الشرفاء والأخلاقيين من

١- نيل سلبرمان - بحثاً عن إله ووطن، ص 60-61.

أصحاب الضمائر الحية لهذه الجماعات التي تضامنت واستنكرت من خلال حملات التضامن والاستنكار التي نظمتها منظمات المجتمع المدني وحقوق الإنسان الغربية لمساندة حركات التحرر الوطني والشعوب المستضعفة والرازحة تحت الاحتلال، ورفض الممارسات اللاأخلاقية لحكوماتها وساستها المتحالفة مع الصهيونية وأنظمة القمع والفصل العنصرية، ومنهم كثير من قادة وسياسيين ومفكرين شرفاء وأصحاب ضمائر حية وإنسانية عبروا عن غضبهم ومعارضتهم لتلك الممارسات العنصرية والفاشية.

أصبح واضحاً أن اختلاق أوروبا الغربية للولايات المتحدة الأمريكية كتابياً يوازي خلق دولة إسرائيل التوراتية، وأن إبادة الهنود الحمر في قارة أمريكا يوازي إبادة الكنعانيين داخل الرواية العبرية، فنظام (القطب الواحد) والقوة الطاغية الاستيطانية يتفق ويتوازى مع خلق إسراءيل الجديدة وتفوقها العسكري المطلق، ونقاء شعب الرب (بيهودية الدولة). ومن يراهن على تغيير في سياسة العدوان والهيمنة الأمريكية نتيجةً لتغيير في قيادتها ستثبت له الأيام خطأ اعتقاده وخيبة ظنه، فالقرآن الكريم واضح في هذا الشأن ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

هذا الفريق المُحرّف لكلام الله بعد ما عقله بالبرهان واليقين والعلم، هو نفسه وورثته اليوم المتحكمين بالقرار السياسي والأصولي للإرادة الأمريكية المتصهينة ومؤسساتها المختلفة، والمؤسسات الفاسدة بغزواتها ونزواتها الاستكبارية الإرهابية وإفسادها للعالم. نشاهد اليوم هذا الإرهابي «الرئيس بوش» المتربع على عرش الإمبراطورية الأمريكية في خبر عاجل على فضائية الجزيرة وهو يتلقى الإهانة والضربات على رأسه بحذاء صحفي عراقي حرّ في مؤتمر صحفي في بغداد، التي دخل إليها بوش متسللاً مذعوراً محاطاً بأتباعه وعملائه الذين قدموا على ظهور دباباته مهللين له ولاحتلاله الهمجي لوطنهم وتدميره له وقتله لعلمائه ومثقفيه. هذا الحذاء العراقي الذي ينهي ولاية بوش وإرهابه يعبر عن إرادة الأمة بإخراج المحتل مدحوراً.

إنَّ نقض العهود والمواثيق ثقافة وعقيدة استقاها الغرب وساسته من نص الرواية التوراتية ونصوصها العدائية.

١- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 75.

جاء في العهد القديم: (فَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي حَتَّى تُقَدِّسَانِي أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيل لِذَلِكَ لا تُدْخِلانِ هَذِهِ الجَمَاعَةَ إِلى الأَرْضِ التِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا»)[1]. شكلت هذه العبارة المقدمة الأولى لتبرير اضطهاد موسى والانقلاب على ميثاقه، ثم قتله الذي كان يشعر به، حيث خاطبهم بقوله: (۞خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَاةِ هَذَا وَضَعُوهُ بِجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِداً عَلَيْكُمْ. ۞لأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمُ الصُّلبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ حَيٌّ مَعَكُمُ اليَوْمَ قَدْ صِرْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ فَكَمْ بِالحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي!)[2].

المشاعر والأحاسيس التي انتابت موسى، وهو النبي كليم الله، تم التخطيط لها وبرمجتها في تغيير لكلام الله عن مواضعه (أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي) (لا تُدْخِلانِ هَذِهِ الجَمَاعَةَ)؛ هنا خُطِطَ مسبقاً لتقديم الأعذار وطمس ما جاء حقيقةً داخل الرواية التوراتية: (۞وَصَعِدَ مُوسَى مِنْ عَرَبَاتِ مُوآبَ إِلى جَبَلِ نَبُو إِلى رَأْسِ الفِسْجَةِ الذِي قُبَالَةَ أَرِيحَا... ... ... ۞وَقَال لهُ الرَّبُّ: «هَذِهِ هِيَ الأَرْضُ التِي أَقْسَمْتُ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ قَائِلاً: لِنَسْلِكَ أُعْطِيهَا. قَدْ أَرَيْتُكَ إِيَّاهَا بِعَيْنَيْكَ وَلكِنَّكَ إِلى هُنَاكَ لا تَعْبُرُ». ۞فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. ۞وَدَفَنَهُ فِي الجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ مُقَابِل بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلى هَذَا اليَوْمِ)[3]

صعد موسى الجبل ولم يعد، فأراه الرب الأرض كلها (وهنا بيت القصيد من القصة)، ثم أماته ودفنه هناك! والتساؤل هنا: من هو الذي كلمه الله وأخبره بعد موت موسى، إذا كان موسى قد صعد الجبل وحيداً ومات هناك بمفرده؟

هل كان يوشع مع موسى يرافقه بسيفه، وأصعده إلى هناك وعاد وحيداً ليخبر القوم بموته؟

الإله العادل الرحيم لا يدعو للقتل والحرق والإبادة لخلقه أطفالاً ونساءً وشيوخاً وبهائم، كما ادّعت الرواية التوراتية، لكن هذه الخرافة المدّعاة متواجدة

١- العهد القديم سفر العدد 20: 12.
٢- العهد القديم سفر التثنية 31: 26-27.
٣- العهد القديم سفر التثنية 34: 1-6.

فقط داخل العقلية اليهودية العبرية الصهيونية المسكونة بإرادة قابيل بقتل أخيه هابيل ظلماً وحسداً وغدراً.

على الذين يتخذون من الكتاب المقدس بشقيه العهد القديم والجديد منهاجاً وعقيدة أن يتدارسوا ما جاء في رسالة النبي العظيم عيسى (**صلى الله عليه وسلم**)، وما يتضمنه العهد الجديد من سلام ومحبة وأممية وفضيلة وأخلاق إيمانية تتناقض كلياً ودعاوى القصة العبرانية المسيسة، كما هو في العهد الجديد (❁كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الإِلَهِيَّةَ قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى، بِمَعْرِفَةِ الَّذِي دَعَانَا بِالْمَجْدِ وَالْفَضِيلَةِ، ❁اللَّذَيْنِ بِهِمَا قَدْ وَهَبَ لَنَا الْمَوَاعِيدَ الْعُظْمَى وَالثَّمِينَةَ لِكَيْ تَصِيرُوا بِهَا شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلَهِيَّةِ، هَارِبِينَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي فِي الْعَالَمِ بِالشَّهْوَةِ. ❁وَلِهَذَا عَيْنِهِ وَأَنْتُمْ بَاذِلُونَ كُلَّ اجْتِهَادٍ قَدِّمُوا فِي إِيمَانِكُمْ فَضِيلَةً، وَفِي الْفَضِيلَةِ مَعْرِفَةً، ❁وَفِي الْمَعْرِفَةِ تَعَفُّفاً، وَفِي التَّعَفُّفِ صَبْراً، وَفِي الصَّبْرِ تَقْوَى، ❁وَفِي التَّقْوَى مَوَدَّةً أَخَوِيَّةً، وَفِي الْمَوَدَّةِ الأَخَوِيَّةِ مَحَبَّةً)[1]

١- العهد الجديد رسالة بطرس الرسول الثانية 1: 3-7.

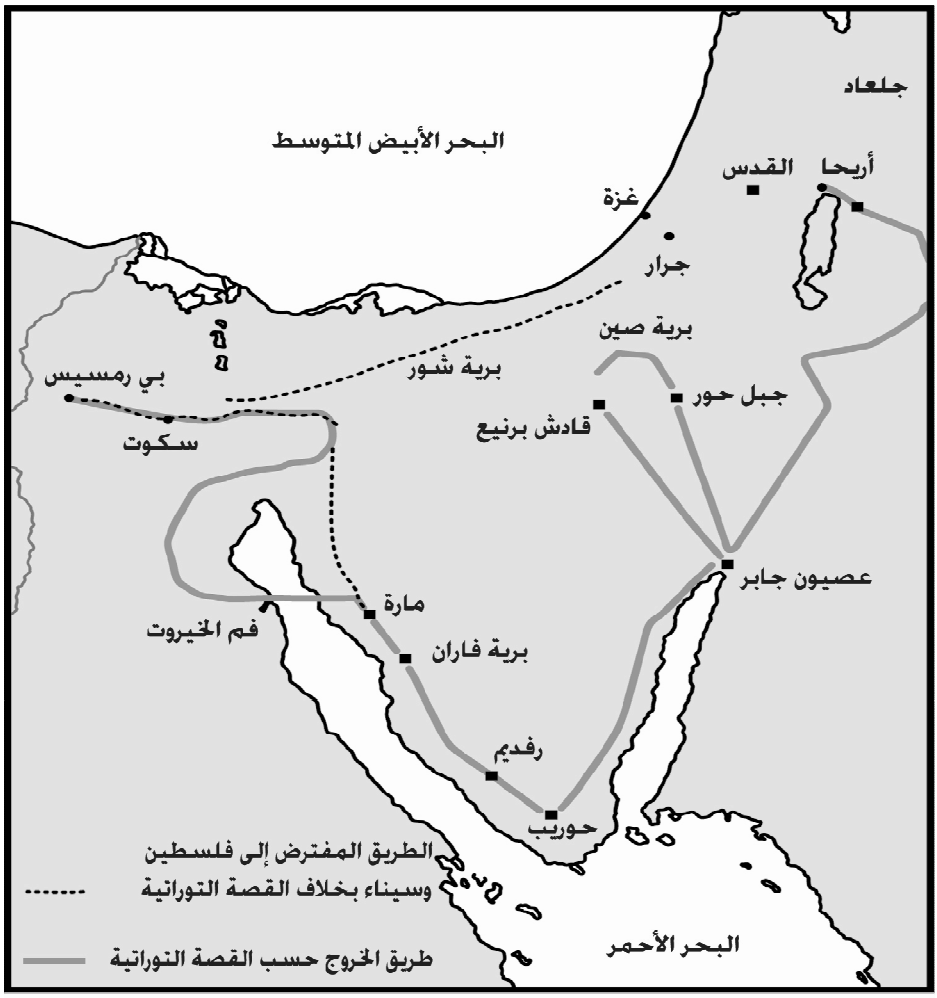

الشكل (2)

هذه الفضائل والقيم الإنسانية العظيمة أرسى دعائمها النبي الكريم عيسى عليه السلام، والتي جاءت مناقضةً لما جاء به أحبار وكهنة اليهود الساعين إلى تشكيل المملكة الأرضية، والتي تتعارض مع مملكة السماء ذات الثواب والعقاب والقيامة والحياة الأبدية التي تنفيها رواية العهد القديم، والتي بشر بها العهد القديم نفسه بالنبي المبشر بقدوم المخلص الذي يرد قلوب الأبناء والآباء ويجمعهم على الطريق الإلهي القويم. كان أولئك الأحبار والكهنة ورجال الهيكل أول المتنكرين لهذه البشارة المسيحية وأول من حاربها. ويقول العالم إسلين:

(ستبنى جميع الآمال اللاحقة بقدوم المسيح المنتظر. وفي أواخر السبي البابلي على وجه التحديد شرع اليهود يعقدون الرجاء على فكرة أن النبي الذي قتلوه غيلة وبسفالة لا تضارعها سفالة سيبعث من بين الأموات وسيقود شعبه التائب، وربما

شعوباً أخرى غيره إلى مملكة الهناء الأبدي الذي سيقدر في زمن لاحق لمؤسس آخر للدين)[1].

وجاء في القرآن الكريم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[2].

قبل ختام هذا الفصل وقصة الخروج لا بد لي من لفت نظر القارئ الكريم إلى الملاحظات المهمة التالية:

1- أورد العهد القديم قصة غرق الفرعون، واختتمها ضمن النص التوراتي التالي: (۞فَرَجَعَ الْمَاءُ وَغَطَّى مَرْكَبَاتِ وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الَّذِي دَخَلَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ. لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ وَلاَ وَاحِدٌ. ۞وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشُوا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ. ۞فَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ. وَنَظَرَ إِسْرَائِيلُ الْمِصْرِيِّينَ أَمْوَاتاً عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. ۞وَرَأَى إِسْرَائِيلُ الْفِعْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ بِالْمِصْرِيِّينَ. فَخَافَ الشَّعْبُ الرَّبَّ وَآمَنُوا بِالرَّبِّ وَبِعَبْدِهِ مُوسَى)[3].

- نلاحظ من خلال النص التوراتي أن بني إسراءيل قد شاهدوا بأنفسهم غرق الفرعون وجنوده، كما شاهدوهم أيضاً جثثاً على شاطئ البحر. وكان ذلك جنوب بحيرة المنزلة المتداخلة مياهها مع مياه الفرع البلوظي أحد فروع نهر النيل في الدلتا، والذي يصب في البحر الأبيض المتوسط وتخلط مياهه بمياه البحر).

وهناك أمعنوا النظر وأنشدوا نشيداً أيضاً (...«رَنِّمُوا لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ! الْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ طَرَحَهُمَا فِي الْبَحْرِ!»)[4]. وهم حتماً، ومعهم النبي موسى وهارون أخيه (عليهما السلام) يعرفون تماماً مضطهدهم الفرعون، لم تتطرق الرواية الكتابية العبرية إلى جثة الفرعون، علماً أن الخارجين يعلمون تماماً أن المصريين يحنطون جثث موتاهم، لا سيما الملوك

١- إسلين : موسى وأهميته في تاريخ الدين الإسرائيلي اليهودي، ط 1922.
٢- القرآن الكريم سورة الشورى الآية 13.
٣- العهد القديم سفر الخروج 14: 28-31.
٤- العهد القديم سفر الخروج 15: 21.

والأمراء والقادة والكهنة، وأخبار نجاة جثة الفرعون لا بد أن تصل إلى مسامع بني إسراءيل وموسى (صلى الله علبه وسلم)، فلماذا تم التنكر والتجاهل لهذا الحدث المهم داخل النص التوراتي؟

هل كان التطرق لهذا الخبر على أهميته سيطيح بالرواية التوراتية لقصة الخروج وعبور البحر الأحمر برمتها، حيث يجب التطرق هنا إلى مكان العبور الصحيح الذي يخالف الانتحال التوراتي بعبور البحر الأحمر؟

2- أورد القرآن الكريم قصة غرق فرعون الخروج، وختمها ضمن النص التالي: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ۞ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ۞﴾[1].

بما أن التوراة التي بين أيدينا يفترض بها أن تكون وحياً وكلمة الله، كان من المفترض بها أيضاً ألا تتناقض أو تغفل هذه الحادثة المهمة: نجاة فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية. ومن المعروف أن بني إسراءيل قد عاصروا الحدث، وما بعد الحدث، وبقي من بقي منهم في مصر.

يأتي القرآن الكريم الموحى به إلهياً إلى النبي محمد (صلى الله علبه وسلم، وهو العربي الأمي الذي لم يكن ليعلم أن الفرعون قد نجا ببدنه، وأنه قد حنط، وأن جثته ستكتشف. وقد اكتشفت جثة فرعون الخروج عام 1898م؛ أي بعد أكثر من ألف وثلاثمئة عام من تنزيل القرآن الكريم الذي ذكر نجاة الفرعون ببدنه ليكون للناس آية من بعده، كما هو الحال اليوم. هذا الاكتشاف والتدقيق العلمي استخدمت فيه أحدث الأجهزة والمخابر المتطورة العلمية الدقيقة ومبادئ العلوم الأثرية والحواسيب الحديثة في فرنسا أثناء زيارة مومياء هذا الفرعون: رمسيس الثاني، إلى باريس. وقد استقبلت المومياء الملكية بمراسيم رئاسية من قبل الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران. وتم الكشف والوصف الطبي الشرعي لذراعي الفرعون وما شابها من كسور نتيجة الارتطام بالماء وهو يمتطي جواده ويحمل سيفه وترسه، وكيف أن ذراعه المكسورة قد عادت لوضعها

١- القرآن الكريم سورة يونس الآيات 90-92.

الطبيعي بعد فك الأربطة عنها. ذكر القرآن الكريم قصة الفرعون ونجاة جثته المحنطة لتكون للناس آية في عصرنا، هذا بعد أكثر من ألفي عام من تجاهل الرواية التوراتية التي بين أيدينا لهذا الحدث وهذه الآية!

أعلن العالم والبروفسور الفرنسي موريس بوكاي إسلامه بعد معاينته لمومياء الفرعون ومراجعته للكتاب المقدس والقرآن معاً. وبعد اطّلاعه على الآية القرآنية المذكورة، وقف ليعلن أن هذا الكتاب الذي تنزل على الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم يتوافق تماماً مع كل العلوم والمكتشفات العلمية الحديثة، وهو مطابق لها تماماً، ذلك في كتابه الشهير (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم)، الذي استغرق في تأليفه عشر سنوات، ونفذت في أوروبا وأمريكا عشرات الآلاف من نسخه.

- ويقول في كتابه: (لقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بمعطيات العلم طوال الزمن موضع تفكير الإنسان. وتوافق الكتب والعلم كان عنصراً ضرورياً لأصالة النصوص المقدسة. وقد لوحظ مع تطور المعرفة وجود اختلافات بين نص التوراة والعلم، فتقرر عدم المقابلة بينهما. ويجب الاعتراف أنه بهذه الطريقة برز في أيامنا وضع خطير، هو تصادم العلماء وشرح التوراة، لأنه لا يمكن القبول بالواقع بأن يكون الوحي الإلهي متكلماً عن شيء غير صحيح، ولم يكن من بد من التوفيق المنطقي وإبطال كل مقطع من الكتاب التوراتي يتحدث عن أمر غير مقبول علمياً). ويقول الكاتب وليد مدفعي عن الكتاب: (أعاد الكتاب تقييم التوراة والإنجيل والقرآن والحديث الشريف وبحث عن تواريخ تدوينها، وعن مدى تدخل مدونيها على اختلاف النسخ، واختلاف كل الآراء، وكشف عن التزوير الذي قام به اليهود في التوراة لصالحهم، كفكرة سياسية لا كفكرة دينية موسوية، وبين أيضاً سعة الشقة بين الأناجيل، وأوضح مقدار التحريف الذي أدخله بولص في الديانة المسيحية، وأقر بعدم وجود أي تحريف في القرآن)[1].

١- (من التوحيد إلى الأسطورة) وليد مدفعي ص 51-52 نقلاً عن كتاب العالم موريس بوكاي (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) الصادر في باريس.

العالم الفرنسي موريس بوكاي

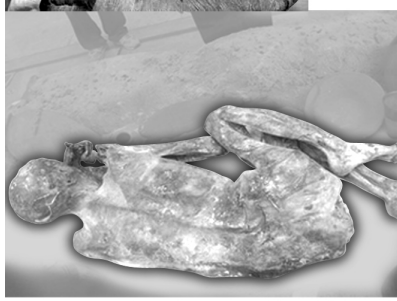

مومياء فرعون الخروج المكتشفة عام 1898م والتي تم فحصها في فرنسا على يد العالم الفرنسي الشهير موريس بوكاي في سبعينيات القرن الماضي في باريس.

الحصار، الجدار، الأسوار، الانعزال

منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية في النصف الأول من القرن الماضي وأوروبا الغربية شعوباً وحكومات مختلفة ومنظمات مدنية وحقوقية وساسة ومفكرين، يعملون جاهدين على إزالة العوائق والحواجز والجدران والحدود التي تفصل بين الدول الأوروبية والتي تشكل عائقاً أمام وحدتها وتكاملها السياسي والاقتصادي والثقافي، رغم الفوارق الكبيرة التي بينها: كالفوارق القومية والعرقية والأديان والمذاهب المتعددة والمختلفة التي تسود مجتمعاتها وشعوبها، والتي كانت تعيق التكامل الاقتصادي والسياسي والعلمي فيما بينها. وكان في مقدمة هذه الإجراءات رفع الحواجز الجمركية والتجارية، وهدم جدار برلين وتوحيد ألمانيا، وإزالة الحواجز الحدودية وصولاً إلى منظومة الاتحاد والبرلمان الأوروبي التي هي عليه اليوم.

كانت أمريكا السباقة في توحيد الولايات الأمريكية قبل ما يقرب من قرنين من الزمان على إنشاء الوحدة الأوروبية. كما تبنّت الإدارات الأمريكية المتعاقبة، لا سيما بعد انتهاء حقبة الحرب الباردة، الدعوة لنظريات العولمة وعالم القطب الواحد الجديد، والانفتاح الذي يدعو إلى إزالة الحواجز الجمركية، بما سمي (منظمة التجارة الحرة) والتبادل التجاري والثقافي والفضاء المفتوح.

قد تبدو المبادئ والأهداف المعلنة لهذا الانفتاح حضارية وثورية في ظاهرها، إلا أنها على أرض الواقع والممارسة ثقافة إمبريالية حملت معها غزواً ثقافياً وهيمنة اقتصادية وعسكرية للقطب الواحد، الذي تبنى أهدافاً ونوايا عدوانية وأيديولوجية استعلائية وتمييز عرقي وفوقية على الشعوب الأخرى، تقوده رأسمالية متوحشة ذات معايير مزدوجة لا أخلاقية وغير إنسانية، حملت معها غطرسة وعربدة عسكرية وطغياناً لنظام جائر وعنصري (القطب الواحد)، الذي أصبح نظاماً تبشيرياً لديمقراطية مدعاة مشبوهة وإرهابية تحمل في باطنها وظاهرها معايير مزدوجة مكشوفة. هذا ما دفع بالعديد من الكيانات النامية والصغيرة للالتحاق أو الانضمام إلى الأحلاف العسكرية والتجمعات الإقليمية وبروز سياسة المحاور الدولية، لتتحول بعض هذه الدول والحكومات تلقائياً إلى

تابع أو حليف في ظل نظام دولي جائر يسيطر على إرادة وقرارات المنظمات الدولية، الأمر الذي جعل منها سلطة تابعة تنحصر قراراتها في خدمة السياسات الإمبريالية والأحادية. وقام بتحويلها مؤخراً إلى سلطات قمعية استبدادية وتبريرية تفرض نيابة عن الدول الكبرى على الشعوب المستضعفة عقوبات جماعية وحصارات اقتصادية وغطاءً شرعياً لإبادة جماعية وجرائم وحشية وعدوان على السيادة الوطنية والكرامة الإنسانية.

هذه التحالفات، وما سمي (قوات التحالف شكلاً) في العراق وأفغانستان، سوف تتساقط تباعاً تحت تأثير الظروف القتالية وانهيار سلطات الطغيان والاستكبار التي أوجدتها وأفرزت تحالفاً معها، نتيجةً لوعي الشعوب ولمقاومتها وضرباتها للغزاة المحتلين والمتحالفين، كما حدث ويحدث الآن في انفراط التحالف الهش الذي يحتل العراق وأفغانستان.

المقاومة الباسلة للقوى الاستكبارية عجلت في تفاقم الأزمة المالية العالمية للنظام الرأسمالي الإمبريالي الربوي، والذي يحمل في تكوينه أسباب انهياره وسقوطه الذاتية، وهو يستجدي الآن تابعيه وحلفاءه لنجدته مالياً في محاولة لإبقائه على قيد الحياة، وهو يواجه النزع الأخير، كنتيجة طبيعية لتوحشه وممارساته العدوانية وجرائمه المرتكبة بحق الشعوب الأخرى وعنصريته المفرطة، وتلموديته المقيتة.

النظام الاستعماري الربوي التلمودي الذي يستتر بالديمقراطية والعلمانية وفصل الدين عن الدولة، ويدّعي نظام دولة المؤسسات، هو نظام الحرباء التي تغيّر لون جلدها بحسب حاجتها ومواكبتها لطبيعة الأجواء التي تتواجد وتعيش فيها، وذلك عندما يتبنى العلمانية ويشكل تحالفاً عسكرياً لمحاربة الأصولية، ويحارب من ينادي ويدعو إلى إسلامية الدولة في أفغانستان، ويشن حروبه وعدوانه على شعبها وقادتها من حركة طالبان الأفغانية، بغض النظر عن رأينا فيها؛ هو الحرباء الأمريكية نفسها التي تقود التحالف الغربي الذي ينادي من خلال مؤتمر أنابوليس الصهيوني وما بعده بيهودية الدولة وعنصريتها الصهيونية التوراتية في فلسطين؛ هذه الأيديولوجية التي يستنكرها ويرفضها ويحاربها في أفغانستان وإيران وغيرها من الدول الإسلامية!

ويدعم الغرب إزالة الحواجز وهدم الأسوار والجدران حينما يتعلق الأمر بقوة الغرب وسيطرته وهيمنته ووحدته، لكنه يدعم أيضاً إقامة الحواجز والأسوار والجدران الفاصلة والحدود المصطنعة والتقسيم ونظام الفيدراليات الطائفية والعرقية حينما يتعلق الأمر بالعرب والمسلمين، كما هو الحال في فلسطين والعراق!

موضوعنا الرئيس في هذا الفصل هو (الجدار والأسوار والانعزال). والهدف منه تسليط الضوء على الممارسات الغربية الصهيوأمريكية المدعومة بنظم التسلط الاستعمارية لبناء جدار الفصل العنصري وتقطيع أوصال الضفة الغربية والقدس والأراضي العربية المحتلة، وإقامة الحواجز وفرض الحصار والعقوبات الجماعية.

هذه الممارسات تلقى الدعم والتأييد والمساندة من حكومات وساسة دول الغرب الاستعمارية المتصهينة، حيث تتصادف كتابة هذا الفصل من الكتاب مع تشديد الحصار والعقوبات الجماعية وبدء عمليات القصف الجوي على غزة المحاصرة، وارتكاب القوات الصهيونية المدعومة غربياً لمحرقة بشعة نازية؛ إنه عمل وحشي يعد جريمة حرب من الدرجة الأولى، تعود بنا جذورها إلى ما تم تحريفه وتدوينه داخل الكتاب المقدس العهد القديم العبري ونصوص الرواية الكتابية التي تحمّل الأوامر الإلهية المدسوسة مسؤولية إبادة الشعوب الكنعانية والعمورية والعمونية والمؤابية والأدومية، وكأن التاريخ الإجرامي الوحشي العبري هنا يعيد نفسه، لكن هذه المرة على مسمع ومرأى من أمم وشعوب تدّعي الحضارة والأخلاق الإنسانية. والفضل في ذلك لثورة الاتصالات التي تتيح للعالم (من عرب وغربيين مسلمين ومسيحيين ويهود) رؤية ما يحدث في فلسطين، وبالتالي يضع الجميع شاؤوا أم أبوا أمام مسؤوليات كبيرة من المفترض أن تمنع استمرار هذه الكارثة.

نبدأ البحث هنا بالسؤال التالي:

- هل إجراءات وممارسات الحظر والحصار وبناء الجدار والحواجز والأسوار إجراء نابع من ضرورات أمنية صهيونية أملتها ظروف موضوعية آنية لا تلبث أن تنتهي، فيتوقف هذا الإجراء (الحصار، والحظر، والتجويع، وبناء جدار الفصل العنصري، وإقامة الحواجز العسكرية، والعقوبات الجماعية) بمجرد انتهاء الأسباب والظروف التي أملتها عليها هذه الإجراءات؟ أم هي عقيدة وثقافة وسلوك متأصل وعميق الجذور في صلب العقلية الفكرية وتركيب الشخصية للجماعة العبرانية اليهودية؟

وهل اتباع الأسلوب والمنهج ذاتهما بحق كوبا والعراق والسودان وإيران وكوريا الشمالية (وقانون محاسبة سوريا) (وتصنيف الدول بمحور الشر) من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، هو بمثابة الأيديولوجيا والاعتناق اللاهوتي لهذه الممارسات المتبناة منهاجاً وسلوكاً، مرتبطاً بالعقيدة التوراتية والتلمودية ضمن قصص (الكتاب المقدس). لذلك أصبحت هذه الممارسات بحق الآخر غير الأنكلوساكسوصهيوني بمثابة موقف يشابه موقف (الشعب المختار التوراتي) المزعوم بحق (الغويم) الشعوب الأجنبية، التي خرجت من رحمة الرب بعهد مع

الإلـه العبـري، الـذي حصـر العدالـة والحيـاة والحقـوق بشـعبه المختـار علـى جبـل سيناء، حيث اعتبرت الشعوب الأخرى دونية ومسخرة للذلة والعبودية!

من هذه المبـادئ التوراتيـة الصـهيونية يستمد بعض أقطـاب النظـام الغربـي المنافق سلوكياتهم ومبرراتهم وحقدهم علـى العرب والمسلمين. ومـن هذه العقيدة العنصـرية الموبـوءة بالشر والعدوان تتبنـى الـدول الغربيـة مواقف الـدعم المطلق واللامحدود لنظام الفصل العنصري الصـهيوني، بإمداده بكل أسباب الحيـاة والبقـاء والقوة والدعم السياسي والأسلحة المتطورة، بما فيها المفاعلات والأسلحة النوويـة كـ (فرنسـا وبريطانيـا)، فـي وقت تتبجح فيـه هذه الـدول بحرصـها علـى الحد من انتشار الأسلحة النووية، لا سيما عندما يتعلق الأمر بـإيران الإسـلامية، معتمدين علـى معـايير مزدوجـة. لا يخفـي أصـحاب هـذا الـنهج عنصـريتهم وتلمـوديتهم، فإسرائيل دولة حضارية غربية يهودية حليفة تجمع شتات (شعب الرب)، وذات قيم غربية صهيومسيحية؛ بينما إيران دولة للمسلمين الكفار (السارزن) لا تقارن بدولة اليهود، وهي دولة مارقة (محور الشر) ومعادية للطموحات الاستعمارية!

ببساطة هكذا، وبوقاحة تتشدَّق الدول المدعية للديمقراطية وحقوق الإنسان والحيوان الغربية، وتجاريها في ذلك بعض الدول والأنظمة العربية التابعة لها سياسياً!

تتخلى حكومات الغرب الديمقراطية عن حرية شعوبها وحقها بالتعبير، أو الاستنكار والتضـامن الإنسـاني، حينمـا يتعلـق هـذا الاسـتنكار والتنديـد بإسـرائيل والصهيونية. وتتنكر هذه الدول لديمقراطيتها، وتقمع تحركات شعوبها الأخلاقيـة والإنسـانية الحـرة، وتصـادر حريـة كتابهـا ومفكريهـا والأحـرار مـن ساسـتها، إذا ما تعارضت هذه الأنشطة مع مصلحة الصهيونية والإمبريالية الأمريكية، وتتحول فجأة إلى حكومات قمعية لا ديمقراطية تمارس أعلى وأقسى درجات التطاول على القوانين بتطرف وأصولية لاهوتية.

مـرة أخـرى أنـاقش فـي هـذا البحـث مـن خـلال روايـة (الكتـاب المقـدس) العبري، كما وردت على الرغم من عدم إيماني بها بشكلها الذي حرفت بـه، ومن قناعاتي الراسخة أن هذا الكتـاب لا يشكل (كلمـة الله المقدسـة)، ولـيس هـو بكاملـه التوراة الهدائية التي نزلت على النبي موسـى (صـلى الله علبـه وسـلم)؛ ومـن المنطق الذي لا يخلو من تشريع للسلب والنهب، ويخالف مخالفة صـريحة وصـايا الرب العشر (لاتسرق، لا...)؛ ومـن سفر يوشـع المدون (وَأَعْطَيْتُكُمْ أَرْضـاً لَـمْ تَتْعَبُوا عَلَيْهَا وَمُدُناً لَمْ تَبْنُوهَا وَتَسْكُنُونَ بِهَا، وَمِنْ كُرُومٍ وَزَيْتُونٍ لَمْ تَغْرِسُوهَا

تَأْكُلُونَ)[1]. وتتشابه القصة واعتناقها هنا بين قصة غزو كنعان الكتابية وبين غزو القارة الأمريكية وإبادة سكانها من الهنود الحمر، وفي هذا الانتحال تلاعب وتبديل وتحريف لا لبس فيه لإرادة وطبيعة الإله الواحد الذي يدعو للحق والعدل والمساواة والهداية ونظام الأخلاق والمحبة والإنسانية.

العبارات المدونة داخل الكتاب العبري التي شكلت وتشكل جذور وحضارة الثقافة الغربية الحضارية اللطيفة، كما يدّعى، هي المعيار والمنطلق الاستعلائي الذي تعامل به الشعوب الأخرى غير التوراتية والموروث عن دفائن النفسية الصهيويهودية. وسأحاول تفنيد بعض ما جاء فيه، وبعض أسباب هذه العدوانية (فَدَفَعَهَا الرَّبُّ هِيَ أَيْضاً بِيَدِ إِسْرَائِيلَ مَعَ مَلِكِهَا، فَضَرَبَهَا بِحَدِّ السَّيْفِ وَكُلَّ نَفْسٍ بِهَا. لَمْ يُبْقِ بِهَا شَارِداً...)[2]، وفي سفر يشوع المنتحل أيضاً (۞فَضَرَبَ يَشُوعُ كُلَّ أَرْضِ الْجَبَلِ وَالْجَنُوبِ وَالسَّهْلِ وَالسُّفُوحِ وَكُلَّ مُلُوكِهَا. لَمْ يُبْقِ شَارِداً، بَلْ حَرَّمَ كُلَّ نَسَمَةٍ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ. ۞فَضَرَبَهُمْ يَشُوعُ مِنْ قَادِشِ بَرْنِيعَ إِلَى غَزَّةَ وَجَمِيعَ أَرْضِ جُوشِنَ إِلَى جِبْعُونَ. ۞وَأَخَذَ يَشُوعُ جَمِيعَ أُولَئِكَ الْمُلُوكِ وَأَرْضِهِمْ دُفْعَةً وَاحِدَةً، لأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ حَارَبَ عَنْ إِسْرَائِيلَ)[3].

لنرى هنا هذا الإله الذي حارب عن إسرائيل، فقتل وأباد وسلب ونهب وغزا واحتل، وهو ذاته الإله الذي أمر الرئيس بوش وإداراته المتعاقبة باحتلال أفغانستان والعراق وجنوب لبنان وفلسطين والجولان، وهو الإله ذاته أيضاً الذي أقسم له أن يضرب رأسه بحذاء صحفي عراقي، على مشهد من العالم.

مع إله العبرانيين أيضاً، ومما جاء في سفر يشوع (وَضَرَبُوا كُلَّ نَفْسٍ بِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ. حَرَّمُوهُمْ. وَلَمْ تَبْقَ نَسَمَةٌ. وَأَحْرَقَ حَاصُورَ بِالنَّارِ)[4]، ويشوع أيضاً (لأَنَّهُ كَانَ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ أَنْ يُشَدِّدَ قُلُوبَهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا إِسْرَائِيلَ لِلْمُحَارَبَةِ فَيُحَرَّمُوا[5] فَلاَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ رَأْفَةٌ، بَلْ يُبَادُونَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى)[6]. هكذا هو الحال الآن مع الشعب الفلسطيني والعراقي في مواجهة إسرائيل وأمريكا لا يرحمون شعب هذه المنطقة، ويقومون باستئصاله من أرضه ولا حقوق له، بل يكافئونه بالإبادة الجماعية، كما تفعل إسرائيل في غزة، وأمريكا في العراق!

١- العهد القديم سفر يشوع 24: 13.
٢- العهد القديم سفر يشوع 10: 30.
٣- العهد القديم سفر يشوع 10: 40-42.
٤- العهد القديم سفر يشوع 11: 11.
٥- فيحرموا: أي يبادوا بالسيف أو بالحرق جميعهم.
٦- العهد القديم سفر يشوع 11: 20.

إنه غيض من فيض مما احتوته رواية الكتاب العبري المقدس من قتل وإبادة وحصار ودمار وتجويع وسلب ونهب، هذه الموبقات سواءً دست في الرواية دساً أم ارتكبت فعلاً، هي بالتأكيد ليست من وصايا موسى العشر التي أُنزِلَت عليه من الله الإله الحق، والتي قُتِل لأجلها على أيديهم غيلةً وغدراً كما نعتقد!

هذا المنطق اللا إلهي البغيض يدعو معتنقيه ومؤيديه من الأغبياء إلى إغلاق كل أبواب الرجوع والتوبة والتطلع لله الواحد أو التصالح مع الذات والغير، ويدفع قسراً إلى انتهاج أسلوب الانعزال والانطواء والتمترس خلف الجدران والأسوار، والتربص بالآخر واعتباره عدواً متربصاً أو شرطياً يبحث عن مجرم، فلا بد من العيش على حد السيف (إما أن تقتلني أو أقتلك). ولسان حال المؤمنين هنا من العرب والفلسطينيين كلسان حال هابيل الصديق في مواجهة حسد وغدر أخيه المجرم قابيل؛ من القرآن الكريم: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

العقلية القابيلية اليهودية الصهيونية التي ورثتها وأورثتها تلك الادّعاءات الإجرامية الفاسدة الحاقدة التي انتهجتها واتخذت منها منهاجاً وسلوكاً تجذر في أعماق نفسيتها وتركيبها، وأصبحت أساساً لثقافتها وممارساتها مع من اعتنقها من الجماعة المتصهينة، التي يطلق عليها تلطيفاً (المحافظون الجدد)، الذين يرتكبون اليوم الموبقات والأعمال العدوانية الشاذة ذاتها، لكن بأساليب أكثر عدوانية وتطور وحداثة وعنجهية بحق الشعوب الأخرى والأمم غير الصهيومسيحية ولا (البروريانيين) غزاة أمريكا الأوائل أصحاب هذا المذهب الصهيوني اليهودي، والذين اعتادوا وبحكم العقيدة الدينية المنغلقة على ذاتها الانعزال والانطواء داخل مجتمعات منعزلة خاصة بهم (كانتونات) داخل أوطانهم وبين مواطنيهم غير اليهود، الذين يتكلمون لغاتهم، ويحملون جنسياتهم وثقافتهم، ويشاركونهم مواطنيتهم، أولئك اليهود الأوروبيون الانطوائيون مكنتهم الإمبريالية الغربية من التجمع (والاقتحام) في أرض لا تربطهم بها أي رابطة قومية أو ثقافية أو عرقية، لكنها ستشكل للغرب قاعدة استيطانية عدوانية تحقق له حماية مصالحه وحرية العبور إلى مستعمراته، وتكون قوة طاغية تضمن له تدفق النفط والمواد الخام المنهوبة إلى بلدانه.

لكن هل اندمج أولئك المهاجرون والمستوطنون داخل المجتمعات التي دخلوها غرباء، كما دخل بنو إسراءيل إلى كنعان (فلسطين) حسب الرواية التوراتية، أم أنهم شكلوا هنا كياناً عنصرياً على حساب مضيفيهم من السكان

١- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 28.

الشرعيين، الذين دخلوا إلى أراضيهم وعملوا على طردهم وتهجيرهم وإبادتهم، في تكرار للأسطورة التوراتية، فهم لم يتطلعوا للعيش في موطنهم الجديد في دولة جديدة وعصرية تقوم على المواطنة ومبادئ العدل والشرعية، لتكون هذه الدولة الجديدة التي احتضنتهم واستوعبتهم دولة الحاضر والمستقبل، لكنهم مارسوا بحقد الممارسات الغربية النازية ذاتها التي ارتكبت بحقهم فيما مضى: المحرقة (الهولوكوست)[1].

هذه الممارسات العنصرية والإبادة الجماعية تعرض ويتعرض لها حتى اليوم الشعب الفلسطيني، الذي لم يكن مسؤولاً لا من قريب ولا من بعيد عما حصل لليهود الغربيين من إبادة ومحرقة بشعة على يد الإمبريالية الغربية النازية.

وثمة سؤال أطرحه هنا: هل ستستطيع هذه الجالية الغربية[2] اليهودية تشكيل دولة تقوم على أسس توراتية وتلمودية صهيونية في محيط حضاري مختلف الأعراق والأديان والمذاهب والثقافات، وتشكل هذه التعددية لهذا المحيط أسس مقوماته واستمرار وجوده وتراثه، وفي هذه المنطقة المتوسطية التي أنتجت واحتضنت وتبنت مختلف الديانات السماوية، التي شكلت أسس نظام تعايشها وتماسكها وتسامحها؟ وهل ستكون هذه الدويلة كياناً قابلاً للحياة والاستمرار ضمن هذا المحيط التعددي المختلف؟

بالتأكيد لن تتقبل شعوب المنطقة قيام مثل هذا الكيان الشاذ والمتناقض مع ثقافتها وتركيبتها، والذي يهدد قيامه بعنصريته وطائفيته خطراً كبيراً يهدد وحدتها ووجودها وثقافتها وتراثها، فقد أصبح وجود هذا الكيان الغريب الهجين بمثابة الشوكة الموجعة التي انغرست بالقوة داخل جسد هذه الشعوب، هذا الجسد سيلتهب وجعاً وترتفع درجات حرارته وتنتابه الحمى، وستتداعى أعضاؤه كلها لاستخدام مناعتها للفظ هذه الجرثومة الغربية التي دخلت عنوة داخل نسيجها واخترقت واحداً من أعضائها. من هذا المنطق ترى هذا الكيان في وجوده غريباً وغير قابل للصمود والاستمرار بينها. وإذا كنا نتحدث عن السلام الشامل والعادل برؤية جماعية وواقعية، فيجب أن نقول وبصراحة مطلقة أن لا حصار ولا أسوار أو حواجز أو جدران إسمنتية أو تفوقاً عسكرياً أو دعماً غربياً أو مذابح أو محارق جماعية تستطيع أن توفر لهذا الكيان العنصري الأمان والاستقرار والسلام. إن استمرار دويلة توراتية تلمودية تتحدث بلسان الأموات وتقوم على أسس عقابية وإرهابية مستمدة من قصص وتاريخ الرواية العبرية الأسطورية، ستحمل حتماً أسباب انهيارها وزوالها الذاتية النابعة من عقم التأسس والبناء لقيام دولة على أسس أسطورية أو لاهوتية في منطقة تعددية وعربية تقوم أسس وجودها وتعايشها على

١- لكنها كانت معدة لفقراء اليهود الغربيين. إنها محرقة الكم الغربي الفائض عن الحاجة للنازية والغربية، لم يصب جحيمها أثرياء ومتنفذي اليهود، لكنهم تاجروا بها وبدماء فقراء أبناء عقيدتهم فيما بعد.

٢- يقصد دائماً باليهودية الغربية يهود أوروبا الشرقية والغربية وأمريكا وكندا وآسيا وأستراليا.

الشراكة والإخاء والتعايش والتسامح داخل الوطن الواحد، وعلى قاعدة ثورية علمية (الدين لله والوطن للجميع).

لم تستطع فبركة الكتبة والأحبار اليهود للرواية العبرية وما تحمله من طمس معالم الحقيقة والواقع من وصف تلك الشعوب المحبة والمسالمة التي دخل إليها آل يعقوب (صلى الله عليه وسلم)، وقامت باحتضانهم وساكنتهم وتقبلتهم في الماضي ليصبحوا جزءاً منها، كتابياً بالشعوب الملعونة والكافرة والوثنية، في وقت تبنت فيه القبيلة العبرية، وباعتراف أنبيائها وحكمائها ضمن الرواية العبرية ثقافاتها وعباداتها وآلهتها ووثنيتها!

في قصة لافتة ومعبرة عن دقائق النفسية العبرية من غش وخداع ومكر وكراهية للآخر، وبحسب ما أوردته الرواية التوراتية في سفر التكوين (۞وَقَالَ لَهُمْ حَمُورُ: شَكِيمُ ابْنِي قَدْ تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بِابْنَتِكُمْ. أَعْطُوهُ إِيَّاهَا زَوْجَةً ۞وَصَاهِرُونَا. تُعْطُونَنَا بَنَاتِكُمْ وَتَأْخُذُونَ لَكُمْ بَنَاتِنَا ۞وَتَسْكُنُونَ مَعَنَا وَتَكُونُ الأَرْضُ قُدَّامَكُمُ. اسْكُنُوا وَاتَّجِرُوا فِيهَا وَتَمَلَّكُوا بِهَا». ۞ثُمَّ قَالَ شَكِيمُ[1] لأَبِيهَا وَلإِخْوَتِهَا: «دَعُونِي أَجِدْ نِعْمَةً فِي أَعْيُنِكُمْ. فَالَّذِي تَقُولُونَ لِي أُعْطِي. ۞كَثِّرُوا عَلَيَّ جِدّاً مَهْراً وَعَطِيَّةً فَأُعْطِيَ كَمَا تَقُولُونَ لِي. وَأَعْطُونِي الْفَتَاةَ زَوْجَةً»).[2]

ونلاحظ الخلط الفاضح بين الديانة والعادات وبين التكوين العنصري والفكر الشوفيني الاستعلائي وانتحال الأعذار ونسب هذه الممارسات لأوامر الإله الخالق! ومن سفر القضاة: (۞فَسَكَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي وَسَطِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِّزِيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، ۞وَاتَّخَذُوا بَنَاتِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ نِسَاءً وَأَعْطُوا بَنَاتِهِمْ لِبَنِيهِمْ وَعَبَدُوا آلِهَتَهُمْ. ۞فَعَمِلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَنَسُوا الرَّبَّ إِلَهَهُمْ وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ وَالسَّوَارِيَ)[3].

في سفر عزرا، وهو الحكيم العراب لحقبة ما بعد الجلاء إلى بابل والعودة للقدس، نلاحظ استمراراً للطبيعة الانطوائية على الذات والعدوانية الفاضحة للشعوب الأخرى غير الصهيونية اليهودية (وَالآنَ فَلاَ تُعْطُوا بَنَاتِكُمْ لِبَنِيهِمْ وَلاَ تَأْخُذُوا بَنَاتِهِمْ لِبَنِيكُمْ وَلاَ تَطْلُبُوا سَلاَمَتَهُمْ وَخَيْرَهُمْ إِلَى الأَبَدِ لِتَتَشَدَّدُوا وَتَأْكُلُوا خَيْرَ الأَرْضِ وَتُورِثُوا بَنِيكُمْ إِيَّاهَا إِلَى الأَبَدِ)[4]. ومن السفر التوراتي العنصري

١- شكيم هو ابن حمور ملك (نابلس). وتتحدث التوراة عن إبادة كاملة قام بها ولدي يعقوب بالسيف بحق جميع سكانها وسلب ممتلكاتها وحيواناتها وسبي نسائها انتقاماً لأختهم دينة ابنة يعقوب التي اغتصبها شكيم ثم طلبها زوجة، حيث اشترط عليه بنو يعقوب أن يتختن، فقام الملك حمور بختن كل ذكور المدينة، وبينما هم في وجعهم انقض عليهم خداعاً ومكراً ولدا يعقوب وأبادوهم انتقاماً.

٢- العهد القديم سفر التكوين 34: 8-12.

٣- العهد القديم سفر القضاة 3: 5-7.

٤- العهد القديم سفر عزرا 9: 12.

الصهيوني أيضاً سفر عزرا: (۞...لَمْ يَنْفَصِلْ شَعْبُ إِسْرَائِيلَ وَالْكَهَنَةُ وَاللاَّوِيُّونَ مِنْ شُعُوبِ الأَرَاضِي حَسَبَ رَجَاسَاتِهِمْ مِنَ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ وَالْعَمُّونِيِّينَ وَالْمُوآبِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ. ۞لأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا مِنْ بَنَاتِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ وَلِبَنِيهِمْ وَاخْتَلَطَ الزَّرْعُ الْمُقَدَّسُ بِشُعُوبِ الأَرَاضِي...)[1]، إنها أراضٍ، وليست فلسطين التاريخية. إنها الأسطوانة المشروخة البالية نفسها المتبناة منذ ما قبل الخروج (السبي)، والتي استمرت لما بعده وإلى اليوم، وعبارة (...اخْتَلَطَ الزَّرْعُ الْمُقَدَّسُ...)[2] بشعوب الأراضي وعودة للقول الذي سبق على لسان عزرا (الوراق) (...وَتَأْكُلُوا خَيْرَ الأَرْضِ وَتُورِثُوا بَنِيكُمْ إِيَّاهَا إِلَى الأَبَدِ)[3]، فذلك يظهر بوضوح الدعوة إلى إبادة شعوب هذه الأرض بما فيها مصر، وغيرها، حتى يتمكنوا من وراثتها إلى الأبد. وضمن هذا الخطاب البائس الكريه، لا يزال البدو المتوحشون العبريون يعتبرون أنفسهم شعباً مقدساً مختاراً ومفضلاً على بقية شعوب العالم، مهما اعتنقوا من ديانات وعبادات قد تكون أكثر حضارة وأخلاقية من ديانتهم، أو حتى لو أصبح العبرانيون يعتنقون مذاهب إلحادية. والمسألة هنا محض مسألة عرقية.

وأذكر أن بين عصر القضاة وعصر عزرا أكثر من ستمئة عام، قضى فيها بنو إسرائيل أكثر من سبعين عاماً، هي مدة الخروج وحتى العودة، بين البابليين والآشوريين والفرس، وهناك كتبوا توراتهم العبرية على يد عزرا الوراق، وهناك أيضاً تم التحول من التوراة الآرامية إلى التوراة العبرية، وكتب التلمود باللغة العبرية (التلمود البابلي).

يقول الدكتور أحمد سوسة في كتابه (العرب واليهود في التاريخ): (ومن الثابت أن هؤلاء الموسويين أخذوا بالآرامية بعد انتشارها في الشرق، فصاروا يتكلمون بها فيما بينهم. وفي غضون ذلك تكونت لدى كهنتهم اللهجة الآرامية الخاصة بهم، وهي التي صارت تعرف فيما بعد بالعبرية، وأخذوا يكتبون بها، فاستعملوا حروفاً فينيقية قديمة في بداية الأمر، ثم أخذوا يكتبون بالخط السامري. وبعد السبي البابلي، وضع الكهنة في الأسر في بابل توراتهم بهذه اللهجة المقتبسة من اللغة الآرامية، لذلك صارت تعرف بآرامية التوراة. وقد استعملوا الخط المسمى بالخط المربع الذي اقتبسوه من أقدم الأقلام الآرامية بين القرنين السادس

١- العهد القديم سفر عزرا 9: 1-2.
٢- العهد القديم سفر عزرا 9: 2.
٣- العهد القديم سفر عزرا 9: 12.

والرابع قبل الميلاد فحفظوه إلى يومنا هذا، ويسمى الآن الخط الآشوري المربع، وهذه هي بالطبع غير لغة موسى المصرية التي نزلت فيها التوراة الأصلية، كما إن مضمون هذه التوراة غير مضمون توراة موسى، فهذه التوراة يصح تسميتها بتوراة الكهنة التي وضعوها في الأسر في بابل، فأضفوا عليها القدسية وفرضوها على أتباعهم بعد رجوع بعضهم إلى فلسطين في عهد عزرا (كاتب شريعة إله السماء)، كما تلقبه التوراة. يقول ليون أبراهام: إن العبرية قد اختفت باكراً كلغة حية، وتبنى اليهود في كل مكان لغات الشعوب المجاورة، ولكن استعمل هذا التبني اللغوي عادة بلهجة جديدة حيث ترد بعض العبارات العبرية... ونجد في حقبات مختلفة من التاريخ لهجات عبرية عربية، وعبرية فارسية، وعبرية بروفنسية، وعبرية برتغالية، وعبرية أسبانية ...إلخ. هذا عدا عن إشارة إلى العبرية الألمانية التي أصبحت اللغة الإيديشية في عصرنا الحاضر». ويتابع الدكتور سوسة: «والحقيقة أن المقصود بالعبرية القديمة هي اللغة الكنعانية القديمة لغة أهل البلاد الأصلية لا غير، وهي التي أخذ بها الموسويون بعد عصر موسى، إذ لم تظهر العبرية إلا بعد أن أخذ الكهنة اليهود يدونون توراتهم في لهجة (آرامية التوراة) المقتبسة من الآرامية، مع العلم أنه ليس لدينا أي دليل على أنه كانت في البلاد (فلسطين) في عصر الملوك لغة غير لغة سكان فلسطين الأصليين، وهي لغة الكنعانيين القديمة)[1].

إن سبعمئة عام من الاختلاط والتعايش كانت كافية للتغيير في الطبيعة الانطوائية العدوانية للتحول نحو التحضر، ومع اعتناق الشعوب التي عاشوا بينها للموسوية والمسيحية والإسلام، إلا إن ذلك لم يغير في بني إسرائيل من طبائعهم ودعواتهم لإبادة الشعوب الأخرى والسطو على ممتلكاتها وأراضيها. أي مفكر وباحث وجداني متخصص في علم الاجتماع والمنطق سيلاحظ أن الإسلام والمسيحية استطاعا الانتشار والاندماج والتواصل واستقطاب شعوب مختلفة تواجدت على هذه الأرض، فأصبحت مسيحية ومسلمة، على الرغم من اختلاف ألسنتها وثقافاتها وألوانها والمناطق المختلفة من الأرض التي تسكنها. أما الرواية العبرية فتجعل من استئصال الشعوب وإبادتها واحتلال أراضيها وسلب ممتلكاتها شرطاً أساسياً إلهياً يحقق لمدعوه وراثة الأرض والثروات وتحقيق العدالة الإلهية! لم يرد أي ذكر في الرواية الكتابية العبرانية لدعوة أو نشر دين أو حملة هدائية، كما في المسيحية والإسلام، إنما ما دون هو تقريع للشعوب الأخرى ولعنتها وتكفيرها وممارسة الإرهاب عليها وإبادتها أو سبيها واستعبادها!

في منطقة تمتد بين الفرات والنيل يتوجب قيام مملكة الرب الأرضية (إسرائيل) الصهيونية، فشعوب هذه المنطقة خُلقت أمامهم للإبادة أو لتكون لهم

١- (العرب واليهود في التاريخ): د. أحمد سوسة، ص 671-673.

سبايا وعبيداً، كما تقول الرواية العبرية الإلهية: (لكي يحرموا ولا يرحموا بل يستأصلوا). أتلك هي رواية (الكتاب المقدس)؟، ولكن ألم يطبق اللوثريون أتباع الكنيسة الأنكلكانية من الأنجلوساكسون بدايةً هذه المقولات الموتورة على سكان القارة الأمريكية، ثم لاحقاً على أستراليا؟

ألم تجري من قبلهم محاولات أخرى لتطبيق هذه (الكتابيات الملفقة) على السكان الأصليين لجنوب أفريقيا، ويجري العمل الآن على تطبيقه أيضاً بحق سكان فلسطين كمرحلة أولى لدعم وتأييد الغرب (ليهودية الدولة الصهيونية)؟!

(۞...اذْهَبُوا وَاضْرُبُوا سُكَّانَ جِلْعَادَ بِحَدِّ السَّيْفِ مَعَ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ. ۞وَهذَا مَا تَعْمَلُونَهُ. تُحَرِّمُونَ كُلَّ ذَكَرٍ وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَت اضْطِجَاعَ ذَكَرٍ. ۞فَوَجَدُوا يَابِيشَ جِلْعَادَ أَرْبَعَ مِئَةِ فَتَاةٍ عَذَارَى[1] لَمْ يَعْرِفْنَ رَجُلاً بِالاضْطِجَاعِ مَعَ ذَكَرٍ وَجَاءُوا بِهِنَّ إِلَى الْمَحَلَّةِ إِلَى شِيلُوهَ الَّتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ)[2].

إن أي ضمير إنساني وعقل سوي ومتفكر سوف يتساءل هنا وبدهشة: ما علاقة الأطفال في هذا الفتح وهذه الدعوة؟ هل هناك طفل مؤمن وآخر كافر؟ ما هي هذه الدعوة التوحيدية الشاذة المبنية على القتل والتحريم والإبادة والسلب وقتل النساء والأطفال؟ ما هذه الديانة والأوامر الإلهية؟ ومن هو هذا الإله الوحشي الظالم الفاسد الذي يأمر العصاة بقتل خلقه وعياله؟ ولماذا خلقهم إذاً إن كان حقاً هو الإله الخالق المدّعى داخل هذه الرواية العنصرية والخرافية، بما هي عليه من أعمال وحشية وموبقات وممارسات لا أخلاقية ولا إنسانية؟!

كيف أباح بنو إسراءيل لأنفسهم وبزعم الرواية التوراتية اتخاذ آلهة وثنية (البعليم وعشتروت) الذين أحرقوا لها البخور واتّخذوا آلهةً لهم عجولاً ذهبيةً عبدوها وسجدوا لها، ثم طلبوا الصفح والغفران، واستجدوا العذر لأنفسهم في وقت أباحوا فيه إبادة شعوب أخرى تحت ادّعاء باطل (بالقضاء على الوثنية)، وهي المعايير المزدوجة ذاتها التي تتبناها اليوم الإمبريالية الغربية والأمريكية.

لم تنسب زوراً وبهتاناً هذه الديانة والدعوة الفاشية العصبوية للنبي موسى ورسالته الهدائية؟

تخلط الأسطورة التوراتية بين الخرافة واللاهوت وبين التاريخ والجغرافيا، وتستغبي بروايتها المتناقضة العقل البشري وتستخف به وتسطحه، لا سيما حينما

١- تدعي التوراة أنه وجد في جلعاد الأردن أربعمئة فتاة عذراء لم تعرف مضاجعة ذكر؛ هل كان مع بني إسرائيل مستشفى ميدانياً وطبيباً شرعياً يفصل بين البكر والثيب؟ إن حصل ذلك فهو يسقط شرعياً فرضية محاربة من يحاربك في حين يفصل النساء عن الفتيات بالتمييز بينهما. هل تدخل هذه الأسطورة في أي عقل طبيعي وسوي؟

٢- العهد القديم سفر القضاة 21: 10-12.

تخلط بين الأقصوصة الشعبية والديانة التوحيدية وشريعة موسى. ومن سفر القضاة أيضاً: (۞وَنَزَلَ شَمْشُونُ إِلَى تِمْنَةَ وَرَأَى امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، ۞فَصَعِدَ وَأَخْبَرَ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُ امْرَأَةً فِي تِمْنَةَ مِنْ بَنَاتِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ، فَالآنَ خُذَاهَا لِيَ امْرَأَةً». ۞فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ وَأُمُّهُ: «أَلَيْسَ فِي بَنَاتِ إِخْوَتِكَ وَفِي كُلِّ شَعْبِي امْرَأَةٌ حَتَّى أَنَّكَ ذَاهِبٌ لِتَأْخُذَ امْرَأَةً مِنَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ الْغُلْفِ؟»[1]... ... ۞فَنَزَلَ شَمْشُونُ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ إِلَى تِمْنَةَ وَأَتَوْا إِلَى كُرُومِ تِمْنَةَ. وَإِذَا بِشِبْلِ أَسَدٍ يُزَمْجِرُ لِلِقَائِهِ. ۞فَحَلَّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ، فَشَقَّهُ كَشَقِّ الْجَدْيِ وَلَيْسَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ...)[2]

(۞وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ أَحَبَّ امْرَأَةً فِي وَادِي سَوْرَقَ اسْمُهَا دَلِيلَةُ. ۞فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَقَالُوا لَهَا: «تَمَلَّقِيهِ وَانْظُرِي بِمَاذَا قُوَّتُهُ الْعَظِيمَةُ، وَبِمَاذَا نَتَمَكَّنُ مِنْهُ لِنُوثِقَهُ لإِذْلاَلِهِ، فَنُعْطِيَكِ كُلُّ وَاحِدٍ أَلْفاً وَمِئَةَ شَاقِلِ فِضَّةٍ». ۞فَقَالَتْ دَلِيلَةُ لِشَمْشُونَ: «أَخْبِرْنِي بِمَاذَا قُوَّتُكَ الْعَظِيمَةُ وَبِمَاذَا تُوثَقُ لإِذْلاَلِكَ؟»... ... ۞...فَقَالَ لَهَا: إِذَا ضَفَرْتِ سَبْعَ خُصَلِ رَأْسِي مَعَ السَّدَى، ... ... ۞وَلَمَّا رَأَتْ دَلِيلَةُ أَنَّهُ قَدْ أَخْبَرَهَا بِكُلِّ مَا بِقَلْبِهِ، أَرْسَلَتْ فَدَعَتْ أَقْطَابَ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَقَالَتِ: «اصْعَدُوا هَذِهِ الْمَرَّةَ فَإِنَّهُ قَدْ كَشَفَ لِي كُلَّ قَلْبِهِ». فَصَعِدَ إِلَيْهَا أَقْطَابُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ وَأَصْعَدُوا الْفِضَّةَ بِيَدِهِمْ. ۞وَأَنَامَتْهُ عَلَى رُكْبَتَيْهَا وَدَعَتْ رَجُلاً وَحَلَقَتْ سَبْعَ خُصَلِ رَأْسِهِ، وَابْتَدَأَتْ بِإِذْلاَلِهِ، وَفَارَقَتْهُ قُوَّتُهُ. ۞وَقَالَتْ: «الْفِلِسْطِينِيُّونَ عَلَيْكَ يَا شَمْشُونُ». فَانْتَبَهَ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: «أَخْرُجُ حَسَبَ كُلِّ مَرَّةٍ وَأَنْتَفِضُ». وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ فَارَقَهُ! ۞فَأَخَذَهُ الْفِلِسْطِينِيُّونَ وَقَلَعُوا عَيْنَيْهِ، وَنَزَلُوا بِهِ إِلَى غَزَّةَ وَأَوْثَقُوهُ بِسَلاَسِلِ نُحَاسٍ. وَكَانَ يَطْحَنُ فِي بَيْتِ السِّجْنِ.)[3].

هذه الحكاية التخويفية الخرافية تصلح حكايات تحكيها الجدات قبل النوم للأطفال من جانب، وتعبر عن تحريض من قبل الكتاب والكهنة الإسرائيليين للانعزال والانطواء على الذات من جانب آخر، فتستخدم رواية خرافية اختزلت فيها حضور الرب بخصل شعر شمشون الجبار، الذي شق أسداً لنصفين كجدي ماعز بيديه. هذا الرب الذي اعتزل شمشون وتركه بيد الفلسطينيين انتقاماً، لأنه حاول الزواج بإحدى بناتهم، ليكون عبرة لكل من يتواصل ويتعايش مع الشعوب الأخرى غير اليهودية الصهيونية. هناك تحريض وحقد لا تخفيه هذه الرواية الخرافية التي تبحث للموحدين اليهود الشعب المختار عن نصرٍ وملك أرضٍ ليس أكثر!

١- الغلف: الفلسطينيون غير المختونين في لحم قلفتهم كما بنو إسرائيل.

٢- العهد القديم سفر القضاة 14: 1-6.

٣- العهد القديم سفر القضاة 16: 4-21.

يعتقد البدائيون الغزاة قتلة الأنبياء، كتبة وكهنة وأحبار، أن الخرافات والأساطير البطولية المدعاة داخل النص العبراني تخلق تاريخاً وماضياً بطولياً مشرفاً يجعل منهم شعباً مقدساً، فيأتي التاريخ نفسه بعلومه وآثاره المكتشفة ليفضح زيف وعقم ادّعاءاتهم وخرافاتهم من داخل الرواية العبرية المتناقضة مع ذاتها ومضامينها. وحين يشوه الكتبة تاريخ وحضارة وديانة الكنعانيين لاستخدامه مبرراً لعمليات التحريم والسلب والنهب والإبادة، يتناقضون مع قصصهم المبتورة. ومما جاء في الرواية التوراتية: (۞وَمَلْكِي صَادِقُ مَلِكُ شَالِيمَ أَخْرَجَ خُبْزاً وَخَمْراً. وَكَانَ كَاهِناً لِلَّهِ الْعَلِيِّ. ۞وَبَارَكَهُ وَقَالَ: «مُبَارَكٌ أَبْرَامُ[1] مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ۞وَمُبَارَكٌ اللهُ الْعَلِيُّ الَّذِي أَسْلَمَ أَعْدَاءَكَ فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهُ عُشْراً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)[2]. ويأتي أيضاً العهد الجديد مُكذِباً لدعواهم وزيفهم: (۞لأَنَّ مَلْكِي صَادِقَ هَذَا، مَلِكَ سَالِيمَ[3]، كَاهِنَ اللهِ الْعَلِيِّ، الَّذِي اسْتَقْبَلَ إِبْرَاهِيمَ رَاجِعاً مِنْ كَسْرَةِ الْمُلُوكِ وَبَارَكَهُ، ۞الَّذِي قَسَمَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عُشْراً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. الْمُتَرْجَمَ أَوَّلاً «مَلِكَ الْبِرِّ» ثُمَّ أَيْضاً «مَلِكَ سَالِيمَ» أَيْ مَلِكَ السَّلاَمِ ۞بِلاَ أَبٍ بِلاَ أُمٍّ بِلاَ نَسَبٍ. لاَ بَدَاءَةَ أَيَّامٍ لَهُ وَلاَ نِهَايَةَ حَيَاةٍ. بَلْ هُوَ مُشَبَّهٌ بِابْنِ اللهِ. هَذَا يَبْقَى كَاهِناً إِلَى الأَبَدِ)[4]. ومن العهد الجديد عبرانيين: (لأَنَّ أُولَئِكَ بِدُونِ قَسَمٍ قَدْ صَارُوا كَهَنَةً، وَأَمَّا هَذَا فَبِقَسَمٍ مِنَ الْقَائِلِ لَهُ: «أَقْسَمَ الرَّبُّ وَلَنْ يَنْدَمَ، أَنْتَ كَاهِنٌ إِلَى الأَبَدِ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادِقَ»)[5] (ملكي صادق) أو (مالك صادق) ملك شاليم أو ساليم (القدس) العربي اليبوسي الكنعاني، الذي بارك إبراهيم الخليل باسم الله الواحد العلي ملك السموات والأرض، وقبل نزول التوراة على النبي موسى بأكثر من ستمئة عام على الأقل، والذي اعتبره العهد الجديد (عبرانيين) شبه ابن الله العلي، الملك مالك صادق ملك القدس (السلام) اليبوسي نسبة إلى اسم القدس القديم (يبوس). لم تستطع الرواية التوراتية على الرغم من

١- أبرام هو إبراهيم عليه السلام.
٢- العهد القديم سفر التكوين 14: 18-20.
٣- ساليم هي القدس.
٤- العهد الجديد الرسالة إلى العبرانيين 7: 1-3.
٥- العهد القديم الرسالة إلى العبرانيين 7: 21.

تحريفها من التنكر لـه ولتوحيده وقومـه الكنعـانيين، فمـن هو ملكـي صـادق كـاهن الرب هذا؟ وما هو أصله؟

«يرجع تاريخ ملكـي صـادق إلـى القرن التاسـع عشر قبل الميلاد (أي قبل قدوم إبراهيم إلى كنعان)، وهو زمن إبراهيم الخليل (صلى الله علبه وسلم). وهو من نسل كنعان. كان ملكاً علـى مدينـة أورشـاليم وولايتهـا التـي كانـت تعرف باليبوسية نسبة إلى يبوس ولد كنعان. وجاء فـي بعض التقاليد اليهوديـة أن (ملكـي صادق) هو سام، وأن تقدمه بالعمر وشرف نسبه جعلاه جديراً بأن يبارك إبـراهيم (صـلى الله علبـه وسـلم). ويـرى العلمـاء المحـدثون أن (ملكـي صـادق) مـن سلالة كنعان، وكـان محافظـاً علـى سـنة الله بـين شـعب وثنـي، وقد عـرف بـالتقوى والزهد، وقيل إن ملكـي صـادق كـان يسكن هـو وقومـه الكهـوف، وكـان أول مـن اختط أورشليم وبناها، وكان محباً للسلام حتى أطلق عليه اسم (ملك السلام)، ومن هنا جاء اسم المدينـة (أورشـاليم شـالم سـالم) أي مدينـة السـلام. وقد ذكـر المطـران يوسف الدبس: (إن أبا الفرج ابن العبري قال: إن ملكـي صـادق هو ابـن عـابر أو أحد أحفاد سام. وزعم بعضهم أنه من ذرية حام، وقال غيرهم إنه ابن صيدون بـن كنعان. والأظهر والأشبه للصواب إن ملكـي صـادق مـن ذريـة سـام، وإن عشيرته كانت إحدى العشائر القليلة التي استمرت على الاعتقاد بوحدانية الله)[1].

اليبوسيون سكان يبوس وبناة معبدها الأول، هم عرب كنعانيون، وملكهم ملكي صادق، وهم سكان البلاد الأصليون. نلاحظ كيف تقوم الروايـة العبريـة بالتحريض عليهم باسم النبي موسى انتحالاً، وكيف تحض على إبادتهم وسلب ممتلكاتهم وأراضيهم باسم الرب العلي كذباً وظلماً، تماماً كما تفعل (إسرائيل الجديدة الغربية) اليوم بأحفادهم من العرب الفلسطينيين، والعالم كله يشهد كيف تعمل على تهجيرهم وإبادتهم وتجويعهم وحصارهم، كما يتابع الجميع هذه الأيام المحرقة البشعة التي يرتكبونها اليوم بحق سكان قطاع غزة المحاصر والمنكوب. سنحاول التقصي للتعرف على ثقافة وسياسة الحصار والجدار والأسوار والانعزال، التي تتبناها اليوم الدويلة العبرية منهاجاً لها ودستوراً موروثاً.

الفكر الانطوائي الاستعلائي وسياسة القوة ورب الجنود، وعسكرة المجتمع الصهيوني، والتعالي على الشعوب الأخرى المشوب بالعنصرية والتمييز، لم يتم التخلي عنه حتى بعد الجلاء والعودة من بابل إلى القدس، والاحتكاك بالشعوب غير العبرانية. لم يتعظ الحكماء من اليهود، الذين سمي بعضهم (الأنبياء

١- أحمد سوسة (تاريخ العرب واليهود ص 784-785) ومن كتاب (تاريخ سوريا ج 1 مجلد 2 ص 25) للكاتب نفسه.

المتأخرين) من السبي وغضب الرب عليهم بسبب تبنيهم عقيدة الحرب والتسلط واحتقار الآخر وسلبه ونهب أرضه، ادعاءً أنها أوامر إلهية، بل عمل اليهود المسبيّون أصحاب الفكر الصهيوني الاستعلائي على تكريس وترسيخ هذه القيم العنصرية التمييزية القبيحة داخل الرواية الكتابية، التي عبثوا بها في بلاد بابل وفارس، وادّعوا أن عدم اعتناقها هو ما جلب السبي والاضطهاد على اليهود من قبل الرب، وأنَّ رفع هذا العقاب يكون بتبنيها والعودة إليها بعد تحريفها. ونقرأ في سفر نحميا: (وَلَمَّا سَمِعَ سَنْبَلَّطُ وَطُوبِيَّا وَجَشَمُ الْعَرَبِيُّ[1] وَبَقِيَّةُ أَعْدَائِنَا أَنِّي قَدْ بَنَيْتُ السُّورَ وَلَمْ تَبْقَ فِيهِ ثُغْرَةٌ عَلَى أَنِّي لَمْ أَكُنْ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ أَقَمْتُ مَصَارِيعَ لِلأَبْوَابِ)[2].

كما نقرأ في أسفار ما بعد السبي والجلاء من بابل، عزرا: (لِيُعْلَمِ الْمَلِكُ أَنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ صَعِدُوا مِنْ عِنْدِكَ إِلَيْنَا قَدْ أَتُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَبْنُونَ الْمَدِينَةَ الْعَاصِيَةَ الرَّدِيئَةَ وَقَدْ أَكْمَلُوا أَسْوَارَهَا وَرَمَّمُوا أُسُسَهَا)[3]، وفي سفر المكابيين الأول (❁فعزم يهوذا على الإيقاع بهم وحشد جميع الشعب لمحاصرتهم ❁فاجتمعوا معا وحاصروهم سنة مئة وخمسين ونصب عليهم القذافات والمجانيق ❁فخرج بعض منهم من الحصار فانضم إليهم نفر منافقون من إسرائيل)[4]. ما أشبه اليوم بالبارحة! إنها العقلية الصهيونية المشبعة بالحقد والكراهية ذاتها. وتبدو هنا سياسة الحصار والجدران والحواجز والأسوار والقاذفات استراتيجية مركزية داخل الفكر والعقل الصهيوني، حيث يعتبر التجويع والحصار والتمترس وراء الجدران والأسوار والإذلال للآخر ممارسات عقائدية ومشروعة تدخل في صلب تركيب وتكوين الجماعة اليهودية، فيوشع بن نون وسفره المدعى لا يجعل من التوحيد الهدف الأسمى، فكل روايته تدور حول (أسوار أريحا الهائلة)، مع أن الأبحاث الأثرية والتحاليل المخبرية لطبقات الأرض والتربة في منطقة مدينة أريحا أثبتت عدم وجود أي أثر لأسوار أو حريق للمدينة في تلك الحقبة، وأثبت العلماء والمؤرخون وعلماء الآثار أن المدن الكنعانية لم تكن ذات أسوار، بل كانت مدناً مفتوحة ذات تنظيم عمراني رائع وحضارة مدنية عظيمة وأصيلة. ويعبر القرآن الكريم عن ذلك في وصفٍ دقيق، وهو الشاهد المُنزَّل مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل على أفعالهم

١- جشم العربي: جاسم العربي.
٢- العهد القديم سفر نحميا 6: 1.
٣- العهد القديم سفر عزرا 4: 12.
٤- العهد القديم سفر المكابيين الأول 6: 19-21.

الماضية بقوله تعالى: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾[1].

تذكر الرواية الكتابية أن يوشع بن نون حاصر مدينة أريحا وحطم أسوارها: (❁...تَدُورُونَ دَائِرَةَ الْمَدِينَةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَالْكَهَنَةُ يَضْرِبُونَ بِالأَبْوَاقِ. ❁...عِنْدَ اسْتِمَاعِكُمْ صَوْتَ الْبُوقِ، أَنَّ جَمِيعَ الشَّعْبِ يَهْتِفُ هُتَافاً عَظِيماً، فَيَسْقُطُ سُورُ الْمَدِينَةِ فِي مَكَانِهِ... ... ... ❁وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرَ وَالْغَنَمَ وَالْحَمِيرَ بِحَدِّ السَّيْفِ)[2].

من الأمور التي تثير الدهشة والاستغراب الشديدين أن يأتي بعد عدة قرون تبريراً كهنوتياً مشابهاً للتبريرات التي استند إليها البابا أوربان الثاني في حروبه الفرنجية الصليبية المقدسة الموجهة إلى بلاد الشرق بمسيحييه ومسلميه، تحت شعار (الحرب المقدسة باسم يسوع المسيح)، والمسيح منه ومن هذه الحروب براء. والمستغرب أكثر من ذلك في أيامنا هذه أن يأتي التبرير ذاته داخل حاشية الكتاب المقدس بشروحه (العهد القديم) وبتفسيره الحديث في حاشية الشرح[3]، ما نصه التفسيري والتبريري (قواعد الحرب المقدسة وهو يخضع لأمر إلهي). ورد ذلك شرحاً لغزو أريحا وإبادة سكانها وحرقها بالنار. أي إلهٍ يُعبد هذا الكاهن وهذا المُفسِّر والمبرر؟! هل هو إله الناس الخالق العلي القدير؟ أم هو الإله الوثني السياسي المتواجد داخل العقلية الصهيونية وورثتها من الأحبار والكتبة؟!

يشير الدكتور إسرائيل فلنكشتاين[4] في كتابه (التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها) إلى موضوع أسوار أريحا: (كانت المدينة المثالية تتضمن قصراً ومجمع هيكل وبضعة صروح عامة أخرى، هي في الغالب مساكن للموظفين الكبار، وحانات، وأبنية إدارية أخرى، فقط لا غير. فلم تكن هناك أسوار للمدن، ولم تكن المدن الكنعانية الرائعة، التي تصفها قصص الغزو الإسرائيلي لكنعان في الكتاب المقدس محمية في الواقع بأي تحصينات دفاعية)[5].

أستشهد بما كتبه الدكتور فلنكشتاين حول عدم وجود أي أسوار لمدينة أريحا في محاولة للإضاءة على الحقيقة الجلية التي لا شك فيها، والتي تفيد أن الكثير من القصص الكتابية لم تكن أكثر من قصص مختلقة ومدسوسة في التوراة لا أساس

١- القرآن الكريم سورة الحشر الآية 14.
٢- العهد القديم سفر يشوع 6: 4-21.
٣- نسخة دار المشرق بيروت 1998 (الرهبانية اليسوعية)، ص (229).
٤- إسرائيل فلنكشتاين: رئيس قسم الآثار في جامعة تل أبيب.
٥- د. فلنكشتاين (التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها) ص 114.

لها من الصحة. وهي في الواقع محاولة لخلق تاريخ وماضٍ للقبيلة العبرية، وتأتي تعبيراً صادقاً عما يجول داخل العقلية والنفسية اليهودية الصهيونية. ويأتي الادّعاء أيضاً ليكشف عن الطبيعة العدوانية المغرقة والمفرطة في ثقافة الحروب ورب الجنود والعنف والإبادة الموجه نحو الآخر غير اليهودي، وقد تكرر ذكر ذلك مرات عديدة داخل رواية (الكتاب المقدس).

شكلت هذه الثقافة الاستعلائية مبدأ (حق البقاء للأقوى)، كما عبرت عنه حكاية سفر التكوين حول قصة (عيسو ويعقوب) وأبيهم إسحق الذي فبركت الرواية باسمه زوراً (وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ. وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ)[1]. هذه العقيدة البدائية المتبناة سيواجهها تعبير ثوري ناجم عن قراءة سلوك وعقيدة اليهودية الصهيونية وممارساتها (ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة). إذاً لا سلام في ظل عقيدة (لأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ). إما أن تقتلني أو أقتلك (إبادة الآخر) منطق إسرائيلي تتبناه دولة الاحتلال الصهيونية. وهو منطق تلمودي عنصري وتمييزي لا علاقة له بالمطلق بالتوحيد والإيمان والأوامر الإلهية أو (الحروب المقدسة). إنه ادّعاء شوفيني شاذ ولا يمكن أن يجعل من هذه الرواية كلمة الله المقدسة، ففي ذلك تجنٍّ على الإرادة الإلهية واستهانة بكلمتها المقدسة.

العقلية التكوينية الغريزية العدوانية تم توارثها جيلاً بعد جيل ضمن الرواية الكتابية من ادّعاء (إسراءيل القديمة) إلى تأسيس الغرب الاستعماري بالقوة (لإسرائيل الحديثة الحاضرة). ونقرأ في سفر الملوك الثاني: (❁...[كَلِّمْ عَبِيدَكَ بِالأَرَامِيِّ لأَنَّنَا نَفْهَمُهُ وَلاَ تُكَلِّمْنَا بِالْيَهُودِيِّ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ الَّذِينَ عَلَى السُّورِ]. ❁فَقَالَ لَهُمْ رَبْشَاقَى: [هَلْ إِلَى سَيِّدِكَ وَإِلَيْكَ أَرْسَلَنِي سَيِّدِي لأَتَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلاَمِ؟ أَلَيْسَ إِلَى الرِّجَالِ الْجَالِسِينَ عَلَى السُّورِ لِيَأْكُلُوا عَذِرَتَهُمْ[2] وَيَشْرَبُوا بَوْلَهُمْ مَعَكُمْ؟])[3].

ومن حقبة ما سمي بالهيكل الثاني، سفر نحميا: (وَعِنْدَ تَدْشِينِ سُورِ أُورُشَلِيمَ طَلَبُوا اللاَّوِيِّينَ مِنْ جَمِيعِ أَمَاكِنِهِمْ لِيَأْتُوا بِهِمْ إِلَى أُورُشَلِيمَ لِكَيْ يُدَشِّنُوا بِفَرَحٍ وَبِحَمْدٍ وَغِنَاءٍ بِالصُّنُوجِ وَالرَّبَابِ وَالْعِيدَانِ)[4]. ومن بداية الخروج من

١- العهد القديم سفر التكوين 27: 40.

٢- (لِيَأْكُلُوا عَذِرَتَهُمْ): أي ليأكلوا برازهم ويشربوا بولهم؛ إشارة للحصار والجوع والعطش.

٣- العهد القديم سفر الملوك الثاني 18: 26-27.

٤- العهد القديم سفر نحميا 12: 27.

مصر: (وَأَمَّا بَنُو إِسْرَائِيلَ فَمَشُوا عَلَى الْيَابِسَةِ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ وَالْمَاءُ سُورٌ لَهُمْ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ يَسَارِهِمْ)[1]. ومن سفر الرؤيا العهد الجديد، الذي يتشابه كثيراً مع نمط وأسلوب سفر دانيال وثقافته البابلية الآشورية الفارسية، من حيث الوصف الأسطوري للوحوش والعروش وأوصاف الحيوانات التي كانت تعبد في تلك الثقافات ما قبل التوحيدية (النسر والثور والأسد والنمر والفرس والدب) ضمن الأشكال الغريبة الموصوفة، والتي اختلطت فيها الأسطورة باللاهوت والتاريخ وصفاً وتشبيهاً وتراثاً في تصور القدس وأسوارها: (❁...وَأَرَانِي الْمَدِينَةَ الْعَظِيمَةَ أُورُشَلِيمَ الْمُقَدَّسَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ❁لَهَا مَجْدُ اللهِ، وَلَمَعَانُهَا شِبْهُ أَكْرَمِ حَجَرٍ كَحَجَرِ يَشْبٍ بَلُّورِيٍّ. ❁وَكَانَ لَهَا سُورٌ عَظِيمٌ وَعَالٍ، وَكَانَ لَهَا اثْنَا عَشَرَ بَاباً، وَعَلَى الأَبْوَابِ اثْنَا عَشَرَ مَلاَكاً، وَأَسْمَاءٌ مَكْتُوبَةٌ هِيَ أَسْمَاءُ أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الاِثْنَيْ عَشَرَ. ... ... ❁وَالَّذِي كَانَ يَتَكَلَّمُ مَعِي كَانَ مَعَهُ قَصَبَةٌ مِنْ ذَهَبٍ لِكَيْ يَقِيسَ الْمَدِينَةَ وَأَبْوَابَهَا وَسُورَهَا)[2].

إنه قليلٌ من كثيرٍ احتوته الأسطورة العبرية من أسوار وجدران وحصار وتجويع وعقوبات جماعية وحروب إبادة ودعوات للانعزال وعزل الآخر ونفيه. ويأتي في أيامنا هذه بناء جدار الفصل العنصري وإقامة الحواجز في الضفة الغربية والقدس في الأراضي الفلسطينية المحتلة، والحظر والإغلاق والحصار على قطاع غزة، وإغلاق المعابر، ليشكل عقوبات جماعية وحرب إبادة وجرائم حرب ضد الإنسانية اتبعتها اليوم دولة (إسرائيل التوراتية الغربية) بعمليات قصف جوي شامل وتدمير همجي وحشي للبنية التحتية وأسس الحياة والعيش والطبابة ومؤسسات التعليم والعبادة والإعلام وبيوت الحضانة ورعاية الطفولة لكسر صمود المقاومة الفلسطينية ودفعها للاستسلام والمفاوضات العبثية ضمن الشروط الإسرائيلية الأمريكية، في ظل تواطؤ عربي وغربي مكشوف، وتحت صمت دولي مريب ومدان ومستنكر ومشبوه الغايات.

في قراءة لما كتبه البعض من قادة وساسة وكتاب ومؤرخي الكيان الصهيوني من اليهود الغربيين (محافظين وعلمانيين)، ستتضح حقيقة الأزمة النفسية والفكرية والأيديولوجية التي يعيشها هذا الكيان العنصري المتداعي، والذي تحمل الأيديولوجية الصهيونية التي قام عليها أسباب انهياره وسقوطه

١- العهد القديم سفر خروج 14: 29.

٢- العهد الجديد رؤيا يوحنا اللاهوتي 21: 10-15.

الحتمي، حيث إنه سيتآكل من الداخل كنتيجة حتمية لعقم النظريات (التوراتية والتلمودية)، ولفكرة نظام (يهودية الدولة) التي قام عليها.

نقرأ في تصريحات السيد أبراهام بورغ إلى صحيفة هآرتس الصهيونية مؤلف كتاب (الانتصار على هتلر) بداية للعد التنازلي لسقوط نظرية (يهودية الدولة) أو دولة الماضي التوراتي. والسيد بورغ من أوائل المؤسسين والقادة، حيث كان من رؤساء الكنيست الإسرائيلي لدورات برلمانية عدة، ووزيراً سابقاً لوزارة الداخلية. أجريت المقابلة معه في 2007/6/8. وكانت هذه المقابلة بعد حرب تموز 2006 التي سجلت فيها المقاومة الإسلامية الوطنية اللبنانية انتصاراتها على المؤسسة العسكرية الصهيونية، وكانت أحد الأسباب الرئيسة في انهيار الجبهة الإسرائيلية الداخلية التي أدت إلى أزمة نفسية عميقة في المجتمع الإسرائيلي، وفجرت التناقضات الاجتماعية والعرقية الكامنة داخلها.

يقول أبراهام بورغ: (إن وصف إسرائيل بالدولة اليهودية هو مفتاح زوالها). ويقول أيضاً في كتابه الانتصار على هتلر: (قامت إسرائيل كملجأ آمن للشعب اليهودي. وهي اليوم المكان الأقل أمناً للجماعة اليهودية الذي لا يمكن العيش فيه. إن إسرائيل الشابة الثورية المتقدة تحولت إلى ناطق بلسان الأموات، فنمط حياتنا حربي تجاه الجميع، تجاه الأصدقاء والأعداء، تجاه الداخل والخارج. ويمكن القول ليس مجازياً، ليس استعارة، إنما بحزن وثقة: إن الإسرائيلي لا يفهم سوى القوة. إنها عبارة انطلقت كجزء من الغطرسة الإسرائيلية إزاء عجز العرب عن الانتصار علينا في ميدان المعركة، واستمرت كتسويغ لكثير جداً من الأفعال والنظريات التي لا يمكن تسويقها في عالم سوي. الفاشية هنا الآن، إسرائيل دولة بلطجة، مستقوية وإمبريالية فاقدة لروح الأصالة منطوية على نفسها)[1].

يعبر بورغ بواقعية وموضوعية عن الأزمة العسكرية والنفسية التي يعيشها المجتمع الإسرائيلي. كما يعبر عن حقيقة مؤسفة تشير إلى أن الغطرسة العسكرية الصهيونية إنما هي ناجمة عن عجز العرب عن تحقيق الانتصار عليها في ميدان المعركة. ويثبت بورغ أيضاً عقم النظرية الصهيونية القائمة على (يهودية الدولة)، أو تأسيس الدولة على أسس توراتية، فتمثل ذلك بقوله: (تحولت إلى دولة ناطقة بلسان الأموات)، متناسيةً الأحياء الذين يمثلون المستقبل من المواطنين أو الرازحين تحت الاحتلال الذين بإمكانهم تشكيل دولة علمانية مدنية يعيش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون في وطن واحد.

١- أبراهام بورغ عن صحيفة هآرتس العبرية عدد 2007/6/8 (كتاب الانتصار على هتلر). عرض سعيد هلال الشريقي، أوراق ثقافية - صحيفة تشرين السورية 2007/6/11.

ومما جاء في صحيفة هآرتس الصهيونية أيضاً، لقاء مع مؤلف كتاب (متى وكيف اخترع الشعب اليهودي)، المؤرخ الإسرائيلي البروفيسور شلوموزاند من جامعة تل أبيب، والذي يجيب عن أسئلة الصحافي في صحيفة هآرتس العبرية أوفري إيلاني: (إذا كانت الأسطورة الصهيونية هي الشعب اليهودي الذي يعود إلى أرضه بعد الخروج، فتلك هي أسطورة البلد الذي قمنا بغزوه. وبرأيي، فإن بناء أسطورة حول المستقبل هي أفضل من بنائها حول الماضي، اليوم بالنسبة للأمريكيين، كما هو الحال بالنسبة للأوروبيين. إن ما ينصف ويؤكد عدالة وجود أمة هو المستقبل المفتوح، وما يعني تقدماً وازدهاراً للمجتمع». ويتابع الإجابة عن أسئلة أخرى، فيقول: «يجب أن يبدأ العمل وبشكل جاد ليتحول هذا المكان إلى جمهورية إسرائيل، حيث الأصل العرقي وكذلك المعتقد لن يكون في تناقض مع القانون، وإن أي شخص يطلع أو له المعرفة بشباب المجتمع العربي الإسرائيلي يستطيع أن يرى أنهم لا يوافقون على العيش بمجتمع في وطن لا يظهر ويؤكد وجودهم، ولو كنت فلسطينياً فسوف أكون ثائراً ضد دولة مثل هذه، ولكني أيضاً أثور ضدها)[1].

هذا التغير في التفكير بالنمط الذي يجب أن تكون عليه الدولة، وهذا الشعور المتنامي بعقم الادّعاء الصهيوني بدولة يهودية، إنما هو ناجم عن الشعور المتزايد بالعداء والكراهية لدولة إسرائيل العنصرية، وعدم قدرتها على البقاء والصمود طويلاً أمام عداء وعزلة عربية وإسلامية لن تستطيع مشاريع شيمون بيريز وجورج بوش المتصهين (الداعي إلى شرق أوسط جديد) من فك عزلتها وتثبيت وجودها في محيط تعددي ذي توجهات قومية، وحضارة مشرقية أصيلة عربية (إسلامية ومسيحية).

نصل إلى فهم وإدراك الأسباب الموضوعية التي أدت في الماضي إلى عدم انصهار واندماج تلك الجماعة اليهودية الغربية داخل مجتمعاتها المختلفة التي ترعرعت وعاشت فيها وحملت جنسياتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها من المواطنين (اليهود الغربيين)، والنابعة أصلاً ممّا دُوِّنَ تحريفاً داخل الرواية العبرية من دعوات للانغلاق والانعزال وتحريم الاندماج، مما يجعلنا نتفهم أيضاً دون أن نبرر الممارسات العدائية التي ارتكبت بحق اليهود الغربيين عبر القرون الوسطى لدفعهم للهجرة خارج أوطانهم ومجتمعاتهم الغربية التي ولدوا وتواجدوا فيها. وأصبح أيضاً واضحاً لدينا، وهذا مؤكد، أن نظرية (شعب الرب) العنصرية التمييزية ووصف الآخر غير اليهودي بـ (الغويم) أصحاب الدرجات الأدنى،

١- شلوموزاند مؤلف كتاب (متى وكيف اخترع الشعب اليهودي) ترجمة سليمان دباغ بقلم أوفري إيلاني 2008/3/12 هآرتس العبرية.

الذين خرجوا من الرحمة الإلهية، وتبرير سلبهم وخداعهم بمكرٍ وخبثٍ تبريراً كتابياً، واحتقار المذاهب والأديان الأخرى غير اليهودية الذي أوجدَ أسباباً تراكمية خلقت ردّات فعل الآخر عليها، لهذا اتجهت أوروبا العلمانية لإصدار القوانين والتشريعات المتعلقة، بما يسمى (معاداة السامية).

لم تطل ردات الفعل هذه الجالية العربية اليهودية المتواجدة في بلاد المشرق وفي الدولة العربية الإسلامية. ولم يشهد يهود الدول العربية والإسلامية والمشرقية ما شهده يهود الدول الغربية من (محاكم التفتيش الأوروبية وغرف الغاز النازية)، بل كان اليهود العرب من المساهمين في بناء تقدم وتطور المجتمعات داخل الدولة العربية في المشرق وفي بلاد الأندلس الأسبانية، وأي ردات فعل طارئة في العصر الحديث، إنما مردّها إلى ردود الفعل الغاضبة التي سببتها الدول الاستعمارية الأوروبية بتأسيسها لدولة يهودية غربية على حساب فلسطين العربية بيهودها ومسيحييها ومسلميها على أرض فلسطين وطرد شعبها منها بالقوة!

هذا التمسك الصهيوني - وللأسف الأمريكي أيضاً - بيهودية الدولة، وبقرار حق العودة لليهود الغربيين والشرقيين والأفارقة متناقض أساساً مع قانون وقرار حق العودة للفلسطينيين، والمقصود به إسرائيلياً عودة اليهود ممّا سمي بالشتات، خلافاً للعقل والمنطق وحقيقة التاريخ ومبادئ تشكيل الدول والشعوب. وهذا ما سأتطرق إليه في الفصل القادم.

الادّعاء بدولة ليهود العالم، والذي يجري تطبيقه على أرض الواقع على حساب الشعب الفلسطيني وأرضه بقوة الإرهاب والدعم الغربي اللامحدود من حصار وعقوبات وقمع واستيطان، وبناء لجدار الفصل العنصري، وتقطيع أوصال ممتلكات الفلسطينيين، والاعتقال الإداري، والممارسات اللا إنسانية بحق أكثر من أحد عشر ألف معتقل فلسطيني والتنكيل بهم، والسيطرة على الثروة المائية، وتهويد القدس ومصادرة أراضيها، وإقامة الحواجز العسكرية ما بين قراها ومدنها وتفتيت مقومات المجتمع الفلسطيني وأسس التواصل بين مدنه وقراه، وانتهاك سيادة وسلامة الدول المجاورة، واحتلال أراضيها وسرقة مياهها والعدوان على شعوبها واستباحة أجوائها ومياهها؛ هذا الإرهاب والعدوان وهذه الممارسات التي يرتكبها نظام عنصري استيطاني احتلالي يرفض السلام والعدل والتعايش، ويفرض شروط الاستسلام المذلة، ووقف أعمال المقاومة المشروعة، وتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية من خلال

محاولاته الهادفة للتطبيع مع العرب والانفتاح عليهم اقتصادياً وثقافياً، ووقف مقاطعتهم الاقتصادية مجاناً ودون تقديم أي تنازلات أو إعادة أي حقوق لأصحابها، والممارسات الصهيونية المستندة إلى تفوق عسكري وقوة طاغية إمبريالية توراتية، يجعل الحديث عن السلام (أكذوبة كبرى) في ظل نظام عنصري قائم على العقلية التلمودية وعلى انفصام في تكوينها وتأسيس أيديولوجيتها وشخصيتها. يقول أبراهام بورغ في هذا الصدد: (إن الحديث عن محو غزة عنوة يدل على أننا لم نستوعب الدرس. المجتمع الإسرائيلي مذعور. إننا معوقون نفسياً. إن إسرائيل تعاني من صدمة نفسية مستديمة. التشدد يسيطر على هويتنا. إنه مجتمع يعيش على سيفه... أليس جدار الفصل الذي نقيمه في الأراضي الفلسطينية يدل على انفصام الشخصية الذي نعانيه؟!)[1].

كانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى تقاتل وتقاوم وتحتج بالعصي والمقاليع والحجارة، في وجه سلطة مدججة بالسلاح المتطور لدولة قمعية عنصرية وإرهابية. لم تستوعب تلك السلطة الباغية المحتلة الدروس والعبر المستقاة من هذه الانتفاضة، وبقيت أسيرة ادّعاء تفوقها وقوتها وسيادة إثنيتها على الأعراق الإنسانية الأخرى. وتحدى مجرم الحرب آرييل شارون مشاعر الفلسطينيين بتكسير عظام أطفالهم وتحدي مشاعرهم الدينية والفكرية بانتهاك حرمة مقدساتهم وازدراء مشاعرهم وتهديدهم والتطاول على حرمة المسجد الأقصى الشريف وتدنيسه ومحاولة هدمه والحفر تحت أساساته لإقامة الهيكل المزعوم وقيام الدولة التوراتية والتهديد بطرد السكان العرب مسلمين ومسيحيين إلى الأردن وما سمي (الوطن البديل). تجلت ردة الفعل الشعبية على هذه الممارسات الوحشية التلمودية باستخدام الأيديولوجيا الدينية الجهادية المضادة للأفعال التوراتية التلمودية لنظام إرهابي توراتي عنصري يعمل على تهويد القدس العربية وطرد سكانها منها، في ردة فعل طبيعي على فعل صهيوني احتلالي. فكانت انتفاضة الأقصى وكانت مقاومة العرب الفلسطينيين هذه المرة بأيديولوجيا جهادية إسلامية، هي في الواقع مقاومة شعبية قومية ووطنية مشرقية، تخلت دول الغرب وفي مقدمتها أمريكا عن ديمقراطيتها وعلمانيتها بدعمها ومساندتها لقيام الدولة اليهودية التوراتية، معبّرة بهذا الفعل عن أصوليتها وزيف دعواتها للعولمة والديمقراطية ومبادئ العدل والإنسانية، وهي تعلم جيداً أن توسيع الاستيطان ومصادرة الأراضي المحتلة الفلسطينية، وتقطيع

١- أبراهام بورغ (الانتصار على هتلر) هآرتس العبرية العدد الصادر بتاريخ 2007/6/8.

أوصال الضفة الغربية بإقامة جدار الفصل العنصري وتشجيع هجرة اليهود الغربيين إليها، لن يمكنها من قيام أي دولة فلسطينية. القوى الغربية المنحازة للدولة الصهيونية، وبمحاباتها وحمايتها لها، تحمل في باطنها الخداع والكذب، فيما أسمته بحل الدولتين والرباعية، وخارطة الطريق، والمفاوضات العبثية، ومؤتمر السلام، (مؤتمر أنا بوليس) مؤتمر النفاق والشقاق الدولي للقوى المستسلمة للإدارة الأمريكية.

دعت دول الغرب الديمقراطي إلى انتخابات فلسطينية تشريعية اعتقدت أن نتائجها ستكون مشابهة لنتائج الانتخابات الأفغانية والعراقية واللبنانية. وشهدت من خلال إشرافها على قيام انتخابات حرة في الأراضي المحتلة نزيهة وديمقراطية، حيث فازت حركة المقاومة الإسلامية حماس بأصوات الأغلبية. انقلب السحر على الساحر، فنتائج الانتخابات لا تخدم المصالح الإسرائيلية والأمريكية. تتخلى إسرائيل والدول الغربية وبشكل مكشوف وفاضح عن الحرية والديمقراطية التي تدّعيها حينما يتعلق الأمر بعنصريتها التوراتية، فتحرض وتتآمر على نتائج الانتخابات الشرعية الفلسطينية بالتعاون مع رموز فاسدة ومشبوهة داخل أجهزة السلطة الفلسطينية، ومع رموز أخرى عربية مستسلمة، وتصدر الأوامر الأمريكية إلى بعض رموز السلطة الفتحوية[1]، التي عاقبتها جماهيرها على فسادها وتفريطها بالحقوق الثابتة الفلسطينية، وبسبب تحالف وتعاون بعض رموزها مع العدو وأزلامه وخروجها عن الثوابت ومبادئ المقاومة الأصلية التي كانت حركة فتح (أبو عمار، وأبو إياد، وأبو جهاد) وغيرهم دائماً أول من مارسها ودعا إليها قبل تأسيس حركة المقاومة الإسلامية، وهي المقاومة التي حوصر واستشهد ياسر عرفات من أجلها، وقتل غيلة وغدراً على يد إسرائيل وعملائها!

تصدر الأوامر الأمريكية بالانقلاب على الشرعية واعتقال واغتيال رموزها في غزة والضفة بتنفيذ إسرائيلي ومباركة سلطوية (والمقصود هنا السلطة الفلسطينية التي تقودها حركة فتح حزب السلطة). وتمارس الرؤوس العفنة المستسلمة، ومنها العميلة التابعة للعدو مباشرةً من أصحاب المصالح المادية المرتبطة معه، مباشرة سياسة وضع العصي في الدواليب لإفشال الحكومة الشرعية، وتأليب الجماهير عليها، والعمل على عزلتها عربياً ودولياً، ومحاصرتها والدس عليها، والتحالف مع الدول المستسلمة والتنسيق معها، وتتكفل مصر (بقيادة مبارك) بدورها بإغلاق معبر رفح الحدودي، وتتكفل الدولة الصهيونية بفرض العقوبات والحصار على قطاع غزة الصامد وعزله، بينما تتكفل السلطة وزمرتها المستسلمة بتجريد المقاومة من سلاحها في الضفة

١- المقصود هنا بالسلطة الفتحوية تلك القيادات التي تدّعي تمثيلها لحركة فتح الثورية المقاومة، وتصادر وتصادر قراراها الوطني الحر عبر أجهزة السلطة الأمنية. هذه القيادة تصادر حتى منظمة التحرير الفلسطينية وتخضعها لمشيئة المفاوضين والمفرطين وأوامر الدول المعتدلة والمانحة.

الغربية، وتسليمها للعدو واعتقال رموزها، والتنسيق الأمني (برنامج دايتون) مع إسرائيل، حيث يقوم جواسيس الأجهزة بتزويد الجيش الإسرائيلي الصهيوني بأسماء المقاومين وأماكن تواجدهم ومراقبتهم. وبينما كانت هناك محاولات جادة لرأب الصدع وإعادة اللحمة الوطنية الفلسطينية، كانت قيادات السلطة تلتقي وتجتمع برموز الدولة العبرية، وتتبادل القبلات واللقاءات معها، لأن شهوتها للسلطة والتفاوض والتفريط والإملاءات الخارجية منعتها من القبول باللقاء والحوار مع أبناء قضيتها. إن الأصولية الإسلامية هي الفزاعة التي تختلقها أمريكا وأعوانها عذراً مقنعاً لضرب حركة المقاومة في كلٍّ من العراق ولبنان وفلسطين والصومال. وما صدور الأوامر الأمريكية لدول الاعتدال العربي بعدم الاستجابة لعقد مؤتمر عربي على مستوى القمة للعمل على فك الحصار على غزة ونصرة أهلها، إلا دليل آخر على تبعية تلك الدول والحكومات لأمريكا وإدارتها الصهيونية.

والآن في ظل صمت عربي ودولي مطبق متواطئ وجبان على ما يجري من إبادة جماعية في قطاع غزة، لا بد من وضع النقاط على الحروف والإشارة للحقيقة الغائبة والمغيبة التي يلتف عليها الكثير من الكتّاب والإعلاميين والساسة، والتي لا تخفى إلا على الحمقى والمرتشين الفاسدين في أنظمة الحكم العربية المتخاذلة.

بعد سقوط الدولة العثمانية وانهيار سيطرتها على بلاد المشرق العربي وجنوبه وغربه، عمدت القوى الاستعمارية التوراتية إلى إعادة تقسيم التركة العثمانية، بما يتوافق ومصالح هذه الدول المحتلة وأتباعها في المنطقة، لخلق كيان صهيوني يضمن لها مصالحها ونفوذها، كما يضمن تدفق الثروات والمواد الباطنية إليها، فعمدت إلى إعادة تقسيم التركة في رسم حدود جديدة سياسية لا نزال نشهدها حتى اليوم. اشترطت هذه الدول الاستعمارية على البعض من المشايخ والإمارات والأسر والقبائل شروطاً لتعزيز سلطتها وتحقيق مصالحها وضم أراضٍ وولايات جديدة إلى كياناتها العشائرية، ولاستمرار وجودها ومنافعها وملكيتها، ضمان بقاء واستمرار التمدد والحياة للكيان الصهيوني الذي اقتسم التركة معها، بحيث يصبح بقاؤها واستمرار كيانها وسيطرة هذه الأسر عليها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ببقاء هذا الكيان وأمنه ومصيره، وربط مصيره أيضاً بمصيرها واستمرارها. وأصبح بقاؤها وبقاء نفوذها وحكم أسرها وعشيرتها مرتبطاً مع هذا الكيان، أي وُضِعت إسرائيل وبعض هذه الكيانات الجديدة في قارب واحد يغرق فيه الجميع، فبقاء إسرائيل هو صمام أمان بقاء هذه الأنظمة المستحدثة على عروشها ونفوذها وأنظمتها ومنافعها!

في المقابل يضمن لها تربعها على عروشها وسلطاتها وضمان استمرار مصالحها بالجاه والسلطان والنفوذ والثروة. هذه الاتفاقيات غير المعلنة هي التي تدفع تلك النظم والأسر المتحجرة للحضور السياسي والسيطرة على مفاصل العمل

العربي والإسلامي المشترك من مؤتمرات للقمة للجامعة العربية والمؤتمرات الإسلامية، عاملة بحرص وإخلاص على إحباط وتبديد أي جهد عربي أو إسلامي فاعل يهدف إلى تحرير الأرض والإنسان، أو يدعم المقاومة والصمود والممانعة، أو الوحدة والديمقراطية، أو النهوض وبروز قوة عربية فاعلة وقادرة، كما حصل في التآمر على العراق لإحباط قوته، وكما حدث أيضاً في الوحدة المصرية السورية والعراقية. أمام هذه الحقيقة المرة، أقول إن أرض فلسطين التاريخية غير قابلة للتقسيم والقسمة. إن إقامة دولتين، كما يزعم الغرب وبعض العرب المعتدلة، سوف تجعل من هاتين الدولتين كيانين تابعين لسطوة وسياسة الدول المانحة. ويعمل هذا الحل على تكريس سياسة الاحتواء وتأخير المواجهة الحتمية القادمة، وإعطاء الكيان الصهيوني فرصة للتفوق العسكري والتطبيع والشرعية، ويحقق للأنظمة التابعة والمستسلمة شروط تخليها عن القضية المركزية للأمة.

إن تحقيق حق العودة وقيام الدولة دولة ديمقراطية مدنية منتخبة على أرض فلسطين التاريخية لمواطنيها من اليهود والمسيحيين والمسلمين الفلسطينيين على أساس من العدل والمساواة وسيادة القانون، تكون هذه الأسس وحدها نواة هذه الدولة التي سوف تحمل كل أسباب البقاء والسلام والتوافق والعدل. هذا السلام الذي لن يحتاج إلى أسلحة متطورة وجيوش لضمان استمراره؛ إنه السلام الذي لن يحتاج للقوة الطاغية لحمايته؛ إنه السلام الذي يحمي ويقوي نفسه بنفسه، ولن يحتاج أيضاً لمعاهدات واتفاقيات لضمان استمراره وأمنه. وسيكتشف الساعون إلى وهم سلام وحل الدولتين المزعوم والمفاوضات العبثية أن أرض فلسطين غير قابلة للقسمة (إن آخر الدواء هو الكي). وفي لقاء إعلامي واتصال لقناة الجزيرة مع أحد المسؤولين الإسرائيليين الصهاينة لمحاورته عن قرار الكيان الصهيوني بتوسيع الاستيطان حول القدس وتهويدها وبناء أكثر من سبعمئة مستوطنة جديدة في جبل أبو غنيم، لا سيما بعد انعقاد مؤتمر أنابوليس وبدء المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية وادّعاء الرئيس الأمريكي جورج بوش القائل بـ (حل الدولتين) وإقامة السلام الشامل في الشرق الأوسط، صرّح هذا المسؤول الصهيوني تصريحاً عبّر عن عقم المفاوضات العبثية، وكشف ما تكنّه العقلية والنفسية اليهودية الغربية الصهيونية من عنصرية ومكر وخداع وإصرار على احتلال الأرض والتوسع وإقامة الدولة اليهودية على كامل أرض فلسطين التاريخية. فعلى الهواء مباشرةً، وبوقاحة متناهية لا تخفي مخادعة الأصدقاء والأعداء معاً حول النوايا التوسعية وما تبيته السياسة الإسرائيلية، أجاب المسؤول الإسرائيلي محدثه في برنامج حصاد اليوم، وبعصبية معبرة عن دفائن النفسية الصهيونية، عن سؤال الدكتور جمال الريان: (تتحدث عن عدم شرعية المستوطنات؟ نحن هنا بالقدس منذ ثلاثة آلاف سنة. ما شأنكم أنتم بالقدس؟ كنتم تعبدون الأصنام وتئدون البنات عندما كنا هنا لتقول الآن أراضٍ محتلة. هذه

الأراضي ليست محتلة. الأردن كانت دولة محتلة، ما شأنكم أنتم في قطر وفي قناة الجزيرة؟!)[1]. عبّر وبصراحة موقف المسؤول الإسرائيلي الصهيوني عن الإملاءات الأمريكية الموجهة إلى دول الاعتدال العربي: (ما شأنكم أنتم بالقدس وفلسطين والمسجد الأقصى؟!).

في مقابلة تلفازية مباشرة عصر يوم 2008/12/31 مع كبير المناضلين الفلسطينيين المناضل بهجت أبوغربية على قناة القدس الفضائية (مباشر) عرض على الهواء مباشرة وثيقة منشورة على الإنترنت من موقع صحيفة يدعوت أحرنوت الصهيونية، وبلسان صحافييها الذين حضروا الاجتماع تاريخها 2008/9/9 ما مفاده أنه حصل اجتماع عسكري في بناية شمال رام الله بين مجموعة من كبار الضباط الإسرائيليين ومجموعة مؤلفة من أربعة ضباط في أجهزة السلطة الفلسطينية الأمنية برئاسة كبيرهم المدعو أبو الفتح، لوضع خطة عسكرية مشتركة للقضاء على المقاومة الفلسطينية الإسلامية حماس، حيث خاطب الضابط الفلسطيني أبو الفتح
الضباط الإسرائيليين بقوله: نحن وأنتم نواجه عدواً مشتركاً هو حماس، وعليكم وضع خطة لنقوم بتنفيذها قبل نهاية هذا العام 2008.

أتمنى أن يكون هذا الخبر مدسوساً من الصحيفة الصهيونية أو يدخل في إطار محاولات توسيع شقة الخلاف الفلسطيني الفلسطيني، التي يعمل عليها العدو جاهداً بهدف تصفية المقاومة، وبالتالي تصفية القضية، عبر مفاوضات ومماطلات عبثية ثبت عقمها وفشلها، وضمن خطة منهجية مدروسة جيداً.

وأثناء استعراضي لما ورد من فقرات سياسية وتحليل سياسي ضمن فصول هذا الكتاب حاولت توخي الحيادية والموضوعية ككاتب وباحث، وإعطاء القارئ فرصته للتقويم والاستنتاج والحكم على نتائج الأحداث الأخيرة، لا سيما الموقف الذي سمي تضليلاً (الخلاف الفلسطيني الفلسطيني).

واليوم وبعد كتابتي للخاتمة، طرأت على الساحة السياسية أحداث مؤلمة ومؤسفة لكل فلسطيني وعربي، حيث قام رأس سلطة أوسلو بإحباط مشروع نقل تقرير غولدستون قاضي لجنة حقوق الإنسان الأممية فيما يخص إدانة دولة العدو وجرائمها بحق الإنسانية وجرائم الحرب المرتكبة بحق شعبنا في قطاع غزة الذي لا يزال محاصراً ويتعرض لعدوانٍ شبه يومي، وذلك من خلال طلبه تأجيل تحويل هذا الملف للتصويت عليه، متذرعاً بالضغط الدولي والعربي (إنقاذاً لأمريكا أوباما)، ومتذرعاً أيضاً بعدم التأثير في أجواء السلام والمفاوضات دون الرجوع إلى المؤسسات الفلسطينية صاحبة القرار، وفي ظل استمرار التهويد

١- قناة الجزيرة الفضائية - حصاد اليوم - د. جمال الريان الأحد 2008/6/1 مباشرةً على الهواء مساءً.

للقدس واستمرار الاستيطان. إنها ذَلة وطنية كبرى ترتكب بحق الضحايا والشعب الفلسطيني ومقاومته وقضيته من رئيس سلطة يدّعي أنه يمثل هذا الشعب!

صرح عباس أنه لن يجتمع أو يحضر أي مفاوضات ما لم يتوقف الاستيطان، لكنه عاد وخضع للضغط الصهيوأمريكي ليحضر اجتماع نيويورك ويجتمع مع نتنياهو، ليصرح نتنياهو في الأمم المتحدة بعدم قبوله ورفضه لقرار اللجنة الأممية لحقوق الإنسان، فينصاع له عباس ليطلب وقف تحويل القرار للتصويت عليه. من يمثل الرئيس عباس إذاً؟ الفلسطينيين والنظام الرسمي العربي أم أوباما ونتنياهو؟ أنا، كعربي وفلسطيني لاجئ صاحب قضية، لم أنتخب أحداً ليمثلني في كل الانتخابات ومؤسسات السلطة الفلسطينية التابعة للجنرال الأمريكي (دايتون). وأقول بصراحة لكل فلسطيني وعربي أن السلطة الفلسطينية وسلطة أوسلو لا تمثلني ولا تمثل الشعب الفلسطيني. وهي سلطة غير شرعية وغير مؤهلة لتفاوض نيابة عن الشعب الفلسطيني. ومن يراهن عليها فهو يراهن على حصان أعرج خاسر.

فلسطين قبل 1948 فلسطين الغربية وغزة 1967 الجدار 2005

إن زيارتي للأرض المقدسة تذكرني كثيراً بعودة البانتوستان وجدار الفصل في نظام الأبارتيد في جنوب أفريقيا، كما لو أن التاريخ يكرر ذاته. ورغم ذلك فسيحلّ السلام في الأرض المقدسة كما حلّ في أفريقيا. "القس ديز موند توتو، الحائز على جائزة نوبل للسلام".

هل يشكل يهود العالم شعباً؟

شرحت في الفصول السابقة ما يفيد أن اليهودية ديانة مقتبسة من الديانات والثقافات المصرية والكنعانية والآرامية والبابلية والفارسية. وثبت أثرياً وعلمياً أن الذين اتبعوا اليهودية كديانة لم يتركوا في فلسطين أو غيرها أي أثر أو ثقافة أو حضارة خاصة بهم، بل إن عاداتهم وثقافتهم قد اقتبسوها وتعلموها من الشعوب التي عاشوا بينها وعاصروها، ولم يستطيعوا تشكيل أي كيان سياسي قومي خاص بهم، ولم يستطيعوا أيضاً المحافظة عليه منعزلاً، ويعود ذلك إلى المفهوم الثابت من أن اليهودية كغيرها من الديانات الأخرى التي طرأت وتغيرت باستمرار في ظل العرقيات والإثنيات المختلفة التي سبقت هذه الأديان تاريخياً.

فالديانة، وأي ديانة كانت، عرضة للتبديل والتغيير والتطوير أيضاً، ولا ترقى بالنهاية لتوفير الشروط لتشكيل قومية أو وطن خاص بها يتمتع بمقومات الشعب أو الأمة التي من شروط قيامها وحدة الأرض واللغة والتاريخ والعادات والتقاليد والتراث؛ هذه الأسس الثابتة لمواصفات تشكيل الشعب والأمة.

واليهود، كأصحاب ديانة معتنقة، كانوا يتحدثون بالكنعانية والآرامية الغربية (بلاد الرافدين وصحراء الجزيرة العربية الشمالية الشرقية)، ومن ثم بالعبرية المشتقة من الآرامية العربية، حتى إن النبي موسى (صلى الله عليه وسلم) كان يحتاج إلى مترجم ليتفاهم مع بني إسراءيل. وأول ما كتبت التوراة كتبت بالآرامية، وحتى تلمودهم (التلمود الفلسطيني) كتب بالآرامية، ثم كتب لاحقاً بالعبرية، ما سمي بـ (التلمود البابلي) في فترة الجلاء في بابل. لا يملك اليهود أي تراث خاص بهم، وإذا كنا نتحدث عن يهود (أصحاب ديانة يهودية)، فإن الحديث عن بني إسراءيل سيبدو مختلفاً جداً، فالنبي يعقوب (صلى الله عليه وسلم)، وعلى حد قول التوراة، كان آرامياً، وهو من الموحدين بدين النبي إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) ولم يكن وثنياً. تتحدث القصص القرآنية عن بني إسراءيل، وتميزهم بوضوح شديد عن اليهود، فيعقوب وأحفاده ليسوا هم

الجماعات والأعراق الأخرى والشعوب التي اعتنقت اليهودية، حيث بقيت تلك الجماعات والشعوب على مواطنها ولغاتها وأقوامها وعاشت بينها. وشأن هذه الشعوب التي اعتنقت الموسوية أو (اليهودية) في ذلك شأن الشعوب التي اعتنقت المسيحية والإسلام، اللذين انتشرا على مساحة واسعة من العالم وبين شعوب وأمم مختلفة في ألوانها وأجناسها وألسنتها وتاريخها وأوطانها التي نشأت وعاشت في ظلها وفي مواطنها المختلفة.

وخلاصة القول إن اليهودية، وهي بالأصل الموسوية، لم تكن مخصصة ومقتصرة على العبرانيين أو المصريين أو الآراميين أو بني يعقوب وحدهم، فقد انتشرت بين الشعوب والأمم المختلفة في زمن وحدانيتها بمواجهة الوثنية، واعتنقتها كديانة توحيدية أمم كثيرة، منها العرب والفرس والبربر والترك والخزر والأسبان والأحباش وغيرهم. وعلى الرغم من اعتناقهم لها فقد حافظوا على انتمائهم القومي ولغاتهم وثقافتهم وتراثهم وولائهم لأوطانهم. ففي اليمن بقي يهود اليمن يمانيين، ويهود الحبشة أحباشاً، ويهود جبال البربر مغربيين، وفي كردستان أكراداً، وفي الجزيرة العربية والشام والعراق يهوداً عرباً.

لعل بعض الباحثين والمفكرين والكتّاب الذين نسبوا بني إسراءيل إلى الجزيرة العربية جنوباً، إنما استقوا أفكارهم وأبحاثهم نتيجة لازدهار العهد السليماني (النبي سليمان) (صلى الله علبه وسلم) عبر تفسير الرواية القرآنية لقصص سبأ وبلقيس. وفي الحقيقة لقد تهودت عدة قبائل عربية في أرض اليمن والحجاز، وتوضح ذلك سورة البروج في القرآن الكريم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾[1]. القصة القرآنية التاريخية التي تتحدث عن الملك اليماني الحميري الذي اعتنق اليهودية وأجبر شعبه على اعتناقها. ولما اعتنق البعض من قومه (اليمنيين) النصرانية حاول إعادتهم لليهودية بالقوة، فأقام لهم محرقة ووضعهم فيها، ويقال إن الله قد رفع أرواحهم منهم قبل أن تمسهم نار محرقة الملك ذي النواس الحميري اليهودي اليماني، ورفعها إلى السماء. هذه الحادثة التي أعتقد أنها تكررت مرة أخرى بعد صلب اليهود للسيد المسيح (صلى الله علبه وسلم). أكان ذلك بالتشبيه لهم، كما في القرآن الكريم، أم بوفاته على الصليب جسداً وقيامه من بين الأموات وصعوده للخالق؟ وفي الحالتين كلتيهما كان هناك

١- القرآن الكريم سورة البروج الآيات 1-8.

تدخل للإله لإنقاذ نبيه وروحه من العصاة اليهود، وإن الجريمة التامة هنا إنجيلياً وقرآنياً!

ويشرح العلامة الإمام أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي في قصة الأخدود وحرق اليهود للنصارى في اليمن بقوله: (واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن التامر، وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم من الإنجيل وحكمه، ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحزاب، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران. قال ابن اسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب وبعض أهل نجران عن عبد الله بن تامر، فالله أعلم أي ذلك كان. قال: فسار إليهم ذو النواس بجنده من (حمير)، فدعاهم لليهودية وخيّرهم بين ذلك أو القتل، فاختاروا القتل، فخدوا الأخدود وحرق بالنار وقتل بالسيف، فمثَّل بهم، فقتل قريباً من عشرين ألفاً، ففي ذي نواس وجنده أنزل الله على رسوله ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝﴾[1]»[2].

تهودت في الجزيرة العربية الكثير من القبائل العربية، فبقيت عربية على ديانتها اليهودية: كبني النضير وقريضة والقينقاع، وهناك يهود بني النجار وبني الأوس وثعلبة وبني عوف، وغيرهم من بطون القبائل العربية. وثبت أن كثيراً من أبناء هذه القبائل قد ارتحلت إلى بلاد الشام، ولا سيما لفلسطين، طلباً للتجارة والزراعة والعمل، وبعضها عقاباً على تآمرها على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، واستقرت بالشام. وما إن ظهرت المسيحية والإسلام، حتى اتّخذ بعضهم منها ديانات بديلة لليهودية، وهم القدامى، وبعضهم الآخر بقي على يهوديته التي اعتنقها قبل المسيحية والإسلام.

كانت المسيحية واليهودية تتنافسان وبشدة على بث الدعوة والتوحيد في جزيرة العرب. وكان الراهب المسيحي ورقة بن نوفل جليساً للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم، وأول من تقبل دعوته من النصارى العرب.

كما إن العدد الأكبر من بني إسرائيل والكنعانيين والعموريين هم ممن استوطنوا دلتا النيل المصرية شرقاً وغرباً، ولم يخرجوا مع أصحاب موسى ، كما ذكرت في فصل قصة الخروج، فاختلطوا مع المصريين والليبيين والبربر المغاربة في زمن الوثنية، واستطاعوا نقل هذه الديانة إلى بلاد المغرب العربي، ومنها إلى أسبانيا وأوروبا الغربية، فيما استطاع يهود إيران وكردستان نشر

١- القرآن الكريم سورة البروج الآيات 4-5.
٢- ابن كثير (البداية والنهاية) ج3 ص 15.

اليهودية أيضاً في محيط بحر قزوين (بحر الخزر)، حيث اعتنق الخزريون اليهودية بديلاً عن الوثنية. ومن هناك انتشرت اليهودية في أورآسيا في البلاد الروسية والبلغارية وأوروبة الشرقية، لا سيما بعد تدمير أمير كييف الروسي لمملكة خازاريا الواسعة، حيث هاجر الكثير من الرعايا الخزريين المعتنقين لليهودية في القرن السابع الميلادي باتجاه أوروبا الشرقية وإلى السهوب النمساوية والألمانية ابتداءً من القرن التاسع الميلادي.

لا أحد يمتلك فكراً حراً مستنيراً يستطيع القبول بالادّعاء الصهيوني العنصري من أن الأقوام الخزرية الأوراسية والأوروبية الغربية والأفريقية والآسيوية تشكل شعباً أو أمة واحدة يهودية وصهيونية!

هل بإمكان يهود اليمن والمغرب والعراق وخازاريا وأوروبا الشرقية والغربية ويهود الحبشة الذين التزموا بالديانة اليهودية، أن يعتبروا أنفسهم ساميين منتمين لبني إسراءيل وأحفاداً ليعقوب وإسحق وموسى؟ هل هم يهود بالانتماء العرقي أو القومي؟ أم أصبحوا يهوداً بحكم إيمانهم الكتابي والديانة الهدائية؟

وهل كل يهود العالم الذين ذكرنا جنسياتهم ومواطنهم وأصولهم واختلاف تواريخ اعتناقهم لليهودية كديانة، والذين يعيشون في أوطانهم، يمكن اعتبارهم (يهود الشتات)، وتتوجب عودتهم إلى فلسطين ليشملهم قانون حق العودة الإسرائيلي في وقت يمنع فيه الفلسطينيون الحقيقيون من الحصول على حق العودة إلى أراضيهم وممتلكاتهم التي طُرِدوا وهُجِّروا منها بقوة الإرهاب الصهيوني الغربي البريطاني؟!

لم ينته الوجود اليهودي المشرقي في القرن الأول والثاني الميلادي، إنما الذي انتهى وإلى الأبد فعلاً، ومع حضور المسيحية، الفهم الذاتي البدائي العنصري للاهوت اليهودي الانعزالي القائل بيهودية فلسطين والقدس وشعبها الخاص المختار، وفلسطين مهد الديانات السماوية التي اعتنقها أهلها جميعاً، فبقيت فلسطين المشرقية بيهوديتها ومسيحيتها وإسلامها، وحتى في وثنيتها، أرضاً فلسطينية عربية. يذكر الدكتور أحمد سوسة في كتابه (العرب واليهود في التاريخ):

(إن بدوي الجزيرة العربية الرقيق الحساس المجبول على الفطرة والخيال الذهني والتعلق الروحي، لم تعد نفسيته تتحمل عبادة الأصنام، فقد كان عرب الجزيرة آنذاك في صراع نفسي وديني شديد الحساسية بين الوثنية من جهة وبين اليهودية والمسيحية اللتين تدعوان إلى التوحيد من جهة أخرى. وقد كان دين إبراهيم الخليل (صلى الله عليه وسلم) معروفاً في الجزيرة العربية عند

الحنفاء قبل اليهودية والمسيحية، كما يخبرنا القرآن الكريم «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ[1]»[2].

وقد استمرت الحساسية حتى نزول الوحي على النبي محمد (صلى الله علبه وسلم، حامل رسالة الإسلام إتماماً لرسالة إبراهيم الخليل (صلى الله علبه وسلم)، فتقبلتها الجموع بحماس بالغ وإيمان عميق. وإن الأنبياء والرسل يظهرون بوحي من الله في مثل هذه الظروف، التي كانت سائدة في أرض الجزيرة العربية، والتي تكون فيها الجموع أشد ما تكون بحاجة لمن يهديها إلى الصراط المستقيم. وفي ذلك يقول العالم الألماني ديتليف نيلسن: (لا يوجد دين من الأديان قدر الله له النجاح في القضاء على الوثنية كما قدر للإسلام).

ومما يدل على صحة القول من بقاء بعض القبائل العربية المتهودة في مواطنها، بينما مال البعض منها إلى الإسلام متحولاً عن يهوديته محتفظاً ببعض عاداته وتقاليده الموروثة عن اليهودية، وفي منطقة حجازية مهمة من جزيرة العرب. ويفيد الرحالة دوتي الذي ارتاد الجزيرة العربية سنة 1875م: (كانت قرية في نواحي خيبر أهلها مسلمون، ولكنهم لا يزالون يحافظون على بعض التقاليد والتعاليم اليهودية، ولا يخالطون غيرهم من القبائل المجاورة)[3].

الجدير بالذكر أن الرواية التوراتية تشير إلى النبي سليمان (صلى الله علبه وسلم) بالكثير من الموبقات والآثام المدّعاة بالعودة للوثنية والارتداد عن عبادة الإله الواحد. إنه ادّعاء لا يخلو من التعبير عن الميول العصبوية الانطوائية على الذات للقبيلة العبرية، تطالب التوراة بتطبيقها على الأنبياء والحكماء من بني إسراءيل. هي بالطبع ادعاءات باطلة ترفضها الروايتين الإنجيلية والقرآنية:

(۞وَأَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصَيْدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ ۞مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: [لاَ تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ]. فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهَؤُلاَءِ بِالْمَحَبَّةِ. ۞وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ. فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. ۞وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ

١- القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 67.
٢- د. أحمد سوسة - العرب واليهود في التاريخ ص 692.
٣- العرب واليهود في التاريخ من كتاب الصحراء العربية ص 129.

كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. ۞فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَثَ إِلَهَةِ الصَّيْدُونِيِّينَ وَمَلْكُومَ رِجْسِ الْعَمُّونِيِّينَ. ۞وَعَمِلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ، وَلَمْ يَتْبَعِ الرَّبَّ تَمَاماً كَدَاوُدَ أَبِيهِ. ۞حِينَئِذٍ بَنَى سُلَيْمَانُ مُرْتَفَعَةً لِكَمُوشَ رِجْسِ الْمُوآبِيِّينَ عَلَى الْجَبَلِ الَّذِي تُجَاهَ أُورُشَلِيمَ، وَلِمُولَكَ رِجْسِ بَنِي عَمُّونَ.)[1]

هناك إشارة مهمة من العهد القديم تعتبر ضمن هذه الرواية الأنبياء داود وسليمان ملوكاً ولا تعترف بهم كأنبياء!

بهذا الزعم اللاهوتي الخاطئ تماماً بحق الأنبياء من قبل قتلة الأنبياء ترمى أسباب انهيار الكيانين اليهوديين في السامرة ويهوذا على كاهل النبي سليمان، متجاهلة حقائق التاريخ والجغرافيا والتطور المجتمعي للبلاد الفلسطينية، لتنسب هذه التطورات الحتمية إلى اللاهوت والأصولية العبرانية والعقوبة الإلهية، على الرغم من ذلك تعود الرواية نفسها للتناقض مع ذاتها بقولها على كل الملوك الذين ورثوا سليمان، الذين تجاوزوا العشرة (...فَعَلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ)[2]. ونسبت هذا الفعل لأسباب انهيار المملكتين وعقوبة السبي (الجلاء إلى بابل) بدعوى الاختلاط بالشعوب الأخرى التي عاشوا بينها، في خلط فاضح كما ذكرت بين الادّعاء اللاهوتي وحقيقة التاريخ!

الأسباب الموضوعية التاريخية والجغرافية التي تقتضي لليهود وبني إسراءيل بأنهم لم ولن يكونوا دولة أو شعباً واحداً متجانساً يستند إلى مذهبٍ أو ديانةٍ لا توشك أن تغير وتتغير في مفاهيمها ومقوماتها ولاهوتها. وهي منغلقة على ذاتها ومعتنقيها، في مواجهة أديان توحيدية أخرى وأمم تعيش بينها، لتعتبر نفسها في مواجهة هذه الأديان المتعددة والأمم الأخرى (شعب الرب) و (شعب الله المختار)، وغيرهم من الأمم (الأغيار، الغويم، الخاسوت) خلقت لتكون لهم خدماً وعبيداً وسبايا أبد الدهر، كما ورد في سفر الخروج. لقد تنبأ النبي موسى بالردة لهذه الجماعة الشريرة المرتدة عن ديانته التوحيدية والمتذمرة على الله ونبيه والذهاب وراء آلهة أخرى شعبية محلية (۞وَكَانَ الشَّعْبُ كَأَنَّهُمْ يَشْتَكُونَ شَرّاً فِي أُذُنَيِ الرَّبِّ. وَسَمِعَ الرَّبُّ فَحَمِيَ غَضَبُهُ فَاشْتَعَلَتْ فِيهِمْ نَارُ الرَّبِّ وَأَحْرَقَتْ فِي طَرَفِ الْمَحَلَّةِ. ۞فَصَرَخَ الشَّعْبُ إِلى مُوسَى فَصَلَّى مُوسَى إِلى الرَّبِّ فَخَمَدَتِ النَّارُ. ... ... ۞فَلَمَّا سَمِعَ مُوسَى الشَّعْبَ يَبْكُونَ بِعَشَائِرِهِمْ كُلُّ وَاحِدٍ فِي بَابِ خَيْمَتِهِ وَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ جِدّاً سَاءَ ذَلِكَ فِي عَيْنَيْ مُوسَى. ۞فَقَالَ مُوسَى لِلرَّبِّ: «لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلى عَبْدِكَ وَلِمَاذَا لَمْ أَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَنَّكَ وَضَعْتَ ثِقْلَ جَمِيعِ هَذَا الشَّعْبِ عَلَيَّ؟... ... ۞لا أَقْدِرُ أَنَا وَحْدِي أَنْ أَحْمِلَ

١- العهد القديم سفر الملوك الأول 11: 1-7.

٢- العهد القديم سفر العدد 32: 13.

جَمِيعَ هَذَا الشَّعْبِ لأَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَيَّ. ۞فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ بِي هَكَذَا فَاقْتُلْنِي قَتْلاً إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلا أَرَى بَلِيَّتِي»)[1]

و جاء في سفر العدد أيضاً: (۞وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: ۞حَتَّى مَتَى أَغْفِرُ لِهَذِهِ الجَمَاعَةِ الشِّرِّيرَةِ المُتَذَمِّرَةِ عَلَيَّ؟ قَدْ سَمِعْتُ تَذَمُّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الذِي يَتَذَمَّرُونَهُ عَلَيَّ. ۞قُلْ لَهُمْ: حَيٌّ أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ لأَفْعَلَنَّ بِكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ فِي أُذُنَيَّ. ۞فِي هَذَا القَفْرِ تَسْقُطُ جُثَثُكُمْ جَمِيعُ المَعْدُودِينَ مِنْكُمْ حَسَبَ عَدَدِكُمْ مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِداً الذِينَ تَذَمَّرُوا عَلَيَّ.)[2].

وفي تثنية الاشتراع: (۞انْظُرْ! أَنَا وَاضِعٌ أَمَامَكُمُ اليَوْمَ بَرَكَةً وَلَعْنَةً. ۞البَرَكَةُ إِذَا سَمِعْتُمْ لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكُمُ التِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا اليَوْمَ. ۞وَاللَّعْنَةُ إِذَا لَمْ تَسْمَعُوا لِوَصَايَا الرَّبِّ إِلهِكُمْ وَزُغْتُمْ عَنِ الطَّرِيقِ التِي أَنَا أُوصِيكُمْ بِهَا اليَوْمَ لِتَذْهَبُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفُوهَا)[3]

تذكّر التواريخ والمكتشفات الأثرية والآثار الباقية بالأحداث والتطورات التي طرأت على هذه المنطقة العربية والمشرقية من هجرات وثقافات وديانات مختلفة ومتعددة، لا تزال تشكل إلى يومنا هذا الأسس الأولى لتراث وحضارة المنطقة برمتها، وتشهد على مساهماتها في بناء الحضارة الإنسانية، وعلى تفاعلها الإيجابي مع الحضارات الأخرى المحيطة بها، التي ساكنتها وتعايشت معها، فأخذت منها وأعطتها (الفارسية والإغريقية والرومانية). وشكّل هذا التمازج الحضاري الرائع أساساً متيناً راسخاً من العلوم والمعارف والازدهار والتطور، ساهم بشكل كبير في إثراء الحضارة الإنسانية وتراثها الفكري. والعرب والمشرقيون شأنهم في ذلك شأن الأمم الأخرى، اعتنقوا العديد من المذاهب والديانات، وفي مقدمتها: اليهودية الموسوية والمسيحية الناصرية قبل ظهور رسالة الإسلام المحمدية، فالقبائل العربية اعتنقت بعضها اليهودية في أجزاء من اليمن والحجاز والعراق ومصر وبلاد الشام السورية. من أهم وأعرق القبائل العربية التي اعتنقت المسيحية: المناذرة والغساسنة والكلدان والسريان وقبائل نجران وجيزان، وغيرهم، من بطون القبائل العربية، لم يغيّر فيهم اعتناقهم

١- العهد القديم سفر العدد 11: 1-15.
٢- العهد القديم سفر العدد 14: 26-29.
٣- العهد القديم سفر التثنية 11: 26-28.

للمسيحية أو اليهودية من كونهم عرباً، ولم يلغِ هذا الاعتناق للأديان المختلفة من عروبتهم ومشرقيتهم وثقافتهم وانتمائهم لأوطانهم وعاداتهم وتقاليدهم وتراثهم، ولم يشكلوا بهذا الاعتقاد الديني شعباً خاصاً أو شعباً مختاراً، وهم العرب الساميون، شأنهم في ذلك شأن الشعوب والأمم الأخرى باعتناقها لليهودية والمسيحية والإسلام، فبقيت على عاداتها وتقاليدها وهويتها الوطنية والقومية المكتسبة بفعل الانتماء للأرض والتاريخ واللغة والثقافة التي اكتسبتها قبل اعتناقها لأي من الأديان التوحيدية التي لم تغير من هويتها ومواطنها.

- فلماذا سيختلف الأمر هنا مع اليهودية؟! وما هو القاسم المشترك الذي سيجمع بين الخزريين والأوروبيين والأثيوبيين والهنود والأمريكيين والعرب والفرس والروس والأوكرانيين والألمان، وغيرهم من الذين اعتنقوا الديانة اليهودية في حقب مختلفة ومتباعدة فيما بينها تاريخياً؟!

ما الذي يربطهم ويجمعهم بالعبرانيين وبني إسراءيل (يعقوب) (صلى الله عليه وسلم) الآرامي الكنعاني في مولده وثقافته وبيئته؟!

هل هناك قاسم مشترك يبرره العقل ومنطق الأشياء يجمع كل هذه الأمم والشعوب المختلفة في لغاتها، وألوانها، وأعراقها، وثقافاتها، وأنماط معيشتها في دولة يهودية الجنسية، لتشكل شعباً واحداً متجانساً يحمل مقومات البقاء والاستمرار في أرض شعب آخر، لتوصف هذه الدولة بأرض الميعاد لشعب الرب؟ أم هي الصهيونية والعنصرية والتقاء مصالحها المادية مع المصالح الاستعمارية الغربية للرأسمالية المتوحشة الإمبريالية؟!

فالبربر الأفارقة المغاربة الذين انتقلت إليهم اليهودية عبر اختلاطهم باليهود المصريين، أو مع الذين لم يخرجوا من مصر مع موسى (صلى الله عليه وسلم) من بني إسراءيل، أولئك الباقون في مصرهم من نقل هذه الديانة لبلاد المغرب العربي، ومن فيها من المواطنين الذين نقلوا اليهودية بدورهم إلى أسبانيا، حيث شكلت الديانة اليهودية هناك دعوة هدائية وليس ديانة وراثية، وهي حقيقة دعوة موسى التوحيدية قبل تشويهها من قبل المنقلبين على موسى من القبائل المتوحشة العبرانية.

فكيف ستوصف تلك الشعوب المختلفة (بالشعب اليهودي)، وتكون دولة إسرائيل الجديدة أرض ميعاده في رواية إسراءيل التوراتية؟ هذه الرواية التي تعتبر الشعب المختار ابناً للرب!

فإذا أخذنا بالحسبان أن رسالة السيد المسيح ودعوته الهدائية الإنسانية قد ألغت هذا المعتقد العنصري البدائي الوثني، الذي يماثل اعتبار الفرعون ابناً للرب

وأباً للجميع وإلهاً على الأرض، عندئذٍ يصبح استمرار ادّعاء شعب الرب وابن الرب (إسراءيل) مخالفاً لرسالة المسيح وخروجاً عليها، وهو المعتقد الذي تخرج فيه المسيحية المتصهينة على مسيحييها وإيمانها المسيحي لتلقي به في الخانة اليهودية الصهيونية، وفي مشاريع الإمبريالية الاستعمارية الأنجلوساكسونية اللوثرية لإمبراطوريتي الشر البريطانية والأمريكية والرأسمالية اليهودية الربوية الصهيونية.

وبهذا الصدد يعرض الصحافي سعيد هلال الشريقي في جريدة تشرين السورية: (يقول بوب ودوارد أحد المعلقين السياسيين في صحيفة واشنطن بوست في كتابه (خطة الهجوم)، الصادر عام 2004: يعتقد الرئيس بوش أن وصوله إلى البيت الأبيض عام 2000 قد جاء بناءً على تكليف إلهي يأمره بأن يجند كل طاقات بلده العملاقة للقضاء على الأشرار، الذين أشاعوا الخطيئة والطغيان والفساد في العالم، ومن ثم إحلال السلام والرخاء فيه، تمكيناً لإرادة الرب، وصولاً إلى تدشين مملكة السماء. ويؤكد الصحافي ودوارد بأن الموجه الرئيس لسياسات بوش الخارجية يرتكز على عاملين أساسين: الأحلام التي يعتقد بأنه يراها أثناء نومه من وقت إلى آخر حاملة رسائل وتكليفات إلهية، والتعاليم الصارمة التي تأمره بها الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية من خلال أكثر مللها تطرفاً المتمثلة بالمسيحية المتصهينة التي تنفرد عن باقي جميع كنائس العالم بانتهاجها تعاليم العهد القديم (التوراة) بكل ما تحمله من كره للبشرية وتعصب أعمى لشعبين مختارين حسب هؤلاء هم (بنو إسرائيل والأمريكيون البيض المنحدرون من العرق الأنجلوساكسوني حصراً. ويرى الكاتب الفرنسي شارل سان برو أن المشروع الأمريكي للعالم يستند إلى القوة العسكرية الضاربة إلى منظومة دينية فكرية ثقافية إعلامية متكاملة، لا تقل تأثيراً وفتكاً بالشعوب المستهدفة عن جبروت الآلة العسكرية المنتشرة في كل أرجاء المعمورة. ويرى أن نحو مئة ألف مبشر إنجيلي أمريكي قد تم نشرهم عبر العالم، القسم الأكبر منتشر في العالم العربي والإسلامي، تحت صفات مختلفة: رهبان أو أطباء وممرضات بلا حدود تدعمهم العديد من الجهات الرسمية الكبرى وتمدهم بالأموال الطائلة كالكونغرس ووزارتي الخارجية والدفاع، وترعى شؤونهم وكالة الاستخبارات المركزية، مهمتهم الرئيسة التغلغل في أوساط الجاليات المسيحية الشرقية بهدف حرفهم عن دياناتهم الأصلية وتجنيدهم في المعتقد الأمريكي الجديد عن طريق العديد من المغريات المتاحة تتناسب مع طبيعة كل بلد وشعب، بدءاً بتقديم الأموال وتسهيل الدراسة للشبان في الغرب على حساب جمعيات خيرية تابعة لهم، وانتهاءً بتسهيل

منح تأشيرات دخول للولايات المتحدة بعد اجتياز العديد من اختبارات الولاء للدين الجديد)[1].

كيف تدعي المسيحية المتصهينة مسيحيتها وإيمانها بالمسيح المخلص، وهي التي ترفع شعار (إسرائيل مملكة الرب الأرضية) وللمسيح مملكة الرب السماوية، في وقت جاء المسيح فيه ليعلن رفضه للمادية والمملكة الأرضية من خلال إنجيله المقدس الذي يقلب الرواية التوراتية رأساً على عقب، لا سيما مفهوم (أبناء الله) وأبناء الشعب المختار الذين استبدلهم الإله الواحد بأبناء (القيامة) المؤمنين بالمسيح وقيامه مخلصاً ومصوباً ومشرعاً (بالعهد الجديد)؟!

نعثر في مزامير داود 2: 7 على معنى مجازي مؤكد يشير إلى ما قد يكون رعاية وتبنٍّ وحماية: (...قَالَ لِي: أَنْتَ ابْنِي. أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ). وهذا بالطبع لا يعني التبني بالولادة، ولا حرفية لولادة جنسية. في إنجيل لوقا يثبت فيه لوقا نسب المسيح حيث يقول إن آدم هو ابن الله، وهي إشارة مجازية أيضاً إلى أن الله خلق آدم، ثم نعود لنقرأ في رؤيا يوحنا 21: 7: (مَنْ يَغْلِبْ يَرِثْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكُونُ لَهُ إِلَهاً وَهُوَ يَكُونُ لِيَ ابْناً)؛ وفي متى 5: 9 وعلى لسان السيد المسيح: (طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللَّهِ يُدْعَوْنَ)؛ وفي لوقا 20: 36 (...وَهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ إِذْ هُمْ أَبْنَاءُ الْقِيَامَةِ)؛ وفي متى 5: 5 (طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ).

فأي وراثة تلك ليهود العالم بقيام دولة لهم على أرض فلسطين وما حولها بعد كل ما جاء به السيد المسيح (صلى الله علبه وسلم)؟

ومن صحيفة المدار العراقية، العدد 220 السبت 2008/4/26، مقالة بعنوان المحافظون الجدد إعداد شادي قحوش، أقتطف ما يفيد بهذا الشأن: «(...إِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَيَتَّكِئُونَ مَعَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَأَمَّا بَنُو الْمَلَكُوتِ[2] فَيُطْرَحُونَ إِلَى

١- سعيد هلال الشريفي: جريدة تشرين السورية العدد 10165- تاريخ 2008/4/28 زاوية (أوراق ثقافية).

٢- (أي اليهود) يفصل المسيح (عليه السلام) بين مملكتي الحساب والآخرة السماوية وبين طالبي المجد الأرضي من اليهود: ملك وسلطان يهودي أرضي دون الإيمان بالقيامة والبعث، حيث تتنكر التوراة لحياة الآخرة والحساب.

الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ)[1]. الكنائس الشرقية، البطركيات الأرثوذكسية، روسيا اليونان، قبرص جورجيا وصربيا وروسيا البيضاء وأرمينيا والقبطية المصرية الأرثوذكسية وإنطاكية وسائر المشرق سوريا والعراق والأردن ولبنان والآشورية والسريانية، حافظت هذه الكنائس الشرقية والعربية على موقفها وأصالتها.

طلب هرتزل من البابا بيوس العاشر عام 1903 في زيارته له الموافقة على المشروع الصهيوني بدولة لليهود في فلسطين، لكن البابا رفض ذلك بقوله لهرتزل: (أصبحت القدس مقدسة لعلاقتها بحياة المسيح. ونحن لا نطبق ولا نسمح باستقرار اليهود هناك. واحتجّ هرتزل الصهيوني بعدم بقاء القدس بيد العثمانيين، لكن البابا أصر على رفضه قائلاً: (طالما أن اليهود ينكرون وجود مسيحنا وينتظرون مجيء مسيحهم الذي جاءنا فعلاً، فهم أولى الناس بالاعتراف به، ولكنهم ينكروه حتى يومنا هذا... لماذا الإصرار على القدس؟ لقد دمر هيكلكم إلى الأبد، أم لعلكم تريدون إعادة بنائه، وتقومون بالمذابح وتقديم الضحايا كما اعتدتم أن تفعلوا بالماضي)».

إنها رؤية إيمانية مسيحية بصيرة تبناها البابا بيوس العاشر، عبرت عن عمق روحي ومعرفة تاريخية ولاهوتية لمضمون الرسالة المسيحية التي بشرت بدمار الهيكل، وفي ذلك إنهاء إلهي لعهد قديم جائر طاغٍ مستبد ومستعبد لم يخلف سوى الحروب والضحايا والفتن، التي جاء السيد المسيح مقاوماً ومجاهداً في سبيل وقف جورها وطغيانها وماديتها، حاملاً صليبه وعذاباته ومقاومته ليكون شهيداً ومعلماً ومبشراً بالمحبة والفداء والسلام لكل البشرية.

في حديث مباشر على قناة الدنيا الفضائية مساء 2008/12/31، مع الرئيس السابق للكنائس السورية اللبنانية المشيخانية السيد القسيس معن بيطار، برزت وبشكل مشرف ومشرق أصالة المسيحية الشرقية العربية في موقف شجاع وصادق، ربما لا نجد له مثيلاً في كثير من العلماء وأصحاب الفتوى الإسلامية لما تضمنته أجوبة القسيس معن بيطار من عروبة وإسلامية جهادية عبرت عن الانتماء العميق لنهج المقاومة والممانعة الثورية المسيحية العربية وقواها المناضلة الحية، حيث دعا إلى الوحدة الإسلامية لقطبي إسلام إبراهيم: العيسوية والمحمدية. واعتبر السيد حسن نصر الله مناضلاً ومقاوماً صلباً بقوله: سواء كنت مسلماً سنياً أو شيعياً أو مسيحياً أرثوذكسياً أو كاثوليكياً، فأنت قائد عظيم ومقاوم تقود هذه الأمة نحو النصر. وأعطى مثالاً مشرفاً للسيد المسيح عليه السلام في وقوفه في وجه الملك هيرودس واليهود بإصرار وصمود وجهاد ثبّت به المسيح مبدأ المقاومة والصبر والجهاد، وبأن الروح لخالقها وحده، وأن الشهادة حق وواجب، وبأننا جميعاً مسلمون لله تعالى بسلام ودعوة أبينا إبراهيم (صلى الله عليه وسلم)، وأن الله من يملك الموت والقيامة. واستنكر جهل

١- العهد الجديد إنجيل متى 8: 11-12.

بعض الكنائس الغربية باعتناقها للمسيحية المتصهينة، وتحدث عمّا قام به اليهود من إفساد للمسيحية واختراق لها سنين طويلة، ومحاربتها وتضليل الكثير من الرهبان ورجال الدين تحقيقاً لأطماعهم ودعواتهم الشريرة. ودعا بعض العرب للعودة إلى ضمائرهم وعروبتهم بدعم المقاومة ووقف الانحناء والتبعية وسطوة الحكم والجاه، والرجوع إلى ضمائرهم وإسلامهم الصحيح ووحدتهم.

لا زلنا في بحثنا عن حقيقة ادّعاء الصهيونية في القرن السابع الميلادي حول الخزر ومملكة خازاريا على ضفاف نهر الفولغا، الذين ارتحلوا إلى أنحاء مختلفة من أوروبا الشرقية والغربية، حاملين معهم ديانتهم المعتنقة بعد الوثنية (اليهودية) شعباً يهودياً أو سامياً ليمتلك حق العودة من الشتات إلى أرض ينتمون إليها على أرض فلسطين وجوارها أسموها (أرض الميعاد) المزعومة، وهم الشعوب المختلفة بأعراقها ولغاتها ومواطنها وثقافاتها!

ماذا لو تم تهويد مليار من البشر ذوي المواطن المختلفة حول العالم؟ هل سيصبحون تلقائياً شعباً يهودياً يسمي نفسه شعب الرب، ليعود لموطنه الجديد ويشكل دولة في (أرض الميعاد الكتابية)؟!

أولئك غرباء عن أرض فلسطين التاريخية، يشملهم قانون العودة الصهيوني، بينما يحرم هذا الكيان الصهيوني السكان الشرعيين للأرض الفلسطينية من حقهم بالعودة لأراضيهم وممتلكاتهم بعد أن طردوا منها بقوة الإرهاب اليهودي الغربي العنصري والاستعماري في عام 1948!

إن فلسطين للفلسطينيين، سواء أكانوا يهوداً أو مسيحيين أو مسلمين، وحدهم يملكون حق المواطنة والإقامة فيها، ووحدهم أيضاً يشكلون شعباً ومستقبلاً، لا حلول سلمية ولا سلاماً عادلاً يحمل مقومات صموده واستمراره دون تحقيق حق العودة إلى أرض فلسطين التاريخية. إنه الحل الوحيد الذي سوف يؤسس للسلام العادل والشامل والدائم، والذي يجب أن يعتمد أساساً لأي مبادرة أو حل سياسي شامل.

إن علاقة يهود العالم بفلسطين والقدس هي العلاقة ذاتها التي تربط مسيحيي العالم بكنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم ومزارات الناصرة، تماماً كما هي علاقة مسلمي العالم ببيت المقدس ومكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث المسجد النبوي الشريف وبيت الله الحرام، فلا أحد يمتلك عقلاً وفكراً سليماً يشرع أو يتبنى قيام وطن مسيحي في فلسطين لمسيحيي العالم، ولا أن تكون مكة المكرمة وطناً قومياً لكل مسلمي العالم أيضاً!

يذكر المؤرخون في أقدم المعلومات التي وصلت عن الرحالة العربي ابن فضلان، السفير الموفد من الخليفة العباسي المقتدر بالله سنة (921م-309هـ) إلى ملك البلغار، أنه في طريق عودته مرّ بمملكة الخزر وعاصمتها (أتيل)، ووصف ما شاهده في تلك البلاد، قال: (الخزر اسم المملكة وأتيل العاصمة). وقال إنها

قطعتان: واحدة على غربي النهر المسمى أتل، وهي أكبرها؛ وقطعة على شرقه. والملك يسكن القطعة الغربية مقدارها في طول نحو فرسخ ويحيط بها سور... وملكهم يهودي، ويقال إن من حاشيته نحو أربعة آلاف رجل... والخزر كلهم يهود. وكان الصقالبة وكل من يجاورهم في طاعته، ويخاطبهم بالعبودية، ويدينون له بالطاعة.. والمهم هنا تأكيد ابن فضلان أن الملك وخاصته كانوا يهوداً (الغالب على أخلاقهم أخلاق أهل الأوثان)[1]

وذكر المسعودي أن الكثير من اليهود الذين خرجوا من الإمبراطورية الرومانية جاؤوا إلى الخزر بعد اضطهادهم في عهد الإمبراطور رومانوس. وكانت اليهودية آنذاك هي السائدة في الخزر. آلان الخانقان والوالي وأمير سمندر في داغستان الذي يمت بصلة قربى لهذا الأمير وكبار العمال، كانوا جميعهم على اليهودية، مع أن اليهود كانوا أقل من المسلمين والنصارى من حيث العدد)[2]. ويشير الدكتور أحمد سوسة في أحد بحوثه إلى يهود الخزر، بصدور كتاب للكاتب الأمريكي جون بيتي، يتناول فيه خطورة يهود الخزر على أمريكا، وتحت عنوان (الستار الحديدي حول أمريكا)، يلخص بعضاً مما جاء فيه: (صبّ الكاتب جام غضبه على يهود الخزر، إذ اعتبرهم دون يهود العالم الآخرين سبب المشاكل التي انهالت على أمريكا بوجودهم فيها، وذلك على أساس أن يهود الخزر دون بقية يهود العالم كانوا ولا يزالون متعصبين تعصباً أعمى للصهيونية اليهودية، إذ لم يسمح رجال الدين في وسطهم أن يتحرروا من الطوق الانعزالي الذي يعيشون فيه، لذلك فهو يحذر المسؤولين من العواقب الوخيمة في تأثير نفوذهم في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إلى وجوب تدارك الأمر قبل أن تتدهور مصالح أمريكا إلى الحضيض وتحل الكارثة، ويهيب بالمواطنين الأمريكيين المخلصين المتمسكين بالقيم الأمريكية وهم الأكثرية في البلاد، أن يتعاونوا على دفع الخطر، فيحافظوا على سياسة الدولة ونفوذها في أنحاء العالم ضمن إطار الحضارة المسيحية، وذلك بتغيير السياسة التي تسير عليها الولايات المتحدة حالياً بتأثير مخططات اليهود (يهود الخزر بوجه خاص) ونفوذهم.

وهذا لا يتم إلا بتطهير واسع في جهاز الدولة وتبديل البعثات الدبلوماسية إلى البلدان الإسلامية. ويقول المؤلف إن الدافع الذي حمله إلى وضع كتاب هو (تقديم معلومات مركزة عن المشاكل التي خلفتها فئة قليلة) تحمل مبادئ تتنافى وتقاليدنا. وهي مندفعة بحماس لتحقيق أهداف تهدد مصالحنا، ما يؤدي إلى دمار

١- ياقوت الحموي: معجم البلدان - الطبعة الأوروبية -440- ص 436: مادة الخزر.

2- DN.DUNLOP (THE JEWISH KHAZARS) N.Y1967 (SCHOCKEBBOOK)
اليهود الخزر بالتصرف عن أحمد سوسة.

بإثارة حرب عالمية ثالثة. وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة سنة 1951، فحاز على شهرة واسعة حتى طبع خمس عشرة مرة بين 1951-1956. وقد أعدت دار نشر للجامعيين في لبنان ملخصاً للكتاب باللغة العربية وتحت عنوان (الصهيونية لعبتها أمريكا)[1].

ما لخصه الدكتور أحمد سوسة من كتاب الكاتب الأمريكي جون بيتي يعبر بصدق عن رؤية مواطن أمريكي مسيحي التربية أصيل يعتز بوطنه ومسيحيته الصادقة، ويميز بوضوح شديد بين مصالح بلاده وشعبه وبين مصالح الصهيونية العالمية الساعية لتخريب العالم والديانة المسيحية، بالسيطرة فكراً وسياسة ولاهوتاً واقتصاداً وثقافةً. وما عبّر عنه الكاتب الأمريكي بيتي يذكرنا بأولئك القادة الصهاينة المؤسسين للفكر والعقيدة الصهيونية الحديثة ولقيام الدولة اليهودية الصهيونية، الذين حرّكوا وصنعوا كل الأحداث السياسية التي جرت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما نجم عن هذه الحروب من فتن ومجازر وتقسيمات جديدة واحتلالات استعمارية، وصولاً إلى مذابح الأرمن وتهجيرهم، والمحرقة النازية، وقرار الحكومة الاستعمارية البريطانية، بإشادة وطن قومي لليهود في فلسطين من خلال تنفيذ وعد بلفور اللوثري المشؤوم، وتآمر الإدارات الأمريكية المتعاقبة بالدس والتحريض لفرض الحصار على شعب العراق، إلى التخطيط والتحريض والضغط على إدارة بوش الصغير في حروبه الحمقاء على كل من أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان والسودان والصومال، وأخيراً باكستان، مع محاولات إشعال نار الحرب بين الجارتين النوويتين باكستان والهند، أولئك القادة الصهاينة من يهود الخزر وبقايا مملكة خازاريا في أوروبا الشرقية والغربية من مجرمي الحرب اليهود القادة للكيان الصهيوني ومؤسسيه، هرتزل، وايزمان، إحداعام، جانبوتسكي، بن غوريون، جولدامايز، روتشيلد، أشكول، مناحيم بيغن، شامير، نتنياهو، شيمون بيريز، شارون، أولمرت، ليبرمان، تسيبي ليفني، وجميعهم ينحدرون من الأصول الخازارية والأوروبية الشرقية من اليهود الروس والبولنديين والأوكرانيين والألمان والنمساويين الأيديش والسلاف والتشيك والبلغار، الذين اعتنق أجدادهم اليهودية في مطلع القرن السابع الميلادي، وتحول أسلافهم من الوثنية لليهودية، ويدعون زوراً الانتماء للسامية أو لبني إسراءيل. أولئك الغرباء عن المنطقة برمتها لا تربطهم أي رابطة عرقية إثنية ببني إسراءيل والنبي موسى، الذين سماهم قدماء المصريين (الخاسوت)، وهم بدورهم سمّوا الشعوب الأخرى المعتنقة للديانات غير اليهودية (الغويم). هؤلاء الغرباء عن فلسطين والمنطقة من (الخاسوت والغويم) سكان البلاد الأجنبية، هم في الواقع من يدير حرباً عنصرية إرهابية بحق سكان فلسطين الشرعيين، ويعملون على

1- JOHN BEATY (THE IRON CURTAIN OVER AMERICA-DALLAS TEXAS-II-1956(2).

ترحيلهم وإبادتهم، كما نرى في حربهم العدوانية على قطاع غزة. يقول المؤرخ والباحث في مجال الآثار الروسي ليف غوميليوف في كتابه القيّم (اكتشاف خازاريا مملكة الخزر): (إن القارئ المثقف تاريخياً يعرف أن الخزريين كانوا شعباً عاش في أسافل نهر الفولغا وأدان باليهودية. وفي العام 965م انتصر عليه سيفاتوسلاف إيغوروفتش أمير كييف، والقارئ - مؤرخ أو عالم متخصص في الآثار - يطرح كثيراً من الأسئلة: ما أصل الخزر؟ وما اللغة التي يتكلمون بها؟ لِمَ لم يسلم أحفادهم؟ وبأي طريقة استطاعوا أن يدينون باليهودية؟ والأكثر والأهم هو كيف تعامل الشعب الخزري نفسه بعضهم مع بعض ومع البلاد التي سكنها، والمملكة الخزرية الهائلة التي شملت تقريباً كل جنوب شرق أوروبا وسكنها كثير من الشعوب؟

كان في عداد رعايا الملك الخزري البلغار والكامسك، والبورتاسيون والسوفاريون والموردوف والتثرمسيون والفانشسيون والشماليون والسلاف، والمروج (الصقالبة). ومن الشرق جاوزت هذه المملكة الخوارزم، أي إنها سيطرت على مانفييثلاك و أوسيتيازي، وعلى كل سهوب الأورال الجنوبي؛ ومن الجنوب كانت (دربنت) المدينة الحدودية المشهورة بسورها الذي فصل القفقاس عن الممتلكات الخزرية؛ ومن الغرب كل القفقاس الشمالي والكروم السهبية وسهوب البحر الأسود حتى نهر الرينستر. وخضعت الكاربات لمملكة الخزر على الرغم من أن سكانها قطعاً ليسوا خزراً والآلان والكوسينج (الشركس) والبتشينيغ والمجريين الذين لم ينزحوا إلى أرضهم الحالية)[1].

من مقدمة المؤرخ غوميليوف نعلم كيف شملت مملكة خازاريا الهائلة كل جنوب شرق أوروبا الشرقية وجزء من آسيا، وكيف شكلت تلك الشعوب المختلفة رعايا للمملكة الخزرية من البحر الأسود ومحيطه، بما في ذلك الجزء الشمالي من تركيا الحالية إلى محيط بحيرة قزوين (بحر الخزر) ووصولاً إلى السلافيين وأطراف القفقاس وكل أوسيتيا، كانت هذه الشعوب تحت سيطرة هذه المملكة القوية التي اعتنقت الديانة اليهودية، وبقيت قروناً طويلة تخضع الشعوب المختلفة لسطوتها وسلطتها إلى أن انتصر عليها أمير كييف الروسي عام 965م.

ويظهر هنا سؤال ذو أهمية: إذا كان يهود بني إسراءيل اعتبروا غير الإسراءيليين عرقاً أجنبياً (غويم وأغيار) بزعم كتبة الرواية التوراتية، وعليه لم تسمح الشريعة والسلطة اللاهوتية الصارمة الاختلاط بالشعوب الأخرى أو الدخول إليهم، ادّعى ما سمي بحكماء وأنبياء اليهود المتأخرين أن غضب الرب

١- ليف غوميليوف: اكتشاف خازاريا، بلاد الخزر ص 53-54.

على بني إسراءيل ناجم عن اختلاطهم بهذه الشعوب وتعاونهم معها، وهم أبناء المنطقة التي دخلوا إليها من الكنعانيين والعمونيين والمؤابيين والأدوميين واليبوسيين والحثيين والمصريين، وساكنهم بنو إسراءيل حسب ما ذكرته الرواية التوراتية، فكيف سمحت هذه القوانين والمعتقدات الصارمة العنصرية اللاهوتية بدخول الوثنيين الخزريين والترك والبلغار والسلاف، وغيرهم، في الجماعة اليهودية ليصبحوا (ساميين) ينتمون إلى (شعب الرب) من بني إسراءيل الشعب المختار، ليعودوا من الشتات إلى (أرض الميعاد التوراتية)؟

كان ذلك مستحيلاً في البدايات، لأن الجماعة العبرية اعتبرت اليهودية ديانة وراثية وليست ديانة هدائية، وإلا لكانت جميع الشعوب التي ساكنها اليهود العبرانيين إسراءيلية. ما هي المبررات التي ابتدعتها الحركة الصهيونية العالمية في القرن التاسع عشر، وبررت فيها هذا التغير الجوهري في الانتماء والعقيدة اليهودية التلمودية الربوية؟ هل هو التحالف الكهنوتي الربوي الرأسمالي الاستعماري الإمبراطوري، الذي تأسس في القرن التاسع عشر عبر تحالف عضوي بين اليهودية والمسيحية المتصهينة للسيطرة على العالم وتطهيره من الكم البشري الفائض للشعوب غير البيضاء الغريبة المتوحشة الهمجية؟

قد يلقي بعض الضوء على هذا الجانب المؤرخ الروسي ليف غوميليوف من خلال ما كتبه بهذا الصدد (الداخلون حديثاً)، ويقصد المتهودين، الذين كانوا يعتبرون (منبوذو وبرص إسراءيل). وفي الواقع، إليكم ما كان في بداية القرن السادس بعد أن ألقى الوجيه مزدك القبض على الشاه قباز: حاول إقامة المساواة في الممتلكات بما فيها النساء، وهذه الثورة (من فوق) أثارت مقاومة عنيفة، وهيجت كل مجموعات السكان بمن فيهم اليهود، الذين كانوا في إيران أكثر من أي مكان آخر. وانقسمت المجموعة البابلية إلى معادين ومناصرين للمزدكيين. الأوائل أجبروا على الهروب إلى بيزنطة (يقصد الكاتب تركيا)، والآخرون صاروا في عداد المضطهدين بعد عام 530م عندما أعدم مزدك شنقاً. وهرب المزدكيّون الناجون إلى القفقاس. عندئذٍ ظهرت في السهب الواسع بين نهري السولاق والتيرك مجموعة اليهود المحافظين على السبت والختان، والناسين لكل الوصايا الأخرى. وعاشوا في وفاق مع الخزر، وخرجوا معهم في الحملات. وفي القرن الثامن استحق أحد الصناديد اليهود لقيامه بمآثر منصب قائد عسكري، واستعاد الطقوس اليهودية وفي ترجمة مؤلفات يهودا بارزيل المؤلف اليهودي من القرن الحادي عشر، ورد هذا الخبر هكذا: (صار الخزر مهتدين حديثاً، ولهم

ملوك مهتدون لليهودية)، إلا أن شيشمان يشير إلى أن كلمة (غير) تعني في التوراة الغريب الذي انضم إلى شعب آخر ونال حقوق القبيلة، أو إنه معنى (مهتدٍ حديثاً) كلمة أدخلت متأخرة. ومن الحكم بحسب المجرى العام للأحداث يكون المعنى القديم في الحالة الراهنة والمفضل، لأن بولان اتبع القرائية وليس التلمودية.، وخلق تعايش اليهود مع الخزر ظروفاً سانحة لهجرة اليهود التلموديين البيزنطيين إلى خازاريا. ويضيف: ولكن هنا يكمن الباعث الأبعد، فالخزر كقبيلة أوراسية يعتبرون النسب للأب، واليهود للأم، لذلك فابن الخزري واليهودية (الأم) يحتفظ بجميع حقوق القبيلة الخزرية، ويمكن قبوله في الجماعة. أما ابن اليهودي والخزرية فكان غريباً بالنسبة لهؤلاء وأولئك. وشكل الأخيرون جماعة صغيرة من كاريزمي القرم تجمع ملامحهم الأنثربولوجية (السلالية) بين الشخصية التركية والشرق أدنوية. أما الأولون فشكلوا جماعة خزرية يهودية من ضمنها السلالة الملكية التركية التي استولت على السلطة في عشرينيات القرن التاسع في خازاريا)[1].

هكذا كان واقع اليهود الخزريين في القرن التاسع للميلاد في بلاد الخزر وأوراسيا وأوروبا الشرقية التي كانت مواطنهم وأراضي اعتناقهم لليهودية كديانة هدائية أممية، فماذا عن العصر الحديث لشعوب تلك المناطق المختلفة والأعراق والألسنة المتعددة، ومع استمالة بعض القوى الاستعمارية للصهيونية العالمية ببروتوكولاتها السرية ومنظماتها الماسونية العالمية، التي سيطرت على مراكز صنع القرار الدولي ومفاصل الحياة الغربية، مالياً ربوياً، وإعلامياً، وثقافياً، وبعقيدة تلمودية سرية خرافية قامت بتوظيفها لها لخدمة مصالحها المادية؟ وكما كتب الكاتب الأمريكي جون بيتي في كتابه الستار الحديدي حول أمريكا، عن التغلغل والسيطرة لليهودية الخزرية خاصةً، من جميع مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية والإعلامية، ومراكز صنع القرار للدول الكبرى الاستعمارية والسيطرة على البعثات الدبلوماسية الموجهة للدول العربية والإسلامية. هذه القوى الاستعمارية واللاهوتية المسيطرة هي من صنعت دولة إسرائيل العنصرية اليهودية ومَدَّتها بكل الدعم الدولي، وبكل أسباب البقاء والقوة الطاغية، بما في ذلك المفاعلات والأسلحة النووية (فرنسا وبريطانيا)، التي تهدد كامل المنطقة العربية والإسلامية، وفي المستقبل الأبعد ستهدد كل الشعوب والأمم التي تعتنق المسيحية.

١- ليف غوميليوف: اكتشاف خازاريا، بلاد الخزر ص 253-254.

ولكن هل استطاع أو يستطيع أولئك المستوطنون الغرباء الغربيون الجدد تشكيل وإقامة كيان سياسي واجتماعي متماسك ومتوازن قابل للحياة، ذي مضمون مدني حضاري وإنساني يمكنه البقاء في محيط حضاري تعددي؟ أم أن هذا الكيان الشاذ قد تحول إلى كيان أصولي عنصري يهودي تلمودي شكّل ويشكل مصدراً دائماً للتهديد والتوتر والعنف في المنطقة ليعتبر مجتمعاً تمييزياً متناقضاً مع ذاته، ويحمل جميع التناقضات الفكرية والتراثية واللغوية والعرقية، إضافةً إلى النزعة العسكرية الفاشية التي لا يمكنها أن تؤسس لدولة عصرية متجانسة تكون دولة لجميع مواطنيها وأعراقها المختلفة؟

الأزمات النفسية والتناقضات الفكرية والتآكل الذاتي أصبح واضحاً من خلال ما يكتبه المفكرون والكتاب الإسرائيليون، كالكاتب والمؤرخ البروفيسور في جامعة تل أبيب شلومو زاند مؤلف كتاب (متى وكيف اخترع الشعب اليهودي؟). وفي حوار له مع صحيفة هآرتس الصهيونية يسعى الكاتب في كتابه إلى محاولة إثبات أن اليهود الذين يعيشون في إسرائيل وأماكن أخرى من العالم لا ينحدرون جميعهم من الشعب القديم الذي سكن (مملكة يهوذا) أثناء الفترة الأولى والثانية للهيكل، ذلك أن أصلهم، استناداً إلى ما يقوله (زاند)، هو من شعوب مختلفة من حوض البحر المتوسط والمناطق المجاورة له. وهذا لا ينطبق فقط على يهود شمال أفريقيا، بل ينطبق كذلك على معظم المناطق التي دان أهلها بالوثنية وتحولوا إلى اليهودية، وعلى يهود اليمن (بقايا مملكة حمير) في شبه الجزيرة العربية الذين تحولوا إلى اليهودية في القرن الرابع للميلاد، واليهود الأشكيناز في شرق أوروبا واللاجئين (من مملكة الخزر)، الذين تحولوا إلى اليهودية في القرن الثامن، وبشكل مختلف عن المؤرخين الجدد الذين حاولوا تفحص افتراضات تاريخية صهيونية. لقد حاول أن يثبت أن الشعب اليهودي لم يوجد قط كأمة عرقية (قومية) بأصل معروف، ولكنه مزيج من الألوان ومجموعات بشرية اعتنقت اليهودية في مراحل مختلفة من التاريخ، وقد حاور عدداً من المذاهب الفكرية الصهيونية حول المفهوم الأسطوري الملفق، الذي يعتبر اليهود شعباً قديماً. باعتبار ذلك يعود إلى تفكير عنصري حقيقي. مرت أوقات حين كان أحد ما يجادل في كون اليهود ينتمون إلى شعب من أصول وثنية، فإنه سرعان ما يوصف باعتباره معادياً للسامية بشكل فوري)[1].

أفرد زاند جزءاً مهماً من كتابه في محاولة منطقية وعلمية موفقة ليثبت ما حاولت إثباته في هذا الفصل وفي الفصول السابقة، بما يفيد أن بني إسراءيل

١- شلومو زاند: متى وكيف اخترع الشعب اليهودي؟ عن هآرتس ترجمة سليمان الدباغ - المقدمة - 2008/3/12.

استقوا دياناتهم وعاداتهم ودعواتهم من الأصول الوثنية وثقافاتها المختلفة من شعوب عاشت بينها منذ بروز القبيلة اليعقوبية، بدءاً من اختلاطهم بالكنعانيين الفلسطينيين في حقبة النبي إبراهيم، واختلاطهم أيضاً بالمصريين والبابليين والآشوريين والفرس من خلال قوله المهم: (إن الشعب اليهودي مزيج من الألوان بمجموعات بشرية اعتنقت اليهودية في مراحل مختلفة من التاريخ). وفي إشارته أيضاً ليهود مملكة حمير اليمانية ويهود شمال أفريقيا، ولا سيما من البربر، وإلى يهود مملكة الخزر، يتبنى بذلك السيد زاند ما تبنيته في مقاطع متعددة، هدائية الدعوة الموسوية وأمميتها وكونيتها التي لا يمكن لها أن تكون ديانة خاصة وراثية للقبيلة الإسرائيلية، وهو اتجاه فكري عصري بعيد عن العنصرية والانعزالية. وذهب زاند بعيداً عن ادّعاءات الفكر الصهيوني الظلامي، باعتبار أن الفكرة الصهيونية مفهوم ملفق يقود إلى تفكير عنصري ومنطق متخلف؛ هذا المنطق الذي يجعل من نظام الدولة اليهودية متبنياً لخطاب الأموات اللاهوتي، وبعيداً كل البعد عن الخطاب التقدمي العصري الذي يحاكي الحاضر والمستقبل وحق المواطنة داخل الدولة التي يجب عليها أن تمثل وتتبنى جميع المواطنين المتواجدين الذين يعيشون على أراضيها وتحت سلطة قانونها ورعايتها.

سنرى ما يقوله زاند عن يهود شمال أفريقيا المتهودين في القرن الرابع للميلاد في زمن الوثنية، وتعايش ما تبقى من بني إسراءيل والعموريين والكنعانيين في دلتا النيل المصرية باعتبار اليهودية ديانة كونية هدائية كما أسلفنا، يقول: (إن القدر لم يكن منصفاً مع داهيا الكاهينا زعيمة البربر في جبال الأوراس، رغم أنها كانت تفتخر بيهوديتها، ذلك أننا بصفتنا إسرائيليين فقط قد تنامى إلينا اسم هذه الملكة المحاربة، والتي تمكنت من وقف تقدم الجيش الإسلامي في القرن السابع الميلادي. واستناداً إلى المؤرخ البروفيسور شلومو زاند، فإن مملكة البربر وقبائل محلية أخرى تحولت إلى اليهودية الأسبانية، وهو ما يوضح أن يهود شمال أفريقيا نشؤوا من قبائل متنوعة أصبحت يهودية، وليس من المجتمعات التي خرجت (طردت) من القدس)[1].

أقرأ في كتاب زاند وبموضوعية تفهماً للعقلية الصهيونية التي نشأت في أوروبا كنتيجة لنشاط الحركات القومية الشوفينية التي تنامت هناك مع بدايات الثورة الصناعية العلمية في بدايات القرن التاسع عشر بعد انحسار الدور

١- شلومو زاند: متى وكيف اخترع الشعب اليهودي؟ عن هآرتس ترجمة سليمان الدباغ - المقدمة - 2008/3/12. مع الصحفي في هآرتس الصهيونية أوفري إيلاني.

الرئيس الذي ساهم فيه الإقطاع ورجال الكنيسة والأشراف بالسيطرة السياسية والاقتصادية السلطوية. هذا التحول من المجتمع الزراعي إلى المجتمع الصناعي الرأسمالي دفع إلى بروز الحركات القومية الأوروبية وأسس لبلورة الشخصية القومية للأمة على أسس علمانية وعرقية في آن واحد، كما كان الحال مع النزعة القومية الجرمانية التي قالت بسمو العرق الجرماني على الأعراق الإنسانية الأخرى، والأمة الألمانية المتميزة المتفوقة التي غذتها ادّعاءات (الإنسان الأعلى)، والتي اجتاحت أوروبا وغذت المشاعر العنصرية والفوقية لثقافتها. ومن الأمثلة كتاب بروكس آدمز (قانون الحضارة والانحطاط)، الذي أشار فيه إلى مسألة تأرجح البشرية بين البربرية المتوحشة والحضارة المدنية، مؤكداً في سياق آخر أن البربرية المتوحشة كانت ضرورة حتمية لنشوء الإمبراطوريات الاستعمارية، مع تنامي تبني هذه النظريات العنصرية الاستعلائية في أوروبا، ثم الإعلان عن ظهور الحركة الصهيونية على أسس توراتية تلمودية قديمة استمدت منها أوروبا عنصريتها ووجدت فيه نظاماً مثالياً عنصرياً استعمارياً. وهو المبدأ الذي استندت إليه وتبنته النازية الألمانية الهتلرية، وتعلمت منه ادّعاءاتها الفوقية الاستعلائية. ومن هنا أيضاً تم تبني شعار (الشعب المختار)، والمميز للنازية الألمانية والجماعات الأنجلوساكسونية، التي خلقت الولايات المتحدة الأمريكية (كأرض ميعاد) جديدة لشعب أنجلوساكسوني مختار من قبل الرب على أنقاض وجثث ضحايا السكان الأصليين لقارة أمريكا! ويقول زاند: (فإن وصف اليهود باعتبارهم أمة عزلت نفسها وتتجول في المنافي تجولوا عبر البحار والقارات ووصلوا أخيراً إلى نهاية الأرض، فقد عادوا على شكل مجموعات لوطنهم اليتيم، والذي ليس سوى أسطورة قومية على غرار الحركات القومية في أوروبا التي شهدت عصراً ذهبياً، والتي اخترعت ماضياً بطولياً (على سبيل المثال): اليونان وقبائل التاتينك، كي يثبتوا أنهم موجودون منذ بداية التاريخ. كذلك فإن أولى براعم القومية اليهودية ازدهرت في اتجاه الضوء القوي الذي تشكلت منابعه في مملكة (داود الأسطورية)، في رأي زاند هكذا هي الحقيقة: تم اختراع الشعب اليهودي في مرحلة محددة من القرن التاسع عشر، ذلك أن المثقفين اليهود الذين نشؤوا في ألمانيا متأثرين بالشخصية التراثية للأمة الألمانية، أخذوا على عاتقهم مهمة اختراع شعب عن طريق استعادة الماضي بتوق لخلق شعبٍ يهودي معاصر)[1].

ويشرح زاند أيضاً في معرض حديثه أسطورة الخروج والطرد من الأرض الموعودة ليعتبر - وقد عبّرت عن ذلك في الفصول السابقة - أن قصة الخروج كما وردت في الحكاية الكتابية لا تعدو عن كونها أسطورة، وأن ما سمي

١- شلوموزاند: متى وكيف اخترع الشعب اليهودي؟ عن هآرتس. ترجمة سليمان الصباغ - المقدمة - 2008/3/12 مع الصحفي في هآرتس الصهيونية أوفري إيلاني.

(بالشتات) لليهود لا يعدو كذلك عن كونه أسطورة لم تحدث أبداً، وهي تدخل في مجال (الخيال الجمعي)، أو كما قال فرويد (عودة المكبوت) داخل الخيال الجمعي التي نسبها فرويد أيضاً إلى بدايات عرقية. يقول بهذا الشأن زاند تحت عنوان اختراع مفهوم الشتات (الديسبورا): «بعد أن أجبر اليهود على الخروج من أرضهم استمروا مخلصين لها من خلال تصورهم لها، لم يتوقفوا عن الصلاة بأمل العودة إليها ولمّ الشمل فيها لنيل حريتهم السياسية. وقد شكل هذا مقدمة إعلان استقلال (دولة إسرائيل)». وهذا المقطع الذي يفتتح به زاند الفصل الثالث من كتابه (اختراع الشتات)، ويجادل قائلاً: (إن طرد الشعب اليهودي من أرضه لم يحدث أبداً)، وإن بناء (النموذج المثالي) كان مطلوباً لبناء ذاكرة طويلة الأمد متخيلة أمة وعرقاً مطرداً لتشكل الأساس للاستمرارية المباشرة لشعب الإنجيل (يقصد التوراة) التي سبقتها. ويشرح أنه في إطار التأثير الذي أحدثه المؤرخون الذين تعاملوا مع القضية نفسها في السنوات الحديثة، فإنه من جهته يسعى لإثبات:

(أن قضية خروج الشعب اليهودي هو أسطورة مسيحية أصيلة صورت الأحداث باعتبارها (عقاباً إلهياً طبق على اليهود لأنهم رفضوا البشارة المسيحية). لقد بدأت البحث في دراسات الخروج والطرد من الأرض وأحداثها الأساسية في التاريخ اليهودي مثل (الهولوكوست)، ولكني كنت مدهوشاً لأنني اكتشفت افتقارها لأدب يعبر عنها، والسبب في ذلك أنه لم يكن هناك من طرد للناس من الوطن)[1] [2]. ويجيب زاند عن سؤال الصحافي في هآرتس الذي يتناول مسألة التحول من

١- شلومو زاند: متى وكيف اخترع الشعب اليهودي؟

٢- تتمحور الفكرة الصهيونية بكل تناقضاتها وعصبويتها حول تفسير خاطئ للتاريخ، ذلك من خلال ربطها لهذا التاريخ المدعى، بالتفسير الخاص (اللاهوتي الكتابي) لمعنى اليهودية، وربطها بفلسطين عنوةً، في حين أن المصطلح (يهوذا - يهوديم - ياهو) هو مصطلح آشوري فارسي أخذ به في أزمنة هذه الإمبراطوريات الحاكمة للدلالة المكانية والجغرافية لتواجد معتنقي ديانة (يهوه) (يهوذا) ضمن الكيان السياسي لأراضي تلك الإمبراطوريات السائدة، وبوصفهم أتباع العقيدة اليهودية من بين سكان هذه الإمبراطورية، وهذا لا يعني مطلقاً أن شعوب هذه المنطقة ما بين الفرات والنيل هي شعوب ذات ديانة يهودية.

وفي مصر، وتحديداً (جزيرة الفيلة)، تواجد أتباع الديانة اليهودية من المصريين والأحباش، وغيرهم، وهم خليط من شعوب المنطقة الذين أدانوا باليهودية. هذه الجماعة بَنَت هيكلها هناك وأقامت شعائرها، ولم تكن لهذه الجماعة أي رابطة أو صلة عرقية أو جغرافية أو سياسية ببني إسراءيل (آل يعقوب)، وحيث شكلت هناك اليهودية في الاسكندرية وبرقة وقبرص وصولاً إلى روما (ديانة هدائية) أبعد ما تكون عن الديانة العرقية الوراثية. وكانت علاقة هذه الأقوام بالقدس تماماً كعلاقة المسيحيين الغربيين

الوثنية إلى اليهودية لشعوب مختلفة ليست عبرانية لا تشكل شعباً أو أمة يهودية، لا سيما شعوب شمال أفريقيا والعربية والخزر، التي تحولت فيما بعد بمعظمها إلى الإسلام والمسيحية، فيجيب بقوله: (لقد سألت نفسي عن المجتمعات اليهودية الكبيرة التي ظهرت في أسبانيا، ومن ثم رأيت طارق بن زياد القائد المسلم الفذ الذي غزا أسبانيا، لقد كان بربرياً، وكذلك القسم الأعظم من جنوده، كذلك كانت داهيا الكاهينا ملكة بربرية يهودية، وكانت قد هزمت قبل ذلك بـ (15عاماً). وللحقيقة، فإن العديد من المصادر المسيحية تذكر أن عدداً من غزاة أسبانيا كان من هؤلاء الجنود البربر الذين اعتنقوا اليهودية)[1].

لعل زاند قد زودنا بمعلومات واستنتاجات منطقية تدفع في اتجاه سؤالنا الاستفهامي لهذا الفصل: (هل يشكل يهود العالم شعباً؟).

البربر المغاربة الذين اعتنقوا معظمهم اليهودية كبديل عن الوثنية السائدة وقتها، هل غير اعتناقهم لليهودية من كونهم بربراً مغاربة ومن شمال أفريقيا. لقد تحولوا معظمهم بعد ذلك إلى المسيحية والإسلام، فهل تحولوا من شعب يهودي ليصبحوا شعباً مسلماً أو مسيحياً ولم يعودوا بربراً ومغاربة؟

وهل تحول الحميريون اليمانيون، والحجازيون، والعراقيون، وأهل الشام، الذين اعتنقوا اليهودية، من شعب عربي إلى يهود وشعب يهودي، ثم عادوا عرباً بعد اعتناقهم الإسلام والمسيحية؟ أليسوا عرباً من الوثنية إلى ما بعد اليهودية والإسلام والمسيحية؟

أما بالنسبة ليهود أوروبا الشرقية فيجيب زاند عن سؤال افتراضي حول ما إذا ما كانت فكرة أن أصل اليهود الشرقيين (خزريّون) قد تهدد الكيان

بكنيستي القيامة والمهد، وكما هو الحال اليوم في علاقة المسلمين غير العرب بمكة المكرمة وبيت المقدس.

إن ترديد الأناجيل لعبارة (بكورية اليهودية)، هي إشارات إلى تواجد أتباع اليهودية كديانة في منطقة تعيش فيها أقوام ذات معتقدات ومذاهب مختلفة. ولم يكن هذا الوصف سياسياً، وكذلك لا يشير إلى كيان مستقل أو عرق مميز عن الأعراق الأخرى من أبناء المنطقة.

ولعل تحديد مفهوم خاص إلى (أرض إسرائيل) من منطق الانتماء الديني وتوصيف هذا الدين بالكيان السياسي والهوية بغض النظر عن الانتماء الوطني أو الإثني وحقوق الملكية، هو أكثر ما يجعل من الدعوة الصهيونية دعوة عنصرية ناشزة عن مسيرة التاريخ. وهذا ما يجعل من اليهودية أبعد ما تكون عن رسالة موسى الأممية، ويحولها صهيونياً إلى حركة معادية ومواجهة لكل شعوب وأمم العالم غير اليهودية.

١- شلومو زاند: متى وكيف اخترع الشعب اليهودي؟

الصهيوني، يقول: (كلا، لا أعتقد أن الأسطورة التاريخية للخروج والتجوال هي منبع الشرعية لوجودنا هنا (يقصد في إسرائيل)، ولذلك فأنا لا أمانع بتصديق فكرة أنني خزري في الأصل. أنا لست خائفاً من تقويض وجودنا هنا لأن خصائص دولة إسرائيل لا تعوض إلا بطرائق جدية أكثر بكثير، ذلك أن ما يشكل أساس وجودنا هنا ليس حقوقاً تاريخية أسطورية، إنما أكثر من ذلك بكثير للبدء بتأسيس مجتمع منفتح لكل المواطنين الإسرائيليين). ويؤكد زاند وجوب حل مسألة يهودية الدولة دون الإشارة إليها مباشرة، وضرورة المعالجة الجذرية لهذا الادّعاء التوراتي، بقوله: (هناك درجة من التحريف، فهذه معالجة جينية بيولوجية عرقية، ولكن إسرائيل لم توجد دولة يهودية. وإذا لم تتطور إسرائيل كدولة منفتحة متعددة المجتمعات فسوف نشهد كوسوفو في الجليل)[1].

يعود بنا شلومو زاند إلى ما قاله أبراهام بورغ رئيس الكنيست الإسرائيلي السابق في كتابه (الانتصار على هتلر). ويفيد ما قاله باختصار: (إن التعصب والتشدد والبطش والغطرسة والجرائم المرتكبة بحق مواطني الأراضي العربية المحتلة، إنما هي نابعة بأسبابها الرئيسة من (عدم قدرة العرب من الانتصار علينا (أي على إسرائيل) في ميدان المعركة العسكرية).

ونرى اليوم مدى الشعور بالإحباط والعجز وحالة التفكك السياسي والاجتماعي والتوتر النفسي التي تسود المجتمع الصهيوني وقيادته الفكرية والسياسية والعسكرية نتيجة لما حققته المقاومة الإسلامية اللبنانية وحلفائها أثناء حرب تموز 2006، والتي كانت مدبرةً صهيونياً وأمريكياً وعربياً! ونتيجة لهذه المقاومة في لبنان ومع ما رافقها من مقاومة بطولية في العراق وفلسطين وأفغانستان والصومال، سقطت مشاريع الإدارة الأمريكية الإرهابية التي خططت لتنفيذها في المنطقة العربية والإسلامية، بما سمي (الشرق الأوسط الجديد)، بفعل تحالف قوى المقاومة والممانعة العربية والإسلامية، ولا سيما إذا ما استمر صمود وثبات المقاومة الفلسطينية في معركة قطاع غزة الصامد، واستطاعت المقاومة وجماهيرها الصابرة منع القوات الإسرائيلية من تحقيق أهدافها وأهداف مؤيديها من الأنظمة العربية المتواطئة مع الصهيونية الأمريكية التوراتية وبعض جواسيسها في داخل ما يسمى بالسلطة الوطنية الفلسطينية المتواطئة والمتحالفة مع الصهيونية وبعض أنظمة الحكم العربية لفرض شروط الاستسلام الصهيونية على الأمة وقواها المقاومة.

أختم هذا الفصل بالتمييز بين بني إسراءيل الكتابيين وما بين العبرانيين كجماعة متوحشة ومنبوذة اجتماعياً وشعبياً قبل نزول الوحي والتوراة على موسى (صلى الله عليه وسلم) ولعدة قرون، وبين ما أثبته البروفيسور توماس طمسن في كتابه (الماضي الخرافي التوراة والتاريخ)، حيث يقول: «من غير

١- شلومو زاند: متى وكيف اخترع الشعب اليهودي؟

المفاجئ أن نلقى صعوبة في تحديد هوية أي من هذه الإسرائيليات الكتابية، والمرتبطة كتابياً بشعوب وأمم تاريخية محددة. ثمة عدد من أسماء الشعوب تظهر لأول مرة في نصوص العهد البرونزي. هذه الأسماء تتخذ أيضاً تشكيلة من المعاني على مرّ القرون، على سبيل المثال. على الرغم من أن اسم (العبرانية) الذي يطلق على لغة الكتاب، ينتمي إلى فترة تشكيل (الكتاب)، فإن الاسم (عبرانيون) المستخدم كاسم يدل على (شعب) يعود إلى أبعد من ذلك بكثير، ليشير إلى فئة أو نوع الشخص. تظهر مصطلحات رويت في نصوص سومرية وآشورية، بابلية ومصرية، في أشكال (سئ غاز) وخافيرو وعافيرو. هذه المصطلحات تدل على أفراد أو جماعات لم يكونوا مقبولين ضمن البنى السياسية المقبولة لتحالفات وولاءات الحماية التي كانت تحكم المجتمع، هؤلاء (العبرانيون) كانوا (خارجين عن القانون) أدبياً ورمزياً، وبشكل متطابق إلى حد كبير مع شخصيات أسطورية في القصة، مثل داود في سفري صموئيل الأول والثاني، أو مثل إبراهيم في سفر التكوين الإصحاحين 12-14، حيث يطلق عليهما اسم (العبرانيون)»[1].

١- توماس طمسن: الماضي الخرافي ص 149.

استشراق، استكشاف
تبشير، احتلال

تشكل عناوين هذا الفصل الأساس والبرنامج التوراتي الذي استقى منه الغرب القديم لاهوته الجاهل على يد كهنته وساسته وملوكه وأمرائه، الذين تشربوا مبادئهم ومناهجهم وممارساتهم الاستعمارية العدوانية والاستيطانية من النصوص المنحولة في الرواية الكتابية للعهد القديم، التي أباحت لهم سلب الآخر ونهبه واستعباده واحتلال أرضه واحتقاره، من الشعوب غير الأوروبية البيضاء، لأن مدوّنو التوراة المحرفة اعتبروها شعوباً من درجات أدنى: شعوباً إباحية متوحشة، ملعونة إلهياً ونجسة عرقياً وتكوينياً. اختار الإله لنفسه ابناً وشعباً مختاراً شرع له استباحتها وتحريمها وحرقها بالنار وإبادتها وسلب ممتلكاتها ووراثة أراضيها وثرواتها؛ هذا ما تقوله الأسطورة التوراتية التي تضمنها (الكتاب المقدس)!

أما مبادئ الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان ورسالة السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم)، التي تدعو للعدالة والمساواة والحق والتسامح والمحبة في الله والسلام، فهي مبادئ ومثل وقيم لا تنطبق إلا على اليهود الصهاينة والشعوب الغربية اللطيفة ذات الجذور الثقافية والحضارية الكتابية التلمودية!

أستطيع القول عن قناعة تامة إن المبادئ الإلهية (الشاذة) الواردة في القصة الخرافية العبرية، جاءت كأسطورة تتناسب في دعواتها العنصرية مع العقلية والنفسية الغربية الطامحة إلى الهيمنة والسيطرة الرأسمالية الربوية ومصالحها التوسعية والاستيطانية، التي تتبناها النخبة الكهنوتية والسياسية المتسلطة على الشعوب الأوروبية، وقواها الشعبية الحرة والإنسانية، وعلى الكنائس المسيحية

المؤمنة، التي لم تستطع الصهيونية العالمية التلمودية اختراقها والسيطرة عليها، ولا يزال عمل هذه النخبة العنصرية ماثلاً أمامنا وشاهداً حياً، فالولايات المتحدة الأمريكية العظيمة اليوم قامت على بحرٍ من دماء الهنود الحمر "سكان القارة الأصليين"، ما سماه المبشرون الأوائل الذين جابوا العالم الجديد يحملون أسفارهم على ظهورهم بـ أرض (كنعان الجديدة). قام الأوروبيون المغامرون والمنبوذون المهاجرون والباحثون عن الذهب وعن الأملاك بإبادة الحضارات القديمة من ثقافات ولغات وفنون وتقاليد، وربما أفنوها تماماً ليصنعوا مجد الغرب الأمريكي الهمجي، معتمدين على نصوص هذه الرواية الكتابية المحرفة للعهد القديم. ويمكننا أن نتساءل هنا: كيف انتقلت (أرض كنعان) فلسطين التاريخية إلى القارة الأمريكية؟

إذاً، (كنعان الجديدة) هذه مجرد فكرة ورمز لكل أرض يقرر الغربيون التلموديون الاستيلاء عليها؛ فكرة متحركة روجوا لها بأدبياتهم، حتى في أفلامهم السينمائية وكتبهم. استخدموا كل الوسائل المتاحة ليقنعوا العالم بمشروعية ما قاموا به، ولا يزال المنطق ذاته يحرك قاطني هذه القارة، حيث البقاء للأقوى وللأكثر استبداداً وليس للأحق، إذ نشهد أن قليلاً جداً ممن بقي من الشعب الأصلي يكافح لاستعادة شذرات من لغته الأم التي مُنع تداولها تماماً لإماتتها، والقليل من تاريخه الأصلي ومن تقاليد دياناته المُبادة من قبل المبشرين المسلحين بدين ونصوص تكفر وتقهر وتجرم كل من لا يندرج تحت لواء كتابها المقدس، الذي دخل للقارة الأمريكية مع سلاح الرجل الأبيض. هذا الأمر لم يحدث فقط في القارة الأمريكية، بل في أستراليا وجميع جزر المحيطات التي أصبحت مستعمرات للإمبراطوريات الأوروبية.

و لا يزال عملها المتوحش في أفريقيا ممعناً في إذلال واستعباد الشعوب الأفريقية وسلبها وإفقارها. وأعمالها الاستبدادية كانت ترجمةً واضحةً لثقافتها الموروثة، فيما تعرضت له جمهورية جنوب أفريقيا من نظام فصل عنصري أوروبي، أنجلوساكسوني، واصلت فيه الإمبريالية البريطانية وحشيتها في العصر الحديث.

وكما يحدث في فلسطين المحتلة اليوم، حيث يقوم الاحتلال الإسرائيلي بمحاولة كبيرة لمحو التاريخ الفلسطيني عن طريق منع تدريسه في أراضي 48، بينما في أراضي 67 والضفة الغربية يدرس التاريخ الفلسطيني من وجهة نظر الملكية الأردنية، وفي غزة يدرس تاريخ مصر وتاريخ فلسطين من وجهة نظر الدولة المصرية. كما تحارب اللغة العربية والتاريخ العربي، ويدرس التاريخ اليهودي وتاريخ الكيان الإسرائيلي والأدب العبري، وبالتالي يدرس تاريخ ولغة المحتل بدلاً من تاريخ سكان البلاد الأصليين في عملية منظمة لمحو الذاكرة القريبة، وربما استبدالها، كما عمل ويعمل على تزوير الذاكرة المغرقة في القدم ليُشرعن عملية الاحتلال.

ومع التقدم العلمي، ولا سيما علم استكشاف وفك رموز اللغات القديمة، وازدياد الوعي والاهتمام بالتراث الإنساني، برز العديد من الباحثين المختصين بالعلوم والمعارف الكتابية، ومنهم من تميز بفكرٍ علمي وموضوعي، لا سيما من الغربيين، من تمتع بروح مهنية عالية، وأثبت من خلال بحثه الموضوعي مخالفة ادّعاءات مزاعم الرواية التوراتية للحقيقة، وعمق تناقضاتها التاريخية والجغرافية المجافية للمنطق والعلم، وتناقضها الواضح مع المكتشفات الأثرية ودلالات رموز اللغات القديمة، لا سيما ما اكتشف في (إيبلا وأوغاريت)، ما دفع إلى إعادة النظر والتفكير بشكل علمي وتطبيقي، إذ إن الإشارات إلى نقض نصوص بعض أسفار العهد القديم بدأت منذ القرن السابع عشر، لكنه كان نقضاً خجولاً ومبطناً. ونظراً لطبيعة العصر والمرحلة حاول دراسة العهد القديم من وجهة نظر تاريخية استدل فيها على إلحاق أسفار في عهود متأخرة، وعلى وضع كلام على لسان موسى لأحداث جرت بعد موته، لكنه كان نقداً مُبشِّراً، حتى إنه وصلَ اليوم لإثارة الكثير من علامات الاستفهام الواضحة حول الرواية الكتابية برمتها.

تبنى أرباب الأنظمة الربوية والإقطاعية السلطوية (ملوك وأمراء ولوردات ونبلاء) الجانب الذي يخدم مصالحهم وأطماعهم وأحلامهم الإمبراطورية التوسعية، ممّا ورد تحريفاً داخل الرواية الكتابية العبرية، وسيطروا على الكهنة الجهلة وأرباب الكنيسة الأوروبية الغربية المتحالفة مع الإقطاع والرأسمالية الربوية، وتوجهوا بالكنيسة بما يخدم مصالحهم المادية والاستعمارية، وابتعدوا بها عن جوهر وروح الدعوة المسيحية الروحية والإنسانية، حيث استطاعوا ولقرون عدة اضطهاد وتجهيل وخداع شعوبهم، لا سيما الطبقات الكادحة منها، عبر رجال اللاهوت والكنائس المتحالفة مع طبقة (الأشراف والملوك والأمراء والنبلاء) المغامرين والمتسلطين والإقطاعيين المتنفذين.

الأنجلوساكسون، وغيرهم من أوروبا الغربية (أسبانيا، فرنسا، إيطاليا، هولندا، بلجيكا، ألمانيا، البرتغال)، لا سيما من بريطانيا الاستعمارية، وصنيعتهم الإمبريالية الجديدة الولايات المتحدة الأمريكية الصهيوأمريكية، جميعهم من مدعي حملة (الكتاب المقدس)، لكنهم جميعاً مارسوا الغزو والسلب والنهب والإبادة والاستعباد والاستيطان لأراضي الغير، واستعمار أرض الآخر باسم الرب (المسيح وصليبه المقدس)، تماماً كما فعل الغزاة من بني إسرائيل بحق الشعوب الأخرى غير اليهودية، التي كانت في أوج حضارتها ومدنيتها وتسامحها في عصرها مع القبائل المتوحشة البدائية من العبرانيين والشعوب الأوروبية! فكما تمت مماريات القبيلة العبرية الهمجية البدائية طبقاً للرواية الكتابية بادّعاء أوامر الرب الخاص (يهوه)، تمت كذلك استباحة الشرق وشن الحروب الفرنجية الهمجية تحت شعار (الحروب المقدسة باسم الرب يسوع)- ويسوع منها براء، لم تسلم قارة ولا شعب مسالم من البطش والظلم والاستعباد واللصوصية والاحتقار على

مدى قرون عديدة على يد الغزاة الغربيين مدعي الحضارة والمدنية وحقوق الإنسان، أصحاب الرسالة الكتابية!

سأحاول في هذا الفصل إثبات تطابق الأقوال والأفعال والممارسات الغربية بحرفية تامة مع ادّعاءات الأسطورة التلمودية وممارسات اليهودية الصهيونية في الماضي (إسرائيل القديمة)، وصورتها طبق الأصل (دولة الاحتلال الصهيونية)، علّنا نضع يدنا على الأسباب الموجبة لهذا التحالف والتبني والتأييد الغربي المطلق لممارسات دولة الاحتلال الصهيونية، على الرغم من الفارق الزمني الكبير بين مزاعم القبيلة العبرانية البدائية المتوحشة، وبين مزاعم أوروبا والقوى الغربية عامةً بتبنيها للحضارة والتمدن وقيم العدالة والديمقراطية.

ارتحلت العصبة العبرانية من موطنها في الصحراء إلى حران الشمالية، ثم من هناك ارتحلت إلى ما أسمته التوراة (أرض غربتهم)، حيث نقلوا معهم عاداتهم وثقافتهم البدائية لتكون بديلاً لثقافة وعادات أهل بلاد غربتهم الأصليين في مرحلة أولى قبل العمل على إبادتهم وتهجيرهم واحتقار ثقافتهم ومدنيتهم وعاداتهم، مع أن هذه الشعوب التي دخلوا إليها غرباء وضيوف طارئين أحسنت معاملتهم واستقبلتهم بكرم واحترام كبيرين بشهادة روايتهم التوراتية.

بقي العبرانيون، وهم من أصولٍ (آرامية)، على صلاتهم وارتباطهم بموطنهم الآرامي، فها هو إبراهيم (صلى الله عليه وسلم)، كما تقول روايتهم، يستحلف عبده ألا يأخذ زوجة لابنه إسحق من بنات الموطن الجديد (۞وَشَاخَ إِبْرَاهِيمُ وَتَقَدَّمَ فِي الأَيَّامِ. وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. ۞وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوْلِي عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي ۞فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلَهِ السَّمَاءِ وَإِلَهِ الأَرْضِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ زَوْجَةً لِابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ ۞بَلْ إِلَى أَرْضِي وَإِلَى عَشِيرَتِي تَذْهَبُ وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لِابْنِي إِسْحَاقَ». ۞فَقَالَ لَهُ الْعَبْدُ: «رُبَّمَا لاَ تَشَاءُ الْمَرْأَةُ أَنْ تَتْبَعَنِي إِلَى هَذِهِ الأَرْضِ. هَلْ أَرْجِعُ بِابْنِكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي خَرَجْتَ مِنْهَا؟» ۞فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تَرْجِعَ بِابْنِي إِلَى هُنَاكَ)[1].

والسؤال هنا، أين ابن إبراهيم البكر؟ إسماعيل الذي يكبر أخاه إسحق بثلاثة عشر عاماً، وهو البكر لأبيه؟ هل زوّجه إبراهيم من إحدى بنات الكنعانيين، أم رحل إلى مكة ليكوّن هناك بزواجه من عربية أمة عظيمة تحمل رسالة الإسلام الإبراهيمية الموحدة أصل الديانات التوحيدية السماوية والحاضنة لها؟

١- العهد القديم سفر التكوين 24: 1-6.

(۞فَدَعَا إِسْحَاقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ وَأَوْصَاهُ وَقَالَ لَهُ: لاَ تَأْخُذْ زَوْجَةً مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ... ... ۞...فَذَهَبَ إِلَى فَدَّانَ ِ أَرَامَ إِلَى لاَبَانَ بْنِ بَتُوئِيلَ الأَرَامِيِّ أَخِي رِفْقَةَ أُمِّ يَعْقُوبَ وَعِيسُوَ)[1].

تبدأ المقاطع التوراتية بالتمهيد المسبق لتبني روايات أخرى لا تخفي أطماعها: إبادة كنعان وسلب أرضه وموطنه؛ إنها قصة إقصاء الضيف لمضيفه في أرضه، وإبادة الكنعاني الفلسطيني واعتبار أرضه غنيمة تدر حليباً وعسلاً، حيث ستكون في القريب إرثاً إلهياً ومستوطنة جديدة يهبها (يهوه العبراني) لشعبه الخاص لتكون له ملكاً أبدياً، ولن تبقى أرض كنعان (أرض غربة) للعبراني!

ولكن ماذا عن السكان الأصليين، سواءً أكانوا في كنعان فلسطين بالنسبة للكنعانيين، أم أيضاً للهنود الحمر بالنسبة إلى هبة الرب يهوه التالية (كنعان الجديدة الأمريكية)؟ سيتولى الأحبار والكهنة والكتبة للرواية أمر أولئك السكان بإضافة نصوص لاحقة على فترات تاريخية متلاحقة إلى النص الأصلي المُحَرَّف والمكتوب أصلاً بزمن متأخر جداً عن زمن موسى عليه السلام، وستُحَمَّل التبعات المترتبة عن القتل إلى أوامر الإله الكتابية!

(۞وَأَمَّا عَبِيدُكَ وَإِمَاؤُكَ الَّذِينَ يَكُونُونَ لَكَ فَمِنَ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَكُمْ. مِنْهُمْ تَقْتَنُونَ عَبِيداً وَإِمَاءً. ۞وَأَيْضاً مِنْ أَبْنَاءِ الْمُسْتَوْطِنِينَ النَّازِلِينَ عِنْدَكُمْ مِنْهُمْ تَقْتَنُونَ وَمِنْ عَشَائِرِهِمِ الَّذِينَ عِنْدَكُمُ الَّذِينَ يَلِدُونَهُمْ فِي أَرْضِكُمْ فَيَكُونُونَ مُلْكاً لَكُمْ. ۞وَتَسْتَمْلِكُونَهُمْ لأَبْنَائِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ مِيرَاثَ مُلْكٍ. تَسْتَعْبِدُونَهُمْ إِلَى الدَّهْرِ. وَأَمَّا إِخْوَتُكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلاَ يَتَسَلَّطْ إِنْسَانٌ عَلَى أَخِيهِ بِعُنْفٍ)[2].

نلاحظ أن بضع عبارات أضيفت للنص، أصبح بعدها سكان الأرض مستوطنين نازلين على بني إسراءيل بعد إبادة معظمهم، والناجين عبيداً لهم وسبايا أبد الدهر (مُلْكٍ. تَسْتَعْبِدُونَهُمْ إِلَى الدَّهْرِ).

ليس هناك علاقة البتة للدعوة والتوحيد والشريعة الإلهية. هذه القيم لن تشفع لهم حتى لو دخلوا جميعاً في الجماعة اليهودية. ليس المطلوب هنا التوحيد، بل أرضاً تدر حليباً وعسلاً وزيتاً وخمراً. والمسألة هنا استيطانية عرقية. إذاً الدعوة والتوحيد والهداية لم تكن يوماً هدفاً لبني إسرائيل!

إضافةُ سطورٍ أخرى للرّواية الكتابية في الماضي أو إصدار قرار من مجلس الأمن الدولي العتيد يجعل من بني إسرائيل الغزاة ملاكاً، ويصبح الفلسطينيون (الذين يولدون في أرضكم) عبيداً غرباء. أليس هذا ما حصل أيضاً مع الهنود الحمر ومواطني جنوب أفريقيا وأستراليا؟

١- العهد القديم سفر التكوين 28: 1-5.

٢- العهد القديم سفر اللاويين 25: 44-46.

نشهد اليوم على الحصار والإبادة الجماعية وجرائم الحرب الهمجية، التي تقوم بها الصهيونية اليهودية الغربية في قطاع غزة، والتي تباركها بصمت الدول الأوروبية، وتمولها الصهيونية المسيحية الأمريكية بسطوتها وقوتها العنصرية الطاغية. هذا النص متخلف مبني على فكرة انتحال قصة إسحق مع بكره عيسو وأخيه الأصغر يعقوب داخل النص المحرف (...كَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ)[1](وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ. وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ)[2]. المنطق الكتابي المغلوط هذا جاء مؤسساً لورثته الغربيين، حيث حقق لهم اعتناقه تبريراً لممارساتهم العدوانية الاستعبادية العنصرية بحق الشعوب الأخرى غير البيضاء وغير الأوروبية، وذلك عبر تبنيهم لثقافة (الكتاب المقدس) بشقه القديم التلمودي.

بهذا المنطق المتعالي الأصولي تصبح النصوص الإنجيلية المسيحية نصوصاً ثانوية أو مستبعدة بكل ما جاءت به من مساواة وعدالة وروحانية ومحبة إنسانية. وتصبح التناقضات الرئيسة الصارخة ما بينها وبين نصوص العهد القديم التوراتي مسألة وجهة نظر واجتهادات شخصية أو كنسية، حتى إن الإيجابيات والحقائق التوراتية المتناقضة مع التسلط والعنصرية يتم التغافل عنها وتجاهلها، على الرغم من ورودها ضمن نصوص العهد الجديد والدعوة المسيحية!

في العهد الجديد رسالة بطرس الرسول الثاني يصف الملك الكنعاني اليبوسي ملك (أورسااليم، القدس) ملكي صادق، أو مالك صادق، بكاهن الرب العلي القدير الذي بارك إبراهيم باسم الإله العلي القدير. ويصف هذا الموحد الكنعاني داخل الرواية الإنجيلية ومن هم على إيمانه من معتنقي رسالة المسيح بأنهم (على مرتبة ملكي صادق كابن الرب العلي). كما تقر بذلك أيضاً الرواية التوراتية التي تتناقض نصوصها حين يوجه الكتبة الرواية في اتجاه آخر محدد، وهو مطلب (إبادة الكنعانيين الوثنيين الملعونين. لم يعد ملكي صادق هنا كاهن الرب العلي القدير الذي تشرف إبراهيم وتعظم بمباركته له في مضافته وأرض غربته.

وتفنيداً لهذا الادّعاء بأمر الإله يهوه بإبادة الكنعانيين الفلسطينيين لوثنيتهم، نقول كما قيل لبني إسراءيل في سفر التثنية (...تَذْكُرُ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْداً فِي مِصْرَ...)[3] نقول لمدّعي ومقتفي الأسطورة الكتابية (تذكر أن الإله هو من

١- العهد القديم سفر التكوين 25: 32.
٢- العهد القديم سفر التكوين 27: 40.
٣- العهد القديم سفر التثنية 16: 12.

خلق الكنعانيين والفلسطينيين أيضاً. وتذكر أيضاً أن يهوه المدّعى هو من جعلك عبداً في مصر ليصارع جبروت الفرعون وظلمه، فجعل منك قدراً للاستبعاد والعبودية، وقام بتعريضك للتجربة والامتحان بعد خلاصك، واعتبرك شعباً له لتكون قدوة ومثلاً، وهو نفسه إلهك الذي قضى قضاءه عليك لتتعبد آلهة غيره ليخرجك من أبوته ورحمته ويلقي بك خارج الأرض التي استعبدتها وأهلها كما استعبدك الفرعون، فأصبحت فرعوناً آخر أكثر وحشية وعدوانية فنالك ما نال فرعون من عقاب.

كيف يمكننا أن نصدق الرواية الملفقة في قصة إسحق وعيسو ويعقوب التي توضح انحياز إسحق المخدوع بعد معرفته بالخدعة والمكر عندما يصر على إبقاء البركة ليعقوب المخادع والكاذب[1]. إنه تلفيق واضح في متن الكتاب يشرع استخدام الخديعة ويبرر تمادي الكهنة بانتحال القصة وإيصالها بالإخضاع إلى حد فرض العبودية على الأخ من قبل أخيه.

- كيف يصدق رجال الدين والحكماء هذه القصة؟ وكيف تتبنى هذه القلة المخدوعة القصة لتجعلها جزءاً من الكتاب المقدس الذي أعلنه الأحبار والكهنة (كلمة الله المقدسة)؟

أليس حكم إسحق في القصة المنتحلة بوجوب الالتزام الصارم بالحكم الجائر والصادر من قبله بحق عيسو، على الرغم من معرفته بالكذب والخديعة والمكر، يساوي ضرورة الالتزام بحكم الفرعون الإله ابن الرب في ديانات مصر القديمة، ويؤشر إلى أن هذه الثقافة الإخضاعية التوراتية مأخوذة من نسختها الأصلية الفرعونية الاستعبادية لبني إسراءيل في مصر؟

(إن قوة تأثير الكتاب المقدس العبري إنما تكمن في هذا التركيز الاستثنائي على المسؤولية الإنسانية. وإذا كانت الملاحم القديمة الأخرى بهتت بمرور الوقت، فإن تأثير قصة الكتاب العبري المقدس في الحضارة الغربية، على العكس من ذلك، زاد دوماً باستمرار)[2].

إن تفحصاً لنصوص الرواية العبرية التي احتوت على أوامر إلهية مدعاة تجيز الإبادة والسلب والنهب والإبادة والتحريم بالسيف والاستعباد بحق الكنعانيين الفلسطينيين وغيرهم من سكان المنطقة، وإجراء مقارنة لما تقوم به دولة الاحتلال

١- يجب المقارنة هنا بين كذب يعقوب ورفقة طبقاً للرواية التوراتية وبين توريث هذه الثقافة الكتابية بتبريراتها، حيث برر الكذب البريطاني والأمريكي الصهيوني أكذوبة أسلحة الدمار الشامل بالعراق، وعلاقة الرئيس العراقي الأسير الذي تعرَّض لاغتيال بالقاعدة، وأحداث الحادي عشر من سبتمبر المدعاة كذباً وتلفيقاً.

٢- فنلكشتاين وسلبرمان: التوراة مكشوفة على حقيقتها - ص 34.

الصهيونية من أعمال استيطان وتهويد القدس وبناء جدار الفصل العنصري، سيظهر وبوضوح استمرار التبني اليهودي الصهيوني الغربي للخطاب ذاته الأصولي العنصري المتطرف والهمجي الذي تضمنته أحكام الكتاب المقدس العبري المتوارث غربياً.

ويبدو لنا جلياً الدور الرئيس الذي أدّته وتؤدّيه القوى اللوثرية البروتستانتية التوراتية بقيادة الإمبراطورية البريطانية ووريثتها الإمبريالية الأمريكية السامية التي يسمو مواطنوها وتابعوها من اللصوص والقراصنة وقطاع الطرق على الأعراق الإنسانية الأخرى، كما يسمون شعب الله المختار على الأجناس البشرية الأخرى غير اليهودية الصهيونية.

وعن الدور البريطاني الفرنسي القذر الذي ساهم بتخطيط مسبق وتاريخي لتهيئة الظروف والأسباب لاغتصاب فلسطين وإقامة الدولة اليهودية الغربية على كامل أرض فلسطين التاريخية والجغرافية، كتب شافيتوري اللورد السياسي الإنكليزي عام 1840م مقالاً للصحف قال فيه: (ستكون سورية، ومن ضمنها فلسطين بعد إعادة إنشائها، بلداً تجارياً، بصورة خاصة، من أهم المراكز التجارية في العالم. وهل يوجد مكان أكثر ملائمة ومنطقة مباركة يمكن أن يبدي فيها اليهودي مؤهلاته؟ إنها ستكون ضربة موجهة للإنكليز إذا امتلك أي من المنافسين لسورية). وفي 25 كانون الثاني عام 1853، أعلن العقيد جورج غاولر في البرلمان الإنكليزي حاكم جنوب أستراليا السابق: «إن العناية الإلهية هي التي وضعت سوريا ومصر على طريق إنكلترا إلى أكثر مناطق تجارتها الخارجية الكولينالية أهمية، يجب أن تجدد بريطانيا بواسطة الشعب الوحيد الملائم للقيام بهذه الرسالة، والتي يمكن أن تستخدم طاقته بصورة فعالة ودائمة. إنهم الأبناء الحقيقيون لهذه الأرض (أبناء إسرائيل)». وقال جيمس نيل في كتابه (النزوح إلى فلسطين أو جمع شمل إسرائيل المشردة) سنة 1877م: (إن احتمال إمكانية استيطان الإنكليز في فلسطين بالنجاح نفسه الذي استوطنوا فيه أمريكا الشمالية بعيد جداً، وذلك بسبب حرارة المنطقة، والصعوبات التي يقيمها العرب، والافتقار إلى حماية فعالة، وكثير غير ذلك»[1]. لهذا فهو يقترح أن يستخدم اليهود لتحقيق هذا الهدف[2].

١- (تاريخ الصهيونية) NCOCOLO; HISTORY OF ZIONOSM-VOL II P366

٢- من كتاب حذار من الصهيونية - يوري إيفانوف - ترجمة محمد كامل عارف - ص 45.

ما كتبه كبار اللوردات والضباط البريطانيين الغربيين في القرن الثامن عشر للميلاد، وما خطط له ملوكهم وحكامهم الإقطاعيون، يبدو مبكراً عشرات السنين عن تاريخ تأسيس الحركة الصهيونية المعلنة ومؤتمرها الأول عام 1897 في سويسرا، مما يؤكد التبني المبكر للإصلاح اللوثري والحركة الإصلاحية المسيحية التي اجتاحت أوروبا الغربية في بداية القرن السابع عشر الميلادي للفكر التوراتي التلمودي الصهيوني ومحاولات بريطانيا الاستعمارية التوسعية إيجاد موطئ قدم لها في بلاد الشرق العربي قبل وجود الطموحات اليهودية للصهيونية العالمية بالسيطرة على فلسطين التاريخية، ويثبت ذلك أيضاً الاستغلال والتوظيف الرأسمالي الإنكليزي للطموحات اليهودية الغربية لإيجاد وطن قومي خاص بها، في وقت كانت تقتصر فيه هذه الطموحات على حرية الممارسة للشعائر الدينية وزيارة الأماكن التاريخية التي جرت فيها أحداث الرواية العبرية.

والسؤال المطروح هنا: هل الحركة الصهيونية العالمية هي من دفعت بالدول الاستعمارية الغربية لمساعدتها ودعمها بتحقيق أحلامها بقيام دولة قومية يهودية، لا سيما أن الطرح كان لدولة في أفريقيا (أوغندا)، أم أن هذه الدول الاستعمارية الطامعة واللوثرية التوراتية والرأسمالية المرابية هي من شجع ودفع بالحركة الصهيونية العالمية الغربية لتبني مطالب وطموحات استعمارية إمبراطورية بقيام دولة يهودية تابعة لها بهوية يهودية غربية على أرض فلسطين التاريخية؟

هدفت الإمبراطوريات الاستعمارية من خلال إنشاء كيان يهودي إلى إيجاد قاعدة غربية لها في منطقة حيوية واستراتيجية لتأمين مصالحها وخطوط تجارتها عبر الممرات والبحار الحيوية التي تشكل لها طرقاً اقتصاديةً مهمةً إلى مستعمراتها في آسيا وشبه القارة الهندية، والسيطرة على المواد الخام والثروات الباطنية والواعدة على الأرض العربية، ولهذا قامت هذه القوى الطاغية وبشكل مبكر جداً بشن الحملات الاستشراقية والاستكشافية على المنطقة المشرقية وفق رؤيتها الاستكبارية، وأبدت اهتمامها بكل كبيرة وصغيرة لتتبع تلك الدراسات الاستشراقية والحملات التبشيرية والحملات الاستكشافية والبعثات الأثرية والحملات العسكرية، لتشكل لها قاعدة استطلاع مزودة بمعلومات وخرائط

تفصيلية تحت ذريعة (استكشاف أرض الكتاب المقدس)، ثم لا تلبث أن تتبع وبوقت معلوم هذه البعثات التبشيرية اللاهوتية والاستكشافية الحملات العسكرية والغزوات الإفرنجية الصليبية والاستعمار المباشر الذي يملك قوة عسكرية تدميرية تحت ادّعاء نشر الحضارة الغربية والأعمال الإنسانية. إنه نهج واحد مقتبس بتفاصيله من القصص الكتابية ومن الاعتناق المسيحي الصهيوني للادّعاءات التلمودية الماسونية، حيث يتخفى وراء المسيحية والحضارة الأوروبية تبنٍّ مكشوف لليهودية الصهيونية تحت رداء المحافظين والمحافظين الجدد، وهي بالواقع قوى يهودية غربية استيطانية تلمودية. ونورد من الرواية الكتابية: (۞وَأَتُوا إِلى وَادِي أَشْكُولِ وَقَطَفُوا مِنْ هُنَاكَ زَرَجُونَةً بِعُنْقُودٍ وَاحِدٍ مِنَ العِنَبِ وَحَمَلُوهُ بِالدُّقْرَانَةِ بَيْنَ اثْنَيْنِ مَعَ شَيْءٍ مِنَ الرُّمَّانِ وَالتِّينِ. ۞فَدُعِيَ ذَلِكَ المَوْضِعُ «وَادِيَ أَشْكُولِ» بِسَبَبِ العُنْقُودِ الذِي قَطَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيل مِنْ هُنَاكَ. ۞ثُمَّ رَجَعُوا مِنْ تَجَسُّسِ الأَرْضِ بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْماً)[1].

توجب على الجواسيس المستطلعين من بني إسراءيل إعطاء كل شيء شوهد في الأرض الفلسطينية شكلاً عملاقاً. لم يقتصر الوصف بالعملاق على عنقود العنب في وصف خرافي لعنقود يحتاج إلى جنديين مستطلعين لحمله، إنها خرافة تخالف منطق العقل والكتب السماوية، في سفر العدد 13: 32-33، بل جعل كذلك الجواسيس المستطلعين سكان أرض كنعان وفلسطين عمالقة، فقد كان الجواسيس في أعينهم بحجم الجرادة، مع أن بني إسراءيل كانوا في زمن يعقوب يساكنون الفلسطينيين الكنعانيين، فلم يكن وصف أهل البلاد بالعمالقة بهذه المبالغة. ويلفت النظر هذا الانفصال والانفصام شبه التام بين ثقافتهم قبل الدخول إلى مصر وبعد خروجهم منها، فهل كان أولئك الجواسيس المستطلعين طارئين وغرباء عن بني إسراءيل؟

(۞فَأَشَاعُوا مَذَمَّةَ الأَرْضِ التِي تَجَسَّسُوهَا فِي بَنِي إِسْرَائِيل قَائِلِينَ: «الأَرْضُ التِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا هِيَ أَرْضٌ تَأْكُلُ سُكَّانَهَا. وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الذِي رَأَيْنَا فِيهَا أُنَاسٌ طِوَالُ القَامَةِ. ۞وَقَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ الجَبَابِرَةَ (بَنِي عَنَاقٍ مِنَ الجَبَابِرَةِ). فَكُنَّا فِي أَعْيُنِنَا كَالجَرَادِ وَهَكَذَا كُنَّا فِي أَعْيُنِهِمْ»)[2]. ولمعرفة القارئ الكريم، فالأرض المستطلعة هي المنطقة الواقعة بين جنوب بئر السبع ومداخل

١- العهد القديم سفر العدد 13: 23-25.
٢- العهد القديم سفر العدد 13: 32-33.

مدينة حماة السورية. وتصلح هذه المقدمة الاستطلاعية التجسسية التي اخترعها الأحبار والكتبة لتكون بداية موفقة لوصف وتمجيد قوة الإله العبراني يهوه الذي هو أقوى من سائر الآلهة الأخرى لأنه إله إسراءيل!

النهج الغربي الإمبريالي الاستكباري هو نسخة طبق الأصل عن النسخة اليهودية التي استخدمت منهاجاً ودستوراً أخلاقياً وتبريراً لقادة الغرب الصهاينة: نابليون بونابرت الذي سبقته الحملات الصليبية إلى الشرق، وادّعاءات وجرائم النازية الهتلرية الغربية، وتخرصات الإرهابي الأمريكي جورج بوش وأعماله الإجرامية العدوانية؛ ادّعوا جميعهم التكليف الإلهي والقيم والمبادئ الإلهية لتبرير أعمالهم الوحشية الهمجية. يقول البحاثة جيفرز مؤلف كتاب (فلسطين الحقيقة): (لما استعاد صلاح الدين مملكة الإسلام، وجد اليهود عطفاً منه، وكانوا عندئذ قلة في فلسطين. وهناك حادث تاريخي غريب ذو بال قلّ من عرفه، وهو أن صلاح الدين استقبل سنة (1211م) ثلاثمئة حبر من أحبار اليهود جاؤوا من إنكلترا وفرنسا. وقد جاء هؤلاء سعياً وراء الاستقصاء عن إمكانية هجرة اليهود إلى فلسطين، غير أن مهمة هؤلاء الأحبار لم تسفر عن أي نتيجة)[1].

ونركز هنا على محاولات فرنسا الاستعمارية الفرنجية بقيادة نابليون بونابرت في العمل الدؤوب لتأسيس مملكة غربية في بلاد الشرق العربي من خلال غزوه لمصر وفلسطين وسورية (عام 1799م)، ومن خلال حصاره لمدينة عكا التي قهرته مع جيشه وكسرت هيبة الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية بعد احتلاله لمدينة يافا، ودعوته لليهود للانضمام إلى حملته وغزوته الصليبية الغربية بقوله لهم: (إن العناية الإلهية أرسلتني على رأس هذا الجيش إلى هنا. وقد جعلت رائدي العدل، وكفلتني، وجعلت من القدس مقري العام، وهي ستجعله بعد قليل في دمشق التي يضيرها مجاورة مملكة داود)[2].

يظهر في قول نابليون بونابرت وبوضوح النهج التوراتي للغزاة الإسرائيليين الذين اتبعوه في غزوهم بعد أكثر من ثلاثة آلاف سنة من الغزو الفرنسي الوحشي على فلسطين عامةً، والقدس خاصةً، تحت غطاء وتبرير كتابي ملفق للأوامر الإلهية بقوله: (العناية الإلهية أرسلتني وكفلتني). وهو إرث توراتي تلمودي صهيوني تم الخلط الفاضح بينه وبين الرسالة المسيحية والدعوة الإنجيلية التي لا تبيح الاغتصاب والظلم والقتل، وتنتهج المحبة والسلام في دعوتها الهدائية، وتقر مبدأ العدل والمساواة بين جميع الأعراق الإنسانية، وتلغي أي مقولة لشعب الله المختار، وتدخل كل الشعوب والأمم بالأبوة والرحمة الإلهية.

١- (كتاب فلسطين الحقيقة) JEFFRIES (P) PALSTINE (THE REALTY-P.30)

٢- إيلي ليفي أبو عسل: (يقظة العالم اليهودي)، ص 124. طبع في مصر 1934 في ظل الاحتلال البريطاني.

أما التراث الاستيطاني والاستعلائي، فهو منهج ومبدأ توراتي صهيوني وعنصري يخالف في طبيعة تكوينه وإرثه كل القيم والمثل والأخلاق الإنسانية. إنه معتقد يستبعد كل البشر من الدخول في الرحمة والعدالة الإلهية. هذه الموبقات بهمجيتها أصبحت منهاجاً ودستوراً دسّه الأحبار والكهنة وبعض الساسة ورجال الكنيسة من الجهلة والمنحرفين، ليصبح تعبيراً وتراثاً للثقافة والحضارة الأوروبية ذات المعايير المزدوجة لحقوق الإنسان والديمقراطية والحرية.

يعتبر النفاق الاستعماري المدافعين عن أوطانهم (مخربين وإرهابيين)، كما جاء في خبر مستهجن: (قرر جورج بوش رفع اسم المناضل الأفريقي نيلسون مانديلا من
قائمة الإرهاب الأمريكية)[1]، بعد أكثر من خمسين عاماً من مقاومته ونضاله لتخليص بلاده من نظام الفصل العنصري في جمهورية جنوب أفريقيا، الذي مارسه المستوطنون البيض الغربيون (من الأنجلوساكسون). هذه البلاد الأفريقية الرازحة تحت سلطة الاستعمار الغربي سابقاً. وفي خبر آخر يكشف عن مدى التعصب والأصولية الذي يضرب جذوره عميقاً حتى داخل الأوساط العلمية والثقافية: (تقيم إحدى القنوات الفضائية الفرنسية مسابقة تعليمية للأطفال المتفوقين (ألغاز وأرقام). وكان مقرراً أن يشترك في مسابقاتها الطفل (إسلام) الفرنسي الجنسية، لكن بعد حضوره إلى استديوهات هذه القناة، أبلغته المسؤولة عن البرنامج أنه ليس مسموحاً له بالمشاركة بالمسابقة، لأن اسمه يزعج المشاهدين، ويجب عليه تغيير اسمه ليتمكن من المشاركة. رفعت والدة الطفل إسلام دعوى قضائية بحق هذه القناة بتهمة العنصرية. بعد حوار مع إدارة القناة وعدت بالتحقيق، ثم تجاهلت الأمر منذ 2008/4/16)[2]. وخدمةً للحقيقة والعدالة، يصح الحديث هنا عن كرم الضيافة والاحترام والاحتضان الذي يلاقيه غير العربي في البلاد العربية بمجرد أن يعرف باسمه غير العربي أو يتحدث بلغة بلاده ليعتبر نفسه ضيفاً وصديقاً لا بد من احترامه وتقديم العون له بإخلاص. هذه هي الثقافة المستمدة من القيم المسيحية والإسلامية الشرقية التي نتوارثها جيلاً بعد جيل.

١- قناة الجزيرة الفضائية: حصاد اليوم - شريط الأخبار مساء 2008/6/28.
٢- قناة الجزيرة الفضائية: مساء 2008/4/25 النشرة المسائية.

يذكر سلبرمان في كتابه (البحث عن إله ووطن): (كان هناك ما يدعو للقلق في يافا، تلك التي كانت الميناء الملكي للملك سليمان ذات يوم: رفضت الحامية التركية الاستسلام بعناد. وحين تم في آخر الأمر تدمير تحصينات المدينة، اندفعت قوات نابليون إلى الشوارع في عملية عربدة دامت أربع وعشرون ساعة. وهي تقوم بأعمال السلب والنهب والاغتصاب والذبح، وفي الأيام القليلة التالية، أمر نابليون بإعدام أربعة آلاف من أسرى الحرب العُزل. وسرعان ما تعرضت وعود الحملة الفرنسية السخية لنسيان. ومع تصاعد روائح الأجساد غير المدفونة في سماء يافا وبروز الوجه الحقيقي النابليوني للأرض المقدسة، لم يرَ بعض الناجين من الحصار ما هو أقل من نوع من الانتقام الإلهي في
الانتشار المفاجئ للطاعون الأسود في المعسكرات الفرنسية. حدث هذا عام 1799-1800م)[1].

لا يقتصر دور الحملات التبشيرية للكنيسة الإنجيلية اللوثرية وغيرها على الاستطلاع والتجسس تحت ستار الأعمال الخيرية والتعليمية والطبية الإنسانية، ونشر المبادئ المسيحية الهدائية تمهيداً للحملات العسكرية والاستعمارية على الأجزاء الواسعة من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية لنهب ثرواتها واستعباد شعوبها، بل كان لهذه الحملات دور كبير بالتمهيد والاستطلاع والجاسوسية على بلاد المشرق والمغرب العربي. وهي البلاد الشرقية التي كان شعبها أول من اعتنق الديانات التوحيدية الثلاث، وأول من بشر بها أيضاً في بلاد أوروبا الوثنية، فلم تكن بحاجة يوماً للحملات التبشيرية الغربية لتتعلم منها مبادئ التوحيد أو الحضارة المدنية، وهي بلاد عريقة في اعتناقها للديانات السماوية والحضارة والمدنية.

هذا الاستكشاف والتبشير لم يكن في حقيقة الأمر سوى استطلاعاً عسكرياً تجسسياً ألبسه ساسة الغرب الاستعماري التوراتي لباس الورع والتقوى والعمل الخيري والإنساني ليكون في خدمة الحملات والغزوات الاستعمارية الهمجية والاستيطانية الناهبة لثروات الشعوب ومواردها الطبيعية واستعباد قواها البشرية، ضمن خطة منهجية وضعها المستشرقون والمستكشفون، هدفت إلى إفقار الشعوب

١- نيل سلبرمان: (البحث عن إله ووطن) ص 36.

وتجهيلها وزرع الشقاق والفتنة الطائفية والعرقية بين مكوناتها، ومحو الذاكرة الشعبية وإضعاف اللغة العربية واستبدالها بلغات المستعمر الأجنبية، ونشر ثقافاته وأنماطه فيها بديلاً عن تراثها وثقافتها المشرقية، واللعب على أوتار النزاعات القبلية والعشائرية وترسيخها ليبقى المحتل الأجنبي قاضياً وحكماً لها وعليها، لا سيما في الجزيرة العربية وبلاد المشرق العربية. (ويذكر بهذا الصدد قانون العشائر الذي سنته سلطات الاحتلال البريطاني في الأردن عام 1936، وقانون العشائر في سورية الذي سنته سلطات الاحتلال الفرنسي عام 1940. وهي القوانين التي جعلت من العشائر مشكلة لدولة داخل دولة)[1].

من الواضح أن المستشرقين والمبشرين ومستكشفي الآثار كانوا قد أدَّوا دوراً رئيساً ومهماً في التمهيد للاحتلال البريطاني والفرنسي للعالم العربي والإسلامي.

(اشتركت بريطانيا وألمانيا في تأسيس إرسالية مشتركة في القدس سنة 1851م، فاتفقتا أن يشرف عليها أسقف مرسوم على المذهب (الأنجليكاني) الإنكليزي، لكن تعيينه يجري بالتناوب بين ملك إنكلترا وملك بروسية (ألمانيا)، مما حمل الدولتين على تأسيس أسقفية مشتركة بالقدس. إن السلطات الإنكليزية والبروسية والحماية الدينية التي تتمتع بها على النصارى (الكاثوليك) يحسن أن تتوازن بحماية ألمانية إنكليزية على البروتستانت. وقد كان أول أسقف على أسقفية القدس هذه ميخائيل شلمون اسكندر، وهو حاخام يهودي متنصر. من الواضح أن الدوافع لتأسيس هذه الأسقفية المشتركة، وإن كانت دينية في الظاهر، لكنها كانت سياسية في الدرجة الأولى)[2]. أوصت هذه البعثات الاستشراقية والتبشيرية الاستكشافية من خلال استطلاعها ونتائج دراساتها وأبحاثها بعقد اجتماع وتشكيل لجنة سرية تمخض عنها عقد مؤتمر في لندن عام 1905م، تدارس بحضور علماء وأساتذة متخصصين ومستشرقين (منهم البروفيسور جيمن جيمس، ولوي مادلين، وليستر، وليتسنغ، وسميث، ودريتنج، وزهروف، وغيرهم من مشاهير العلماء والأساتذة. توصلوا في دراستهم إلى أن الخطر على الحضارة الأوروبية يكمن في منطقة حوض البحر المتوسط الشرقية والجنوبية وصولاً إلى البصرة، هذه المنطقة الاستراتيجية التي تحتوي على الممرات البحرية الرئيسة، حيث يعيش هناك شعب واحد تتوافر لديه وحدة تاريخية ودينية ولغوية وثقافية وآمال واحدة، ويتمتع بعراقة وحضارة عظيمة، إلى جانب امتلاكه للثروات الطبيعية ومقومات المجتمع الواحد. هذه العناصر والمقومات التي تتمتع بها هذه المنطقة ستجعلها

١- فاروق كيلاني: شريعة العشائر في الوطن العربي ص 58 مجلة المصور المصرية تاريخ 1958/10/10.

٢- خير حماد (الصهيونية) ص 78.

تشكل خطراً على الطموحات الاستعمارية الغربية، لا سيما إذا تمكنت هذه المنطقة من امتلاك أسباب العلم والنهضة والوحدة والتقدم العلمي والصناعي)[1].

نطرح هنا سؤالاً استنتاجياً يربط بين الماضي والحاضر للواقع التوراتي أيديولوجياً واستعمارياً: هل كان هناك رابط أيديولوجي، كهنوتي توراتي، بين معتقدات الغرب وممارساته الاستعمارية ومصالحه الرأسمالية المادية الربوية، أدى إلى نشوء هذا التحالف بينه وبين اليهودية الصهيونية، وأنتج بالتالي هذه الإمبريالية الطاغية؟ وهل نستطيع الجزم بأن طبيعة هذا التحالف هي طبيعة مبنية على تبادل المنافع المادية والمصالح الاقتصادية في عالم تتحكم بسياساته المفاهيم الاقتصادية دون غيرها من المعتقدات والأيديولوجيات والاتجاهات الكهنوتية؟ أم أن القوى الغربية المعادية تتبنى وتنطلق في ممارساتها العدوانية من المعيارين معاً في حربها على العرب والمسلمين؟

سنحاول سبر أغوار دفائن النفسية الاستعلائية الغربية منذ القدم، والمستقاة بأصوليتها وتطرفها من التبني للرواية العبرية التي تتخفى خلف ادّعاءات وشعارات براقة من نشر الحضارة المسيحية الغربية ونشر مبادئ الحرية وحقوق الإنسان والديمقراطية. (فقام شارلمان بعقد معاهدة في القرن الثامن ميلادي مع الخليفة العباسي هارون الرشيد من أجل الحماية المسيحية للمزارات القديمة في فلسطين، غير أن المسلمين كانوا في هذه الأثناء قد طوروا روابطهم الدينية الخاصة بالقدس، حيث نجد محمد كما جاء في القرآن قد كرس حادثة صعوده إلى السماء من أعلى الصخرة المقدسة التي كانت تشكل ذات يوم قاعدة قدس الأقداس في المعبد اليهودي، ففي العام (691م) قام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ببناء قبة الصخرة في المكان، ورسخ تقليداً للحج الإسلامي لذلك المزار والمسجد الأقصى القريب، أما الأرضية التذكارية للمعبد اليهودي فقد أصبحت تعرف باسم الحرم الشريف المنتصب تحدياً دينياً مباشراً، ليس للتقاليد اليهودية فحسب، بل لأولوية كنيسة القيامة أيضاً)[2].

قبل التطرق والتصدي لمحاولة الدس والوقيعة وخلط الأوراق على لسان الكاتب اليهودي الأمريكي سلبرمان بين المسلمين والمسيحيين بما ذكره عن مكانة كنيسة القيامة، أشير إلى أهمية كنيسة قيامة النبي الرسول عيسى (صلى الله عليه وسلم) الثقافية والدينية والتراثية للعرب المشرقيين مسيحيين ومسلمين، وصونهم لها

١- كتاب الثقافة القومية الاشتراكية لطلاب الصفوف الأولى والثانية - جامعات القطر العربي السوري 1942-1973بتصرف حبيب جاماتي.

٢- نيل سلبرمان: البحث عن إله ووطن ص 25.

وحفاظهم عليها على مر العصور، على العكس تماماً من اليهود والصهاينة، فيما بعد، الذين أنكروا ولا يزالون ينكرون نبوة عيسى المسيح (صلى الله عليه وسلم)، فالمسلمون يؤمنون بنبوة ورسالة السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) رسول الله وروحه وإنجيله المقدس والقديسة مريم بنت عمران (البتول)، كما ورد في سورة مريم في القرآن الكريم، فلا بد لي من استعراض دعاوى الخلط الفاضح بين القول في (قدسية قاعدة قدس الأقداس) التي ذكرها سلبرمان وبين ما أشيد عليها بزعمه (الحرم الشريف)، هذه المسألة التي خضعت لإرادة وأوامر المشيئة الإلهية بحق اليهود لتكذيبهم ونكرانهم لنبوة المسيح ودعوته الإلهية الهدائية. وجاء ذلك على لسان السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) في إنجيله الموحى به إلهياً، فالمؤمن المسيحي الحق هو من يتدبر ويقرأ الإنجيل ويعمل به، كما أوصى الله تعالى في القرآن الكريم.

جاء في إنجيل متى: (۞ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ وَمَضَى مِنَ الْهَيْكَلِ فَتَقَدَّمَ تَلاَمِيذُهُ لِكَيْ يُرُوهُ أَبْنِيَةَ الْهَيْكَلِ. ۞فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَمَا تَنْظُرُونَ جَمِيعَ هَذِهِ؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يُتْرَكُ هَهُنَا حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ!» ... ... ۞لأَنَّهُ تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ...)[1].

يلوح سلبرمان بالتحدي الديني ليس للمعبد اليهودي بل لكنيسة القيامة، في إشارة إلى قبة الصخرة، فمنذ متى يعترف اليهود بالقيامة للمسيح من بين الأموات ليقدسوا كنيسة القيامة؟ الهيكل اليهودي المدعى؛ لم تكن رسالة الإسلام قد ظهرت للوجود، ولم تكن هناك بعد ديانة إسلامية محمدية، عندما قام حليف اليهود الوثني الروماني تيطس بحرقه وتدميره سنة (70م). إذاً من دمروا وأحرقوا الهيكل اليهودي هم حلفاء اليهود الذين تآمروا معهم على صلب المسيح وتعذيبه على الخشبة، فما علاقة مسلمي القرن السادس الميلادي في التدمير والوعد الإلهي الوارد في إنجيل السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم). فالمسلمون بنوا وقدسوا مسجداً، وهم من يعمر مساجد ودور عبادة الله واليهود من يقوم بهدمها، ومحمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم جاء في إسرائه للصخرة المقدسة وفي معراجه للسماء من فوقها مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومكملاً لرسالتي الرسولين العظيمين موسى وعيسى (عليهم السلام). وبصلاته هناك

١- العهد الجديد إنجيل متى 24: 1-7.

(صلى الله عليه وسلم) أكّد قدسية ما سبق من الكتب الإلهية وأنبيائها المكرمين في القرآن الكريم. لم يأتِ الرسول محمد وصحبه (صلى الله عليه وسلم للقدس غازياً ومحتلاً، بل رسول محبة ومواطناً مشرقياً عربياً من سكان البلاد، ليس كما غزا الغرب واليهود الغربيين بلاد الشرق غرباء محتلين عاثوا فيها خراباً وفساداً.

دمر الهيكل نهائياً وللأبد، واستبعد بأمر إلهي موثق إنجيلياً قبل ظهور الرسالة المحمدية بأكثر من ستمئة عام، بعد أن حوله أحبارهم وكهنتهم من الفريسيين والصدوقيين إلى ماخور للفساد والاستعباد والظلم والابتزاز والسرقة، كما قال السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم): (وَقَالَ لَهُمْ: «مَكْتُوبٌ: بَيْتِي بَيْتَ الصَّلاَةِ يُدْعَى. وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ!»)[1]. وأما تأكيد السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم): (...تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ...)[2]، هو أيضاً وعد إلهي على لسان رسوله بانتصار العرب والمسلمين على الإمبراطورية الرومانية الاستعمارية المقدسة وطردها من بلاد الشرق. وهذا الأمر الإلهي على لسان السيد المسيح في زمن الاحتلال الروماني قد نُفِّذ بأمر الله بالانتصار النهائي للعرب والمسلمين في معركة اليرموك الخالدة واندحار مملكة الروم الغازية إلى الأبد.

- الأمر الإلهي ورد في القرآن الكريم أيضاً تبليغاً من الله تعالى للناس على ما قضاه الله على بني إسراءيل في الكتاب (التوراة) (الإسراء 1-7). فالأنبياء المرسلون والكتب السماوية متتابعة إلهياً، وبحسب تدرج العقل البشري، على تقبل شروط العبادات والعمل بها، لا تنسخ أي شريعة لنبي، ولكن الله قد ينسخ آية ليأتي بمثلها أو أحسن منها، وكما يقول القديس بولص إن الله يجعل من الأول قديماً ويقربه من الفناء أو الاستبدال. ويقول القرآن الكريم بهذا الشأن: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3].

عاش المسلمون والمسيحيون العرب المشرقيون مع يهودهم العرب أيضاً بمودة وتعاون واحترام متبادل وتعاون علمي واقتصادي. وهذه الصفات الحميدة هي من السمات والخصائص المميزة التي تشكل منابع وأصول الثقافة العربية المشرقية. وتبنت هذه المنطقة أيضاً جميع الديانات السماوية، واعتبرتها تراثاً وثقافة مشتركة

١- العهد الجديد إنجيل متى 21: 13.
٢- العهد الجديد إنجيل متى 24: 7.
٣- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 106.

حافظت عليها على مرّ العصور، وقدست الرموز الدينية ودور العبادة جميعها، واعتبرتها رموزاً مشتركة أكرم الله أهل هذه البلاد بتواجدها بينهم. يقول المؤرخ الروسي ليف غوميليوف المسيحي المشرقي دفاعاً عن العرب والمسلمين: (من الممكن تحقيق أي عمل إذا لم تؤخذ التكاليف بالحسبان، فيمكن على سبيل المثال دفع 50 روبلاً ثمناً لعلبة كبريت عندما لا توجد عيدان ثقاب، بينما الرغبة في التدخين كبيرة جداً، هكذا كانت الحملة الصليبية الأولى بتكاليفها غير المثمرة، وقد نجحت ليس فقط لأن المسلمين الذين عاشوا في فلسطين لم يتوقعوا أبداً أن مثل هذا الاعتداء الصارخ من الممكن أن يحدث، فهم لم يعيقوا حجاج المقدس المسيحيين في زيارة قبة الصخرة والصلاة، بل على العكس كانوا يحرسونهم ويحترمونهم جداً، فقد كان المسيح ومريم أنبياء عندهم مثل محمد، وكان الإنجيل والقرآن الشريفان يعتبران كتابين متساويي القيمة، ولم يكن هناك اضطهاد بسبب الدين، ولا يوجد أي مبرر لمثل هذا الاقتحام الذي قام به المسيحيون، ما عدا العملية الداخلية لحمى الباسيونارية[1] التي شملت أوروبا الغربية في الفترة الواقعة بين القرنين السادس والرابع عشر)[2].

ويقول: (وإن الرأي الشائع بأن الاندفاع إلى الدين الذي اشتعلت فيه نيران أولى محاكم التفتيش، خاطئ تماماً، فقبل نهاية القرن الحادي عشر كان المجتمع الأوروبي الروحي والدنيوي في حالة انحطاط أخلاقي كامل، والكثير من الكهنة كانوا أميين، والأحبار نالوا التعيين بسبب صلات القربى، والفكر اللاهوتي كان مقموعاً بالتفسيرات الحرفية (للكتاب المقدس) المناسبة لمستوى اللاهوتيين الجهلة، أما الحياة فكانت مقيدة بأنظمة الرهبان التي حلت وبإصرار محل الفكر الحر لحسنى السلوك. في ذلك العصر انقسمت كل الطبائع القوية إما إلى متصوفة أو داعرة. أما الناس الباسيونياريون في ذلك الوقت فكانوا أكثر مما هو مطلوب للحياة العادية، ولهذا السبب سعوا للخلاص في فلسطين لتحرير قبر المسيح من المسلمين على أمل ألا يعودوا)[3].

يأبى الكتاب والعلماء المسيحيون الشرقيون إلا أن يدلوا بشهاداتهم على العصر الأوروبي، الذي انحاز فيه بعض قادة المسيحية الغربية بتأثير من الأحبار والكهنة عن مسيحيتهم الحقة لمواجهة المسلمين استعلاءً وعصبيةً جاهلية وعنصرية، نتيجة ما توارثه الأوروبيون بجهالة وتخطيط يهودي صهيوني مبرمج في مواجهة العرب والمسلمين داخل بلدانهم بحروب (إفرنجية صليبية) أسموها

١- الباسيونارية: هي ظاهرة الطاقة التي تسقط على الأرض من الفضاء.
٢- ليف غوميليوف: (في دوامة التاريخ - النهاية والبداية) ص 149-150.
٣- ليف غوميليوف: (اكتشاف خازاريا) ص 280-281.

بهتاناً (الحروب المقدسة)، وكانوا معتدين غزاة قتلة بحق أهل البلاد المسالمين مسلمين ومسيحيين ويهود من العرب الذين عاشوا متآلفين زمناً طويلاً.

استمر هذا التبني الخاطئ لمفهوم الديانة المسيحية من خلال دسّ الأحبار والكهنة والساسة لثقافة التوراة والتلمود داخل تعاليم الكنيسة الغربية، لتصبح أساساً وجذراً للحضارة والثقافة والأصول الغربية التي تجلت في العصر الحديث بشكل أكثر أصولية ووحشية وتطرف في مساندة قادة الغرب وبعض كنائسه للمشروع اليهودي الصهيوني، ومدّه بكل أسباب القوة والبقاء على حساب الشعوب العربية، والسبب واحد وشبه معلن: محاربة الإسلام والعرب بوقاحة تجلت في السنوات الأخيرة في ممارسات الإرهابي جورج بوش في حروبه العدوانية وصفاقته الوقحة بإعلان الحروب الصليبية.

هذه الوقاحة والعنجهية استفزت كل المشاعر الدينية وحرّكت الأصولية الإسلامية في مواجهة أصولية الغرب الصليبية. وسواء كنّا مسلمين ومسيحيين، عرباً ومشرقيين، لا نتفق مع الحركات الإسلامية المتطرفة لعدم تفريقها بين الحكام الغربيين والساسة والعسكريين وبين مواطنيهم من المدنيين، الذين هم أيضاً شعوب مضطهدة ومضللة، والكثير من هذه القوى الخيرة الغربية تعارض سياسات حكوماتها وتقف بحزم وتصميم ضد سياساتها في أفغانستان والعراق وفلسطين، لا سيما ما نشاهده اليوم من مظاهرات واعتصامات واشتباكات مع قوى الأمن في مختلف المدن والعواصم الغربية والشرقية استنكاراً لما تقوم به دولة العدوان الصهيوني من مجازر وبطش وتنكيل وحصار جائر بحق أهالي قطاع غزة. ولا يسعنا هنا إلا الوقوف إجلالاً وإكباراً لأصحاب الضمائر الحية الغربية التي وقفت وبحزم، لا سيما الناشطين المتطوعين الذي دفع البعض منهم أرواحهم انتصاراً للحق والعدالة والحرية، وأخص روح الشهيدة الأمريكية راشيل كوري التي مزقتها بوحشية وتعمد جنازير الدبابات الإسرائيلية، وإلى كل الشرفاء من رجال الفكر والساسة الغربيين من أمثال المناضل جورج غالوي، وليفنغستون، وغيرهم الكثير. ونسوق للمُضللين من معتنقي المسيحية المتصهينة ما قاله السيد المسيح لليهود في الماضي: (❁«وَبِمَنْ أُشَبِّهُ هَذَا الْجِيلَ؟ يُشْبِهُ أَوْلاَداً جَالِسِينَ فِي الأَسْوَاقِ يُنَادُونَ إِلَى أَصْحَابِهِمْ ❁وَيَقُولُونَ: زَمَّرْنَا لَكُمْ فَلَمْ تَرْقُصُوا! نُحْنَا لَكُمْ فَلَمْ تَلْطِمُوا! ❁لأَنَّهُ جَاءَ يُوحَنَّا لاَ يَأْكُلُ وَلاَ يَشْرَبُ فَيَقُولُونَ: فِيهِ شَيْطَانٌ. ❁جَاءَ ابْنُ الإِنْسَانِ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ فَيَقُولُونَ: هُوَذَا إِنْسَانٌ أَكُولٌ وَشِرِّيبُ خَمْرٍ مُحِبٌّ لِلْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ. وَالْحِكْمَةُ تَبَرَّرَتْ مِنْ بَنِيهَا»)[1].

نجم عن العقلية والنفسية العدوانية الشريرة التي تبنتها اليهودية غير الموسوية في مواجهة السيد المسيح والمسيحية بوحشية واضحة جريمة صلب المسيح، والتحالف مع المحتل الوثني الروماني لتحقيق أهداف كهنوتية مادية

١- العهد الجديد إنجيل متى 11: 16-19.

وسلطوية. هذه العقلية التلمودية والممارسات العدوانية تنتمي إلى النهج العدواني ذاته الذي انتهجه كهنة وساسة وملوك وأمراء الغرب في مواجهة رسالة الإسلام فور نزولها، ولا سيما ادّعاء الحروب الصليبية باسم المسيح، وفي شنّ الحروب الفرنجية عليها بعد انتصار الإسلام المحمدي على الوثنية والشرك وعبادة الأصنام في الجزيرة العربية.

ومع أن الرسالة المحمدية جاءت متممةً ومكملةً ومصدقةً للرسالتين الإلهيتين للنبيين موسى وعيسى (عليهما السلام)، جاء الإسلام بالهداية والدعوة للوحدانية بمواجهة الشرك والوثنية وعبادة الأصنام والديانات الشعبية لتعدد الآلهة، حافظاً للديانات التوحيدية التي سبقته لقيمها وعباداتها ومعابدها وحريتها وحقوقها، وبإقرارٍ قرآني بقدسية أنبيائها وكتبها السماوية.

فضّل بعض الملوك والساسة والباباوات والكهنة الكنسيون الغربيون بقاء الشعوب الوثنية على وثنيتها، على أن تدخل في الدين الجديد وتصبح شعوباً تدين بالتوحيدية الإسلامية، كما تمنى اليهود في الماضي أن تبقى الشعوب على وثنيتها وجهالتها من أن تصبح شعوباً مهتدية بالمسيحية. فالخوف كل الخوف مما جاء به الإسلام من عقيدة جهادية واستشهادية مقاومة للظلم والاستعمار والاحتلال التي ستلحق الضرر بالمصالح الغربية الإمبريالية بعد أن تحررت شعوبها من الطغيان وأصبحت هذه الدول تشكل طليعة للدول الاستعمارية والظلم والتسلط، فلا ضرورة بعد ذلك للحرية والانعتاق، ومن التبني للمبادئ المسيحية التي جاء بها المسيح (صلى الله عليه وسلم) قبل الإسلام المحمدي، فعذاباته واضطهاده مع تلاميذه ورسله ومعاناته على درب الآلام وصعوده الجلجلة ومقاومته للاحتلال الروماني واستشهاد الأنبياء يوحنا وزكريا وشهداء المسيحية الأولى في فلسطين وروما الوثنية وصلب المسيح وتعذيبه على الصليب، يتم اليوم التنكر لها وتجاهلها حين يتعلق الأمر بالمصالح المادية الغربية الإمبريالية الصهيونية، لتصبح الحضارة المسيحية الغربية مجرد ذكرى وهوية سياسية وتقليداً شعبياً احتفالياً يختزل باحتفالات عيد الميلاد ورأس السنة الميلادية.

اليهود وحدهم من حارب بحقد وكراهية وعنف البشارة المسيحية التي لم يعترفوا بها، بل اتهموا السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) بالتجديف ومريم البتول بالزنا والمعصية. والإسلام جاء مصدقاً ومكرماً لرسالة المسيح (صلى الله عليه وسلم) التوحيدية. لم يكن المسلمون على مسرح الأحداث حينما صلب اليهود والرومان الوثنيون يسوع وعلقوه على خشبة الصلب، ولا حينما ادّعى اليهود والرومان على لسان القديس بولص الأسير (مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى

خَشَبَةٍ): (اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ»)[1].

أولئك هم الصهاينة (لعنهم الله بكفرهم قليلاً ما يؤمنون). والمسيح (صلى الله عليه وسلم) المناضل المقاوم المعذب المضطهد، جاء بثورته يحمل سيفاً مشرعاً لا سلاماً للغزاة والطغاة، بقوله: (لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لِأُلْقِيَ سَلاَماً بَلْ سَيْفاً)[2]، وللذين يجافون الحقيقة وهم يعلمون بها ويتحالفون مع أعدائها ينطبق عليهم اليوم قوله، ولا سيما معتنقي المسيحية المتصهينة: (وَيْلٌ لَكُمْ أَيُّهَا النَّامُوسِيُّونَ لأَنَّكُمْ أَخَذْتُمْ مِفْتَاحَ الْمَعْرِفَةِ. مَا دَخَلْتُمْ أَنْتُمْ وَالدَّاخِلُونَ مَنَعْتُمُوهُمْ)[3].

ما علاقة المسلمين بدمار الهيكل الثاني ودعاوى (شتات اليهود)؟ فتاريخياً لم يتواجدوا على ساحة الأحداث. يقول المسيحيون إن دمار الهيكل نهائياً وشتات اليهود، إنما كان عقوبة إلهية بحقهم نتيجة لرفضهم البشارة والرسالة المسيحية الكونية، بينما يدعي اليهود أيضاً وعلى لسان أحبارهم وكتبتهم أن المسيحية سوقت ونشرت دعوتها على أنقاض اليهودية باختلاق قصة ألوهية المسيح وبشارته الكاذبة! كان ذلك قبل ستة قرون تقريباً من ظهور الرسالة الإسلامية.

لم تُحترم غربياً القواسم المشتركة بين الإسلام والمسيحية، في الوقت الذي احترمت فيه القواسم المشتركة بين المسيحية واليهودية. والصراع اليهودي المسيحي كان صراعاً بين عهدين مختلفين تماماً (العهد القديم والعهد الجديد)، فلما قدّم الغرب المسيحي وكهنته وساسته هذه الخدمات للصهيونية وأطماعها التوسعية في فلسطين على حساب المسلمين والمسيحيين من الفلسطينيين، بإقامة دولة يهودية عنصرية. تحت عنوان (ولادة علم الآثار الكتابي) كتب سلبرمان: (من بين سائر نقاط علام القدس التي باتت مألوفة في العالم الغربي عن طريق كتب الرحلات واللوحات المائية لأوائل المستكشفين، فإن المنصة التذكارية المرفوعة المكللة بقبة الصخرة المذهبة والمسجد الأقصى القريب ذي القبة الفضية طالما ظلا يعتبران البؤرة المركزية لكنز أثري فريد وبالغ الأهمية، والاسم العربي لهذه الحوزة المقدسة (الحرم الشريف) لم

١- العهد الجديد رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية 3: 13.
٢- العهد الجديد إنجيل متى 10: 34.
٣- العهد الجديد إنجيل لوقا 11: 52.

يكن إلا صدى لتبجيل المسلمين لصخرتها المقدسة، فالمكان ليس الهيكل اليهودي القديم فقط، بل ومنطلق رحلة محمد الليلية الإعجازية (المعراج) إلى السماء أيضاً)[1].

أجد هنا مدخلاً للنقد والتصحيح لما جاء به سلبرمان بشأن القدس والمعبد اليهودي السابق: القدس لم تكن يوماً سكنى لبني إسراءيل أو اليهود، ومنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ومنذ أكثر من خمسمئة سنة قبل ولادة يعقوب (إسراءيل) كان معبدها قائماً، وبني قديماً على يد الموحد لله الواحد (ملكي صادق) كاهن الله العلي الواحد الذي استضاف وبارك إبراهيم حينما حل ضيفاً في (أرض غربته)، حسب قول التوراة سفر التكوين 14: 18-19 والعهد الجديد سفر العبرانيين 7: 1، وبشهادة المؤرخين القدامى والمكتشفات والرقميات الأثرية: القدس، يبوس معبد اليبوسيين، مدينة أورساليم، مدينة السلام العربية الكنعانية اليبوسية وملكها الموحد الكنعاني ومؤسسها وباني أسوارها الملك مالك صادق الكاهن سليل يبوس بن كنعان بن سام بن نوح. وبخلاف ما جاء تحريفاً في الرواية التوراتية، فبنو إسراءيل قدر وقسم الله لهم أن يدخلوا الأرض المقدسة دخول الموحدين المسالمين العابدين، وليس دخول الغزاة والقتلة للأنبياء والقديسين ليحولوا معبدها إلى ماخور للّصوص والمرابين وباعة الحمام والصيارفة، وللكهنة والمرابين الكاذبين ليكرسوا فيه الله من الإله العالمي إلى إله قومي خاص باليهود لا يعبد إلا داخل هذا الهيكل حيث الجباة من اللصوص الكهنة.

لم يسيطر اليهود على القدس يوماً، ولم تخلُ القدس من سكانها العرب اليبوسيين، ولم تكن يوماً مدينة لبني إسراءيل الطارئين عليها ولا مدينة ليهود العالم، وسكناهم فيها جاءت بحكم نزول الديانة الموسوية التي انقلبوا عليها وحرفوها، وهذا ما يقوله الأنبياء والحكماء المتأخرون من بني إسراءيل. بقيت القدس عربية يبوسية كنعانية، وسكنها أهلها من اليهود والمسيحيين والمسلمين العرب المشرقيين عبر الحقب المختلفة من التاريخ.

هل بنى بنو إسراءيل القدس أم دخلوا إليها غرباء طارئين عليها، غزاة طغاة ومحتلين؟

(وصل إلينا من أسماء ملوك أورساليم القدس غير الكاهن ملكي صادق الملك (عبد خبيا)، وهو الملك المقدسي الذي ورد اسمه في رسائل العمارنة ورسالته التي وجهها إلى فرعون مصر (أمنحوتب الرابع) أحد ملوك السلالة الثامنة عشرة، والمسمى (أخناتون). وقد اشتهر هذا الملك العظيم الذي حكم بين 1372-1358ق.م بدعوته لعقيدة التوحيد. ومن أهم ما ورد في هذه الرسائل طلب الملك (عبد خبيا) العون من ملك مصر لصدّ هجمات أهل البادية (العبيرو أو الهبيرو) أو (الخبيرو)، وهم العبرانيون أهل البادية الشمالية، ومنهم جاءت كلمة

١- نيل سلبرمان: (بحثاً عن إله ووطن) ص 79.

عبري التي شاع استعمالها خطأً للدلالة على اليهود في العصور التالية. وتدل جملة أقوال هذا الملك على طلب النجدة: (إن هذه الأرض أورسالیم، لم يعطني إياها أبي ولا أمي، ولكن يد الملك القوية هي التي تبنتني في دار آبائي وأجدادي، ولم أكن أميراً بل جندياً للملك وراعياً تابعاً للملك... ومنحت ملكية الأرض أورسالیم (القدس) إلى الملك للأبد، ولا يمكن أن يتركها للأعداء)[1].

نقل الباحث المتخصص بالمصريات روجرز رسالة الملك المقدسي عبد خيبا من آثار وأرشيف تل العمارنة الموثق تاريخياً للفترة (1372-1358ق.م) وعهد الملك أخناتون الموحد. في هذه الحقبة كان لا يزال بنو إسراءيل (يعقوب) يقيمون في الفردوس المصري دلتا النيل الخصبة، ويدّعى خروجهم توراتياً ما بين (1275-1300ق.م) تقريباً. تكشف لنا رسالة الملك عبد خيبا من ضمن رسائل العمارنة ومقارنة مع تاريخ وقصة الخروج من مصر وطلب الملك المقدسي الحماية والمساعدة لصدّ هجمات البدو الشماليين العبرانيين عن وجود أطماع عبرانية لمدينة القدس (أورسالیم) قبل نزول التوراة على موسى، وقبل اعتناق بني يعقوب لليهودية، مما يثبت قولنا بوجود أطماع استيطانية للقبيلة العبرية قبل بناء الهيكل الأول، وقبل ظهور الديانة التوحيدية بما يقرب من أربعمئة عام من بناء هذا الهيكل على يد الملك سليمان على الأقل. هذه الأطماع لم يكن لها أي علاقة بالتوحيد أو الدعوة الإلهية. في العام (1003ق.م) حاصرها الملك داود واستولى عليها. وفي العام (701ق.م) وبعد وفاة الملك سليمان حكم ملوك طغاة وفاسدون متعبدون لآلهة وثنية أخرى اضطهدوا سكان القدس الفقراء من اليهود والعرب اليبوسيين وغيرهم. وجاءت نهاية طغيانهم على يد الملك سنحاريب ملك آشور القادم من أرض الإمبراطورية في العراق وسورية عام 701ق.م، حيث امتد نفوذ وحكم هذه الإمبراطورية من الفرات إلى النيل.

مدينة القدس تاريخياً مدينة عربية مقدسة تعود ملكيتها الشرعية لسكانها من الوثنيين والموحدين يهوداً ومسيحيين ومسلمين عرباً، ويقتصر حق الآخرين فيها من معتنقي الديانات السماوية التوحيدية الثلاث على الزيارة وحرية أداء الشعائر الدينية والطقوس الروحية والحج، تماماً كما يمارس اليوم ملايين المسلمين من مسلمي العالم في مكة المكرمة والمدينة المنورة هذه الحقوق الدينية هناك، وسيختلف هذا المفهوم عندما تحاول اليهودية الصهيونية تهويدها عند المسلمين والمسيحيين على السواء.

1- R.WROGERS (coneirorm parallels-pp268-278-a- Jeremias-The Old Testemnt, IN, Lilght. of. East Volii p 27. G-BARTON ASKECH of Semitie ORIGINS pp 303-306.

وجاء في العهد القديم: (وَبَنُو بِنْيَامِينَ لَمْ يَطْرُدُوا الْيَبُوسِيِّينَ سُكَّانَ أُورُشَلِيمَ، فَسَكَنَ الْيَبُوسِيُّونَ مَعَ بَنِي بِنْيَامِينَ فِي أُورُشَلِيمَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ)[1].

استغلت الحركة الصهيونية العالمية اندماجها المنهجي مع طبقات المجتمع الأرستقراطي الربوي الإنكليزي اللوثري نجاحاتها. ولم تبقَ أسرة إنكليزية أرستقراطية أو إقطاعية حاكمة إلا وخالطها الدم اليهودي عبر ادّعاء التنصر لليهود، وعبر التزاوج بين أسر الأثرياء من اليهود والمسيحيين لمصالح تجارية أو لسلطة ونفوذ داخل الأوساط الحاكمة الإنكليزية. واستطاعت بذلك الصهيونية السيطرة على الكنيسة ومركز صنع القرار السياسي والمالي والإعلامي والدبلوماسي في الإمبراطورية البريطانية التي ارتبطت مع الحركة الصهيونية بمصالح مشتركة رأسمالية واستعمارية توسعية، حيث جُنِّد معظم ملوك إنكلترا لخدمة مصالحها مقابل خدمة مصالح بريطانيا أيضاً. التقت المصالح البريطانية الإمبراطورية الاستعمارية مع مصالح الحركة الصهيونية، فوضعت السياسة الإنكليزية الخطط والبرامج للسيطرة على فلسطين والمنطقة العربية برمّتها، وتحالفت للعمل على تفكيك الدولة العثمانية مع الأتراك ذوي الأصول الخزرية اليهودية الذين دخلوا الإسلام تستراً (يهود الرجعة، الدونمة)، الذين أسماهم السلطان عبد الحميد (جون ترك). وتم إيفاد مجموعات كبيرة منهم إلى أوروبا (فرنسا، ألمانيا، بريطانيا). هذه الجماعة عرفت حكومة تركيا الفتاة، وتلقت العلوم والمعارف ومبادئ الثقافة الغربية ذات التوجهات الصهيونية، ثم عاد أفرادها إلى تركيا مزودين ومتأثرين بالأفكار الغربية العلمانية في ظاهرها. سيطرت هذه المجموعات على مفاصل الجيش والأوساط السياسية والفكرية. وجدت هذه العصبة في الإسلاميين الأتراك، والأرمن المسيحيين الشرقيين المحافظين، والمهرة الذين قد يتفوقون على اليهود الأتراك في التجارة والصرافة والسباكة والصناعة والمرتبطين بالأرض ارتباطاً مشرقياً ومسيحية شرقية، فاعتبروهم

١- العهد القديم سفر القضاة 1: 21.

معارضين وأعداءً خطرين ومنافسين يهدد تماسكهم ونفوذهم وتواجدهم المشروع الغربي الصهيوني بقيام الدولة
الحديثة العلمانية، فتم حبك المؤامرات والدسائس والتحريض لضرب عصفورين بحجر واحد: الادّعاء بأن المسلمين قد قاموا باضطهاد الأرمن المسيحيين من جانب، ولتحقيق الهدف النهائي بإبعادهم عن تركيا وبعض الأراضي الأرمنية من جانب آخر. وفي عام 1915 نُفِّذتْ الجريمة بدهاء عبر مذابح وفتن متبادلة وتطهير عرقي هدف إلى تعميم سياسة الترحيل الجماعي والتغيير الديموغرافي المنهجي لتغيير مفاهيم وثقافات المنطقة، ولإعادة تشكيل حدودها وخلق الكيانات الجديدة فيها، لتكون هذه الممارسات الوحشية مقدمة لصدور وعد بلفور البريطاني عام 1917 بإقامة كيان يهودي غربي على أرض فلسطين التاريخية وارتكاب المذابح والتطهير العرقي والترحيل الجماعي للفلسطينيين مثلما ارتكبت بحق الأرمن لا سيما الأتراك منهم، كمحصلة طبيعية لهزيمة الدولة العثمانية وإعادة توزيع تركتها عرقياً وثقافياً وجغرافياً، واعتبرت فلسطين من أهم تركات الدولة العثمانية، وبتخطيط مسبق ومرتب ما بين فرنسا وبريطانيا وألمانيا والنمسا، وبمباركة ودعم من القيصرية الروسية الطامعة في بسط نفوذها على الأراضي الأرمنية ومنطقة القوقاز برمتها. وهذا ما حدث مع الشركس أيضاً.

تم لعصبة تركيا الفتاة تحقيق أهدافها بإقصاء السلطان عبد الحميد الذي كان يرفض بشدة هجرة واستيطان اليهود لفلسطين، وتم تعيين شقيقه الذي كان يعيش في النمسا سلطاناً صورياً للدولة العثمانية، فأصبح ألعوبة بيد القوى الجديدة العلمانية الغربية (كانت العاصمة العثمانية لدى وصول باركر[1] إليها زاخرة بالإشاعات والشكوك في أعقاب اضطرابات أهلية وسياسية حادة، خلال فصل الصيف والخريف السابقين. ففي نيسان كانت مجموعة من الضباط الشباب مدعومة بقطاعات واسعة من الجيش وكتلة من الأهالي المتمردة قد أجبرت السلطان عبد الحميد على التنازل عن العرش لأخيه الضعيف غير الفعال محمد الخامس، وبدا مؤكداً أن نفوذ الإمبراطورية العثمانية الذي دام قروناً من الزمن قد تحطم أخيراً، وما من أحد يعرف ما يخبؤه المستقبل لها، غير أن الإجراءات الاعتيادية على الصعيد القانوني والإدارة قد باتت موجودة، فرسمياً على الأقل بقيت سياسة السلطان القديمة الخاصة بالآثار القديمة نافذة، وبالتالي كانت أعمال

١- باركر: ضابط بريطاني برتبة نقيب ترأس حملة التنقيب ضمن مشروع صندوق استكشاف فلسطين واستكشاف أرض الكتاب البريطانية الكنيسة التبشيرية الاستطلاعية.

التنقيب الأثرية البريطانية والأمريكية والألمانية في فلسطين لا تزال مطالبة باصطحاب مفوض عثماني يشرف على عملها. وكانت جميع اللقى المستخرجة لا تزال ملكاً للدولة، لكن باركر تمكن حتى في أجواء القسطنطينة (اسطامبول) التورية المشحونة بعدم اليقين من الانغماس في نموذجه الخاص من السياسة الشخصية والالتفاف على القانون، فبعد الاتصال سراً باثنين من أعضاء حكومة تركيا الفتاة[1]، قام باركر بعرض خمسين بالمئة من أي كنز قد يعثر عليه بالقدس مقابل ثقتهما ودعمهما الرسميين وقبولهما بالعرض وموافقتهما على المجيء إلى القدس بشخصيهما (كمفوضين رسميين). سارع المسؤولان التركيان إلى إيفاد مبعوث إلى حاكم القدس مع توجيهات تقضي بشراء جميع الأراضي الواقعة على السفوح الجنوبية لجبل الهيكل)[2].

استندت بريطانيا إلى جانب قوتها العسكرية ومستعمراتها المترامية الأطراف إلى منظومة استشراقية تبشيرية استكشافية متكاملة الخطط والتنسيق المشترك تعمل تحت شعارات ثقافية وعلمية وخيرية وأعمال إنسانية. ولا تقل خطورة هذه المنظومة عن خطورة القوة العسكرية الطاغية.

عملت هذه المجموعات المجندة على إشاعة الفساد، والفوضى وبث الإشاعات، وتفكيك الجبهة الداخلية، وتجنيد العملاء، وشراء الضمائر، وتعميق التنافرات العشائرية والطائفية والعرقية بين أبناء الأمة الواحدة المستهدفة من المستعمر. هذا ما قامت به البعثات البريطانية والفرنسية والأمريكية والألمانية لتفتيت وتفكيك المنطقة العربية لإقامة وطن قومي لليهود الغربيين على أرض فلسطين.

عملت الحملات التبشيرية الغربية في الأوساط المسيحية الشرقية والعربية في محاولات منها لتأليب هذه القوى الاجتماعية على مجتمعاتها ومواطنيها بأساليب الترغيب والترهيب، لتهجيرهم وترحيلهم خارج أوطانهم، وتحت ستار الإيفادات التعليمية والمنح الدراسية في محاولات يائسة لدمجهم ضمن عقيدة المسيحية الغربية وثقافتها الإباحية المادية، تماماً كما تفعل اليوم سلطات الاحتلال

١- حكومة عصبة تركيا الفتاة التي غلب عليها الطابع الغربي كنتيجة مباشرة لقدوم العدد الكبير من الأوروبيين للعمل لدى السلاطين، والذين ادعوا أنهم قد غيروا دينهم وأصبحوا أتراكاً مسلمين في وقت كان في السلاطين العثمانيين أصحاب رحمة معهم ويحترمون ويجلون جميع الأنبياء، لا سيما النبي عيسى (عليه السلام) وأمه مريم. ويعترفون بالديانات السماوية السابقة وقدسيتها.

٢- نيل سلبرمان: ص 278.

الأمريكي في العراق بالتعاون مع عملائها من الأحزاب الطائفية والعرقية الكردية التابعة العميلة التي لا علاقة لها بالأكراد العراقيين الشرفاء ولا تمثلهم، لتهجير المسيحيين الشرقيين العراقيين خارج حدود وطنهم، والاعتداء عليهم وتدمير ممتلكاتهم، لتحقيق توازنات عرقية وطائفية انتخابية لا علاقة لها بالدين والمعتقدات الدينية. يقول سلبرمان وتحت عنوان (آخر الحروب الصليبية): (عقد احتفالاً بالذكرى الخمسين لتأسيس صندوق اكتشاف فلسطين، علَّق فيه رئيس أساقفة كنتربري قائلاً: لن تتاح بعد الآن فرصة لدراسة ما تم جمعه من وثائق ومعلومات، ووجدنا حتى الآن أنها كانت صعبة الدراسة.

أما في ذلك الوقت فقد كان على مساعي صندوق اكتشاف فلسطين أن توضع تحت تصرف المجهود الحربي البريطاني. وفي كانون الثاني من عام 1916 طلبت وزارة الدفاع رسمياً من صندوق استكشاف فلسطين أن يعلق بيع جميع خرائطه ونشراته الجغرافية. وبادر قادة الصندوق للامتثال إلى هذا الطلب. وهم حين فعلوا ذلك إنما كانوا يعبرون عن امتنانهم الراسخ منذ أمد طويل للمهندسين الملكيين الذين أنجزوا هذا القدر الكبير من عملهم، ويتطلعون للوقت الذي سيتم فيه الاستكشاف البريطاني للأرض المقدسة دون تأخيرات رسمية طويلة)[1].

لم تكن أرض فلسطين يوماً بحاجة إلى الاستكشاف والمستكشفين، فهي ليست مجاهل أفريقيا البعيدة ولا أرض بكر خالية من السكان. وكانت على الدوام منارة ثقافية وروحية للعالم بدياناتها وثقافاتها المتعددة، فهي الحاضنة التاريخية للأديان التوحيدية. وقد بشرت بهذه الديانات، ولا سيما الديانة المسيحية، في وقت كان فيه البريطانيون والألمان والفرنسيون والاسكندنافيون يتعبدون الأشباح ومصاصي الدماء والشياطين، ويعتنقون خرافات الفايكنغ وأرواح أجدادهم ومشعوذيهم.

اعتنق بعض الأوربيين من القراصنة وقطاع الطرق والمنبوذين بين شعوبهم العقيدة اليهودية الصهيونية لأبطال أسطورة الخروج التوراتية التي تبنت القتل والسلب والنهب والحرق والاستيطان والاستعباد شريعةً ومنهاجاً. أصبحت هذه الأساطير سلوكاً ومعتقداً للمتوحشين المغامرين تحت ادّعاء اعتناق رواية (الكتاب المقدس).

(بادرت قوة الحملة المصرية في الجيش البريطاني بالدعم الكامل من جانب حكومة لويد جورج إلى الخروج من قواعدها في سيناء لدى حلول شهر كانون الثاني عام (1916). وقد اتبعت القوة الطريق التي اعتمدها نابليون بونابرت عام (1799م) ذاتها، فاحتلت رفح والعريش دون أن تواجه إلا القليل من المقاومة،

١- نيل سلبرمان ص 296.

وبالتالي فإن شبه جزيرة سيناء كلها باتت تحت السيطرة العسكرية البريطانية، غير أن ذلك النجاح بقي من دون فائدة فعلية ما لم تتوافر إمكانية احتلال الجزء الجنوبي من فلسطين أيضاً. وفي آب علمت القوات البريطانية أن تي أي لورانس (لورانس العرب) على رأس عصبة من البدو غير النظاميين، تمكن من الاستيلاء على ميناء العقبة وأسر المدافعين الأتراك. ولورانس هذا كان في العقبة من قبل. ومن المؤكد أن استكشافه الوجيز للمنطقة قد وفر أحد مفاتيح انتصاره. وعكف اللنبي على دراسة منشورات صندوق استكشاف فلسطين جنباً إلى جنب مع مكتبة واسعة من المؤلفات الكتابية والصليبية، حتى أصبح مع حلول فصل الخريف مستعداً لتنفيذ خطة جريئة. كسب البريطانيون مزيداً من الأرض في سائر أرجاء فلسطين الشمالية فارضين سيطرتهم على المناطق التي كان علماء الآثار قد أشبعوها اكتشافاً. وبعد التوجه شرقاً من يافا والتقدم للتوغل في أعالي مرتفعات يهوذا (القدس) وجه اللنبي قواته نحو التركيز على الهدف الرئيس (القدس)؛ أما المقدسيون السذج فرحبوا بكل ما استطاعوا من حماس بالجنود البريطانيين القادمين، وتطلعت كل واحدة من الجاليات بأمل التلبية الوشيكة لطموحاتها القومية، فالمسلمون المنتشون بنجاح الثورة العربية ضد الأتراك وبالتأييد البريطاني نظروا للقوات البريطانية القادمة نظرتهم إلى حماة دولة عربية مستقلة؛ أما الأكثرية الصهيونية من السكان اليهود فقد حيَّوا الغزو البريطاني بوصفه الخطوة الكبرى على الطريق إلى الوطن القومي الذي وعد به وزير خارجية بريطانيا اللورد بلفور قبل ستة أشهر؛ والجالية المسيحية التي طالما كانت رهينة بيد السلطة الإسلامية بادرت إلى رفع صلواتها الخاصة المشبعة بالارتياح، ثقة منها بأن الأماكن المقدسة لن تخضع ثانية لسيطرة الكفار)[1].

حقق التحالف العربي (الشريف حسين) البريطاني، والتحالف التوراتي الصهيوني للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية غاياته بتحقيق أطماعهما الاستعمارية والصليبية التوراتية التي ساعدت على هزيمة الإمبراطورية العثمانية المتداعية، دون أن ننسى جهود العصبة التركية اليهودية وتحالفها مع الغرب الاستعماري للسيطرة على الأرض العربية، ولتحقيق حلم قيام الدولة اليهودية الصهيونية كقاعدة متقدمة وثابتة لحماية المصالح الاستعمارية وتحقيق الطموحات الإمبريالية والرأسمالية، ضمن برنامج مُخطَّط ومدبر أيديولوجياً دينياً توراتياً وتلمودياً لمعتنقي المسيحية الصهيونية. يقول الكاتب الصهيوني إيلي ليفي أبو عسل: (قلنا إن موسى كان أول من شيَّد صرح الصهيونية ووطد دعائمها، ونشر

١- نيل سلبرمان ص 298-299، 301.

مبادئها السياسية. وقد أثبت لنا الواقع أن الصهيونية ليست في عهدنا هذا سوى حلقة من سلسلة حلقات متصلٌ بعضها بالبعض الآخر اتصالاً متماسكاً وثيقاً، متواثقة أجزاؤها تماسكاً شديد الإحكام... فلو أجّلنا نظرنا في مشروع موسى لاستشفاف ما انطوى عليه من إدراكه، والمناهج التي انتهجها في سبيل تحقيقه، لوجدناه يكاد يكون متطابقاً في معناه ومبناه لتعاليم هرتزل ونظرياته التي جلّ مرماها إظهار الأمور التي لا مندوحة من أن يوصم بها اليهود والعار الذي يرتدونه إذا ظلوا واجمين واجفين. كل هذه الزواجر تميط اللثام وتظهر لنا أن الخطط التي رسمها هرتزل كانت على وتيرة واحدة مع التي وضعها موسى)[1].

محاولة الصهيوني أبو عسل بالمقارنة ما بين رسالة موسى الهدائية وتعاليم هرتزل العنصرية التلمودية لا تستغبي إلا أصحابها الذين يتبنونها اليوم من اليهود الصهاينة وحلفائهم من القوى الغربية العنصرية. وهي محاولة تحمل في طياتها رفضاً ضمنياً لدعوة موسى الهدائية وخروجاً عليها وعدم القبول بها كما أمر الله موسى بها. وتكشف هذه الادّعاءات من جهة أخرى عن صحة الحقائق التي أوردناها في الفصول السابقة، من أن بني إسراءيل الخارجين من مصر مع موسى قاموا بإقصائه وقتله، لأن تعاليمه لا تلبي الطموحات العدوانية التي انفرد بها العبرانيون واستخدموها بحق الشعوب الأخرى غير العبرية. وتظهر مغالطات الكاتب الصهيوني تبنياً لمفهوم الشعب المختار وأرض الميعاد ليهود العالم، حتى ولو كان أولئك اليهود من الملحدين أو الوثنيين، أو ينتمون إلى أمم مختلفة؛ إنها الصهيونية السياسية العنصرية.

قبل متابعة تفاصيل أخرى في هذا البحث، لا بد من تسليط الضوء على الفارق الكبير بين ديانتين مختلفتين ضمن نصوص العهدين القديم والجديد في (الكتاب المقدس)، وبين إلهين مختلفين ضمن نصوص هذا الكتاب.

بدايةً هناك فارق كبير بين الديانة اليهودية الوراثية وبين الديانة المسيحية الهدائية الكونية المتسامحة. ويبدو لنا أن العهدين القديم والجديد يشكلان خطين متساويين لا يلتقيان. أراد بعض المتصهينين من أدعياء المسيحية لهما أن يكونا نهجين متحدين ومتجانسين لا ينفصلان.

يقول المؤرخ الروسي ليف غوميليوف بهذا الشأن: (إن الفرق بين إله العهد القديم وإله إنجيلٍ صاغه الأطهار من البولوصيين والمسيحيين الغنوصيين أن

١- إيلي ليفي أبو عسل: يقظة العالم اليهودي ص 22-24 إصدار 1934 القاهرة.

الأول حرم البشر تذوق شجرة الحياة، أما الثاني فقد وعد (مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِي وَسَطِ فِرْدَوْسِ اللهِ)[1]؛ الأول يعظ بالعزل عن الأجناس والتكاثر حتى أطراف المسكونة، والثاني يحرم حتى النظرة الآثمة للمرأة؛ الأول يعد بمكافأة بالأرض والثاني بالسماء؛ الأول يفرض الختان وقتل المغلوبين، والثاني يحرم هذا وذاك؛ الأول يلعن الأرض، أما الثاني فيباركها؛ الأول يندم لأنه خلق الإنسان، أما الثاني فلا يبدل عطفه؛ الأول يأمر بالانتقام، والثاني بالغفران للمعترفين؛ الأول يطلب ذبائح حيوانية، والثاني يعرض عنها؛ الأول يعد اليهود بالربا (وهذا يعني الرأسمالية)، والثاني يحرم امتلاك المال بغير إثنوس الجبين (عرق الجبين) من غير كسب بالعمل. اعتبرت الغنائم الحربية في ذلك الزمن كأجر لقاء مخاطرة جريئة. في العهد القديم يحرم لمس تابوت العهد وحتى الاقتراب منه، وهذا يعني مبادئ الدين السرية بالنسبة لجماهير المؤمنين، أما في العهد الجديد فدعوة الجميع إليه؛ في العهد القديم ملعون من يعلق على خشبة وهذا يعني الإعدام، في العهد الجديد موت المسيح على الصليب والقيامة؛ في العهد القديم نير الشريعة لا يحتمل، في العهد الجديد نير المسيح هين وحمله خفيف)[2].

تعد ثقافة السيد المسيح السورية الشرقية أساس الدعوة المسيحية بعاداتها وتقاليدها. وكانت بلاد الشام منبعها وقاعدة انطلاقها وانتشارها. ولسان حال أرباب الكنيسة الشرقية يقول: (إنجيلنا لا توراتهم)[3]؛ ومسيحنا جاء هادياً ومصوباً ومكملاً ومقوماً ما ارتكبه اليهود من خروج وتنكر لشريعة موسى. كان يسوع متسامحاً رحيماً عادلاً مسالماً، رافضاً للظلم والقتل والاغتصاب وعبودية الآخر. وجاء في القرآن الكريم شاهداً ومصدقاً ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4]. الوصف القرآني يميز بين اليهود والنصارى الذين يحسنون التعامل بالأمانة والصدق وبما دعا إليه السيد

١- العهد الجديد رؤيا يوحنا اللاهوتي 2: 7.

٢- ليف غوميليوف: (اكتشاف خازاريا) ص 289-290.

٣- تنبه أحرار المسيحية والكثير من الباباوات في الماضي إلى الخطاب المشبوه الذي يتبنى وحدة العهدين القديم والجديد، والذي تتبناه جماعة فرسان مالطة والماسونية بهدف الإساءة للسيد المسيح (ﷺ)، وكذلك ادّعاء داون براون في كتاب شيفرة دافنشي، ومحاولات اليهودية الصهيونية للتسلل إلى المسيحية لتهويدها وتحريفها عن مسار المسيحية الحقة.

٤- القرآن الكريم سورة آل عمران الآية 75.

المسيح (صلى الله عليه وسلم) لمكارم الأخلاق والأمانة وحسن الجوار والتعامل، بينما يتعامل اليهود بالغش والاغتصاب إذا رفع عنهم سيف الحق والقوة، ويدَّعون أن التوراة أباحت لهم سلب الآخر وغشه والاحتيال عليه لأنه من غير اليهود، وأن السلب والاغتصاب هي حقوق إلهية مكتسبة للشعب المختار المقدس. ويبين الله في القرآن الكريم الفارق أيضاً بين التقوى المسيحية وبين الفسوق في التصرفات اليهودية، بقوله تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ۞﴾[1]. يظهر بوضوح التركيز القرآني على البعث والقيامة (يؤمنون بالله واليوم الآخر)، وهي إشارة واضحة لما أثبته في فصول سابقة من أن الرواية التوراتية تتحدث عن ملكية أرضية بحتة وتتنكر إلى أي ثواب أو عقاب إلهي بعد الموت، فلا قيامة ولا بعث ولا ذكر بالمطلق لليوم الآخر، كما في العهد الجديد والمسيحية؛ أما المسيحيون التوراتيون فيدّعون أن مملكة الله الأرضية هي (إسرائيل)، وأن للمسيح مملكة أخرى سماوية، وهو ادّعاء جاهل يبرر للصهاينة تأسيس مملكة يهودية بين الفرات والنيل، ولا تتم عودة المسيح والألف السعيدة إلا إذا قامت هذه المملكة بحسب الخرافة العبرية. وبناءً على ذلك، فإنهم يحاولون امتلاك القرار الإلهي والتحكم بقدرته عبر خلق هذه المملكة بالقوة والإرهاب والخروج على شريعة المسيح وإنجيله، بزعم معركة هرمجدون المتبناة من داخل الرواية التوراتية المحرفة. يحذر الله بني إسراءيل القدامى ومن اتبع زيغهم وضلالهم من اليهود في سورة الإسراء 7-10 من عدوانهم ونكرانهم لليوم الآخر بقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً۞ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً۞ وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً۞﴾[2]. وميز الله تعالى أيضاً بين دعوة العهد القديم المحرفة وبين دعوة

١- القرآن الكريم سورة آل عمران الآيات 113-114.
٢- القرآن الكريم سورة الإسراء الآيات 8-10.

العهد الجديد والفارق الكبير بينهما، بقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ۞﴾[1].

استفادت واستنارت أوروبا أثناء عصور انحطاطها وظلماتها وجهل أحبارها وكهنتها وإماراتها وممالكها الإقطاعية المتسلطة والمتعالية على شعوبها وفقرائها من حضارة الشرق وحكمته وتفوّق علوم ومعارف فلاسفته وأطبائه ومفكريه ومترجميه. وتتلمذت وتهذبت أوروبا الظلامية بخرافاتها وشعوذتها ومحاكم تفتيشها وحرق العلماء من مواطنيها، على يد ابن رشد وابن خلدون والفارابي والخوارزمي وابن سينا والرازي، وغيرهم الكثير. وبنت أسس نهضتها وقيامها على علوم ومبادئ علماء الشرق المستنير وحكمته، التي كرسها الأنبياء العظام أبناء هذا الشرق (عيسى ومحمد) عليهما الصلاة والسلام، من محبة وتعاون وتعايش وتسامح شكل حضارةً مشرقيةً وتراثاً إنسانياً معرفياً ومثالاً أخلاقياً لتمازج الحضارات الإنسانية وتعاونها. يقول المثقفون الوجدانيون بهذا الشأن: (اختتمت مؤخراً بمدينة سيفر الفرنسية فعاليات أسبوع ثقافي حول التعايش بين أبناء الديانات السماوية الثلاث الذي نظمته (جمعية حوار يهود ومسيحيين ومسلمين) المحلية، بالتعاون مع عمدة المدينة ومعهد العالم العربي بباريس. واختاروا لها شعاراً (الأندلس). وتضمنت الفعاليات معرضاً للتراث الإسلامي اليهودي المسيحي إبان الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية في الفترة من (732-1494م). وقالت ماري أودين لافوس مارين إحدى مؤسسات جمعية الحوار: (إن الهدف من المعرض هو إبراز تجربة الأندلس الفريدة التي تميزت بدقة عالية في التسامح الديني والتعايش الودي بين أتباع الديانات التوحيدية). وأضافت أن الأندلس لا تزال نموذجاً رائعاً يمكن أن نستلهم منه الكثير لتحسين العلاقات بين أبناء الديانات السماوية في مدينتنا وفي فرنسا قاطبةً. واعتبرت مارين، وهي مدرسة

١- القرآن الكريم سورة المائدة الآيات 82-83.

كاثوليكية، أن المعرض (يظهر بجلاء أن المسلمين ليسوا غرباء في أوروبا)، لأن إسهامات علمائهم وفلاسفتهم وأدبائهم وفنانيهم كانت رافداً أساسياً للنهضة الأوروبية.

أما عالمة اللاهوت جنفيف كامو فقالت إن الحوار بين أبناء الديانات السماوية يجب ألا يهدف إلى تحويل الآخر عن دينه، وإنما معرفته على نحو أحسن وأكمل. وأيّد هذا الطرح محمد الجندي الخطاط المصري المقيم بفرنسا، مؤكداً أن الجهل المطبق بالآخر سبب أساسي في النظرة السلبية للإسلام الموجودة في الغرب. وبعض الزوار الذين قرؤوا ترجمة الآية القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، الّتي كتبتها في إحدى لوحاتي لم يصدقوا للوهلة الأولى أنها وردت في كتابنا الكريم)[2].

يعد الخلط المعرفي بين اللاهوت والتاريخ اتهاماً مبرراً يطلق على العديد من الكتّاب والباحثين الغربيين للدراسات الكتابية، واللاهوتيين الذين حاولوا ويحاولون إيجاد المبررات ورتق الفجوات وردم هوة التناقضات الصارخة الفاضحة التي اعترت الرواية الكتابية العبرية المتبناة من قبل كهان وأحبار وساسة الغرب المادي، عبر الخلط بين التاريخ واللاهوت، وبوضوح أكثر الخلط بين التاريخ والأسطورة، لتبرير وتمرير سياسات وممارسات استعمارية عدوانية بحق الشعوب غير التوراتية والتلمودية؛ فهل انبرى وتطوع المفكرون والمؤرخون وعلماء الدين من مسلمين ومسيحيين ومؤرخين عرب ومشرقيين للتصدي وفضح هذه الإرهاصات والتخرصات لبعض الدراسات الكتابية المتحيزة والمضللة التي تطلقها قوى المسيحية المتصهينة والأنجلوساكسونية، أم أن الكثير منهم انصاع وتبنى النمطية الغربية الناشطة والموجهة بتبشيرها واستشراقها للمنطقة العربية والإسلامية، وتعاطى معها كحقيقة كتابية وقدرية وواقع حال لا يمكن الوقوف بوجهه أو التصدي له، بدلاً من أن يتبنى العمل على إيجاد منظومة

١- القرآن الكريم سورة الحجرات الآية 13.

٢- جريدة تشرين السورية: يحدث هذا في العالم - العدد 10192 تاريخ 2008/4/13.

مؤسساتية تعنى بالدراسات الكتابية وإيجاد الآلية التي تمكننا من كشف زيف هذه الدعوات المنحازة والخرافية لمدرسة علم اللاهوت الغربية؟

يسلط الدكتور أحمد برقاوي الضوء على هذا الجانب المهم من الموضوع بشكل مختصر تحت عنوان (التاريخ بين الأسطورة والواقع)، بقوله: (إذا كانت الأسطورة متخيلاً إنسانياً لأحداث لا تنتمي إلى المعقول ولا إلى الواقع المحكوم بعلاقات سببية واقعية موضوعية، فإن المؤرخ العربي الإسلامي لم يكن قادراً على التمييز بين الأسطورة والواقع دائماً. وتعامل مع الأساطير على أنها وقائع حدثت فعلاً. والسبب الأساسي في ذلك أن وعيه التاريخي لم ينفصل عن وعيه الديني، ولهذا تعامل مع القرآن والتوراة كمرجعين تاريخيين: التوراة بما تتضمنه من أساطير حول العالم وتاريخ اليهود، والقرآن بما تضمنه من قصص الأنبياء؛ فالتوراة شكلت مرجعاً أساسياً لدى جميع المؤرخين الإسلاميين، وهم يؤرخون لمرحلة ما قبل الإسلام بدءاً من تاريخ البشرية حتى آخر ملوك بني إسراءيل، بل إن بعض المؤرخين الأوربيين لا يزالون يرجعون إلى التوراة لرصد تاريخ المنطقة، ولكن وفق تعامل جديد بعد تحريره من الأسطورة. وإذا كان هناك ما يبرر عودة المؤرخ الإسلامي للتوراة مرجعاً، فإن العودة إليه الآن بعد الكشوفات الأثرية وفك رموز اللغات القديمة وتطور منهاج البحث التاريخي، ليس له ما يبرره إطلاقاً. نعم، لقد انتقلت أساطير التوراة إلى كتب التاريخ العربي الإسلامي، بوصفها تاريخاً ووقائع، دون أي إعمال نقدٍ لهذه الأساطير، وآية ذلك أن المؤرخ الإسلامي، إضافةً إلى وعيه الديني بالعالم، لم يجد أمامه إلا هذا المرجع ليسدّ الفراغ في معرفته تاريخ المنطقة، هذا من جهة، ولأنه اعترف باليهودية كدين سماوي من جهة ثانية، إلى الحد الذي تعامل فيه مع أكثر ملوك (إسراءيل) بوصفهم أنبياء)[1].

أعتقد أن هذا النقد بنّاء ومقنع، وهو موجه لبعض المفكرين والعلماء، وبينهم بعض رجال الدين، الذين اعتمدوا على تفاسير الكهنة والأحبار والكتاب اليهود، الذين سبقوا ظهور الإسلام أساساً ومرجعاً للتفسير والتأويل للكثير من الأحداث التاريخية والقصص القرآنية والتوراتية والإنجيلية.

يعد قصور البحث العلمي للواقع التاريخي سبباً أساسياً لتقديس الرواية الكتابية، ولاستمرارها كموروثٍ شعبي أقنع الكثير من الناس من عربٍ مسلمين

١- د. أحمد برقاوي: (التاريخ بين الأسطورة والواقع) مجلة الأمل - دمشق - العدد الأول 2008.

ومسيحيين لسنين عديدة، لا يجوز نقدها أو التطاول عليها. وثبت أن هذا الموروث الأسطوري غير العلمي ما هو في الواقع إلا من (الإسرائيليات) المدسوسة عن طريق أحبار وكهنة اليهود داخل المفاهيم المسيحية والإسلامية!

وهناك من تعاطى مع هذا الموروث بجهالة وقصور معرفي، والبعض الآخر، وللأسف، انتهجها كحالة مرضية. هذه الحالة المرضية أنتجها البعض من (شيوخ ومفتي وكهنة السلطان)، التابعين والموظفين في مدرسة ومنظومة الأمير والحاكم والسلطان، المهللين لجوره وطغيانه وجهله، والذين يعملون على تسويق خطابه السياسي على حساب الخطاب القومي، متناسين الأخطار التي تهدد الأمة ومصالحها، ومتنكرين للرسالة الهدائية والأخلاقية الملقاة على عاتقهم دينياً وقومياً، فشكلوا بذلك جوقة من المتشددين الردّاحين والمغنين لموبقات الحاكم والسلطان وسياسته المعادية لتطلعات شعبه وقضاياه المصيرية، عاملين على حثّ الجمهور للاستكانة والخضوع لمشيئة الحاكم، وعلى هدم فرائض الجهاد والمقاومة وتقزيم تعاليم الدين الحق، وحث الناس على الاهتمام بالأمور الحياتية والتعبدية الفردية والطاعة العمياء للحاكم.

الفكر العصبوي الساذج والسطحي الذي يخلط بين الدين وتعاليمه السمحاء وبين السلطة والتسلط وعربدة الجاه والبذخ الدنيوي الفاضح هو ما دفع باتجاه التملق والاستعانة بالمحتل المستعمر، ووحده من سوّغ ويسوّغ للملوك والأمراء والرؤساء والسلاطين إشادة الأسوار والحواجز الحديدية بين أولئك الحكام وشعوبهم، عاملين على تجهيلها وإرهابها وإخضاعها لمشيئتهم السلطوية. وتتشابه هذه الممارسات والتصرفات مع ما قام به بعض سلاطين الدولة العثمانية في أواخر عهدها عندما استطاعوا تحويلها من إمبراطورية إسلامية عادلة وشابة وثورية وإنسانية إلى سلطنة متهاوية وُصِمتْ في نهاية عهدها بأنها كانت سلطة الجاه والحريم والجواري والبذخ والتسلط دون حساب وتقدير لوعي الشعوب وتطلعاتها نحو الحرية والتقدم والتطور ومواكبة حركة التاريخ وحتميته المتجهة صعوداً نحو التغيير والانعتاق لتحقيق الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة ونبذ التسلط والعبودية.

التسلط والفساد الذي شاب أواخر حكم الإمبراطورية العثمانية خلّف دماراً وكارثة وطنية وإنسانية لكامل المنطقة العربية. ومكّن الدولتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا، ومعهم وليدتهم الإمبريالية الأمريكية من السيطرة على كامل المنطقة وتقسيمها وخلق الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، وخلق كيانات أخرى هزيلة متخلفة تابعة وتسلطية رهنت إرادتها لمشيئة المستعمر مقابل تربعها على عرش السلطة وترف وسطوة عشائرها وتابعيها.

الإسلام الحنيف كما نفهمه ويفهمه العلماء الأفاضل لهذه الأمة، هو الإسلام المستنير المتحضر المتسامح الذي يحاور ولا يكفّر، يقرب بين الناس ولا يُبعد، ويسعى لبناء مجتمعٍ متسامحٍ محبٍّ ومتعاونٍ، ثوري مقاوم ومواجه لا مهادن ولا متحالف، متعدد ديمقراطيٍ حرٍّ مشرقي.

يسلط الدكتور مصطفى بوهندي، أستاذ علوم الأديان المقارنة، الدار البيضاء، المغرب، الضوء على طبيعة العلاقة التوحيدية بين الأديان السماوية وموقف الإسلام منها الذي لا يكفر ولا ينسخ شريعة سبقته بل يكملها، بقوله: (فالرسل يصححون الوضع، ويردّون الأمور إلى نصابها بعد حالات الاستثناء، والتي إنما تكون بما كسبت أيدي الناس. والرسول محمد (صلى الله علبه وسلم صحح الوضع نهائياً عندما قال الله سبحانه: (..*أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً..*)[1].

إن نسخ الشرَيعة اللاحقة للشريعة السابقة لا يؤخذ على إطلاقه، فعيسى ابن مريم آتاه الله الإنجيل، وكان مصدقاً لما بين يديه من التوراة؛ ومحمد (صلى الله علبه وسلم آتاه الله القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ومهيمناً عليهما، وتصديق القرآن إنما كان لما في التوراة والإنجيل من الحق، فالقرآن يشهد بصحة وصدق ما جاء به الأنبياء قبله في التوراة والإنجيل. وهيمنة القرآن تقضي أمرين: الأول: إكمال ما لم يكتمل من الدين إلا بالرسالة المهيمنة الخاتمة، لأن البشرية لم تكن بعد مهيأة لتقبل الدين الكامل، والثاني: تصحيح ما طرأ من انحراف في الدين بسبب تدخل الأحبار والرهبان لأمد طويل، والظروف المختلفة، وبيان ما كتموه وما اختلفوا فيه وما حرفوه عن مواضعه، وتسطير القواعد المنهجية المانعة لوقوع مثل هذه الانحرافات،

١- القرآن الكريم سورة المائدة الآية 3.

وكذلك اكتشافها، وغير ذلك مما جاء القرآن مبيناً له. هذا ولا يمكننا أن نعتبر أن كلمة آية تعني (شريعة)، وأن نسخ الآيات يعني (نسخ الشرائع). ولن يدّعي أحد أن بني إسراءيل قد سألوا موسى من قبل أن يأتيهم شريعة من خلال قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾[1]، بل يتفق الجميع على أن ما سأل قوم موسى رسولهم كان آية، وهو سياق الآيات المستدل بها على النسخ، وعليه فالنسخ في النصوص المستبدل بها عليه لا تدل على نسخ الأحكام في القرآن، ولا على نسخ الشرائع، إنما نسخ آيات المرسلين بعضها ببعض إلى أن جاءت الآية الكريمة الخاتمة فكانت البديل الثابت إلى يوم القيامة)[2].

هذا هو موقف الإسلام من اليهودية والمسيحية، لا نسخ لشريعة موسى وعيسى (عليهما السلام). ونسخ الآيات واستبدالها بمثلها أو خير منها جاء في صلب رسالة عيسى ابن مريم عندما خاطب اليهود بقوله، وهي إحدى الأمثلة: (❁وَقِيلَ: مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ فَلْيُعْطِهَا كِتَابَ طَلاَقٍ ❁وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلاَّ لِعِلَّةِ الزِّنَى يَجْعَلُهَا تَزْنِي وَمَنْ يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةً فَإِنَّهُ يَزْنِي)[3].

فنسخ المسيح (صلى الله عليه وسلم) لآية في شريعة موسى لا يعني نسخ الشريعة كلها. وجاء هذا التعديل في الآية استجابة لضرورة الإصلاح الاجتماعي في زمن التعديل، وبسبب تعدد المطلقات والزوجات لدى بني إسراءيل. وتقول التوراة إن سليمان تزوج ألفاً من الزوجات والسراري.

شارك الرئيس الأمريكي بوش الإسرائيليين احتفالاتهم في شهر أيار 2008 بالذكرى الستين لقيام الدولة اليهودية. وجدد من فلسطين المحتلة دعوته الصهيونية التوراتية (بيهودية الدولة). وما يثير الدهشة والاستغراب أن الولايات المتحدة الأمريكية تحتفل أيضاً في شهر أيار بالذكرى الأربعمئة لقيام أول مستعمرة استيطانية إنكليزية في القارة الأمريكية في أيار من السنة الماضية، كما احتفلت مع الأمريكيين الملكة البريطانية بمناسبة مرور أربعة قرون على الاستيطان الأنجلوساكسوني لأول مستعمرة هناك في (أيار 1670)، حيث ألقى الرئيس بوش

١- القرآن الكريم سورة البقرة الآية 108.
٢- الدكتور مصطفى بوهندي: (التأثير المسيحي في تفسير القرآن الكريم) 56-57.
٣- العهد الجديد إنجيل متى 5: 31-32.

الصغير خطابه بقوله إن أجداده قدموا إلى أمريكا لنشر قيم الديمقراطية والحرية وإنهم نجحوا في ذلك. إنها الادّعاءات والأكاذيب نفسها التي تشدق بها الرئيس الأمريكي بوش عند احتلاله أفغانستان والعراق، حيث شهدنا بركات حريته وديمقراطيته هناك، كما نشرها أجداده بحق السكان الأصليين لأمريكا، وكما طبقها الغزاة الفرنسيون والبريطانيون في كل من الجزائر وفلسطين، التي ادّعوا أنها ستكون واحة للديمقراطية والحرية الغربية والسلام في منطقة الشرق الأوسط، وحتى قبل التمكن من احتلال فلسطين وقيام الدولة العنصرية هناك. كتب الإرهابي الصهيوني دافيد بن غوريون إلى موشى شاريت منذ شباط عام 1948، قبل اندلاع الحرب العربية الإسرائيلية بثلاثة أشهر، ومن مذكرات ابن غوريون التي كتبها في الأسبوع الأول من المعارك، في 24 أيار: (سوف نقيم دولة مسيحية في لبنان... وسوف نحطم شرق الأردن ونقصف عاصمتها وندمر جيشها، وسوف نجعل سوريا تركع، وسوف تهاجم قواتنا الجوية بور سعيد والاسكندرية والقاهرة من أجل أن نثأر لأسلافنا الذين اضطهدهم المصريون والآشوريون في العصر التوراتي)[1]. يقطف الفلسطينيون في العصر الحديث، اللاجئون والرازحون تحت الاحتلال والحصار الصهيوني، ثمار حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية الغربية؛ وتُقطفُ أرواحهم بالمذابح والإبادة الجماعية بالأسلحة المحرمة دولياً، والعقوبات بالموت جوعاً وحرقاً وحصاراً، وبتقطيع أوصال أطفالهم ونسائهم أمام أعينهم على مرأى من العالم الغربي المتحضر الصامت والمتواطئ مع العدوان الإسرائيلي والمساند له مادياً وعسكرياً وأممياً وإعلامياً بكل صفاقة وصليبية توراتية معلنة، لكن غزة العزة ستنتقم لشهدائها وجرحاها ومشرديها بالطريقة المناسبة للرد على حجم هذه الجريمة من كل المنفذين والممولين والمتواطئين والمخططين والصامتين. وإن غداً لناظره قريب!

قام الإرهابي جورج بوش بتدمير أفغانستان وفلسطين والعراق وأجزاء من لبنان، انتقاماً إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف من الأمريكيين هم ضحايا أحداث

١- إعداد وترجمة الأستاذ غازي أبو عقل (إسرائيل قبالة تاريخها - نصر مبين لمدرسة المراجعة التاريخية - مجلة الأمل - العدد 2 - شتاء 2009.

الحادي عشر من أيلول، المنفذة بتواطؤ أمريكي وتراخٍ مفتعل. كيف سيثأر العرب والمسلمين من قادة الغرب وأمريكا انتقاماً إلى أكثر من مليون ونصف المليون شهيد سقطوا ضحايا الإرهاب الأمريكي في العراق ولبنان وفلسطين؟ كيف سيكون هذا الردّ والاستنصار للضحايا؟ وهل هناك من أسلوب آخر لهذا الرد بغير الصمود والمقاومة؟

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
فرع الوزارة بمنطقة مكة المكرمة
الإشراف على مساجد مكة المكرمة
إدارة المساجد

الرقم : ٩٢/٢/٢٩٧٤
التاريخ : ١٠/٩/١٤٢١هـ
المشفوعات :

سري وعاجل

تعميم لكافة الجوامع والمساجد

فضيلة أمام جامع/ مسجد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد..

تنفيذ تعميم فضيلة مدير عام فرع الوزارة بمنطقة مكة المكرمة رقم ٥/٢٠/٩٠٧١/س في ١٤٢١/٩/١هـ المبني على برقيه صاحب السمو الملكي أمير منطقة مكة المكرمة السريه ذات الرقم ١ س/ ٧٠٣٥٣٤ في ١٤٢١/٨/٢٣هـ المتضمنه توفر معلومات لدى الإمارة باستمرار تواجد منشورات في بعض المساجد تدعو إلى مقاطعة المنتجات الأمريكيه وتطرق بعض خطباء الجوامع في تلك المنشورات بالتأييد ومقاطعة المنتجات الأمريكية وقد تضمنت برقيه سموه الكريم ما نصه (يمنع منعاً باتاً توزيع أي منشورات بهذا المفهوم أو التطرق لهذه المواضيع في الخطب فالمنابر للدعوه الناس وتبصيرهم بأمور دينهم لا لاشغالهم بما لايخصهم في حاله تكراره سوف يحاسب الجميع بما في ذلك المسؤولين طرفكم) ..

نأمل الاطلاع والتقيد بذلك وانكم مسؤولون عما يحدث كل ومسجده .. أعانكم الله ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

١٠/٩/١٤٢١هـ

مدير الأوقاف والمساجد بمكة المكرمة

محمد بن جميل بن محمد الكتبي

الزهراني

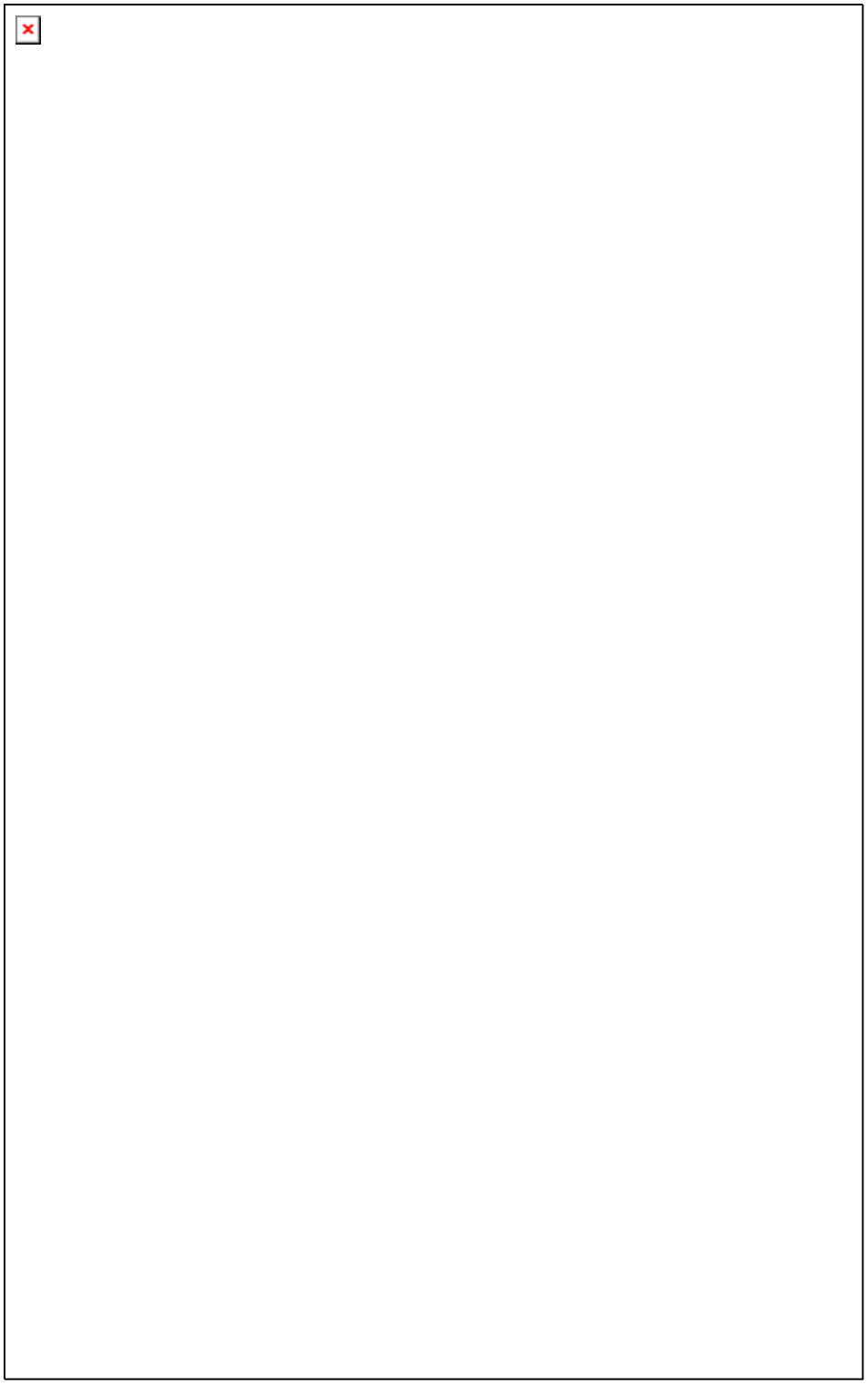

الخاتمـــة

فـي نهايـة هـذا الكتـاب أود أن أنـوه إلـى أن مـا قمنـا باستعراضـه أو بحثـه لا يهـدف إلـى إبـراز ديانـة دون أخـرى، أو انحيـاز لديانـة توحيديـة علـى حسـاب أخرى، ولا يهدف أيضاً إلى الدفاع عن الديانات ما قبل التوحيدية، بل كانت الغاية المتوخـاة مـن هـذه الدراسـة تضـميناً ومقارنـة ودراسـة تاريخيـة وجغرافيـة مناخيـة لتطور مفهوم التوحيد من العبادة للآلهـة المتعددة القديمـة، وكيفيـة حدوث الانتقال بها إلى عبادات الإله الواحد الخالق للكون، وصـولاً إلـى الغايـة الرئيسـة المنشـودة في هذا البحث، ألا وهي محاولة التمييز بين ما هو وحي إلهي وبين ما هو بشـري ووضـعي دُسَّ فـي الكتـاب المقدس دسّـاً ولا علاقـة لـه بالألوهيـة والتوحيـد، لكنـه حاضرٌ بقوة ووضوح ضمن الرواية التوراتية التي بين أيدينا اليوم.

كما إن ما جاء من تداخل ونقد ومراجعة أو إشارة لبعض المفاهيم والقيم والعـادات الموروثـة لـدى أتبـاع ديانـة أو أخـرى، إنمـا تـم علـى قاعـدة الاسـتئناس والمحاولـة لإثـراء البحـث، ولمعرفـة الكثيـر مـن المفـاهيم والعـادات المتعـددة التـي يعتقد البعض أنها جزء من العبادات، بينما هي تمثل عادات وقيم موروثة من ما قبل التوحيد إلى ما بعد الديانات التوحيدية (كتشبيه الأنبياء والشعوذة وجرائم الشرف).

أمـا الاقتباسـات واختيـار مصـادر البحـث الـواردة ضـمن الكتـاب، ممـا كتبـه الباحثون والنقاد والمتخصصون بالدراسات الكتابية والأثرية التي استندنا إليها، وعلم المصريات ومقارنة الأديان، يعبر ما ورد منها في متن الكتاب عن آراء وأفكار أصحابها وكتابها، وهي ليست بالضرورة معبرة عن رأي الكاتب دائماً.

إن التطـرق لكتـاب إلهـي معـين أو لديانـة مـن الـديانات بالنقـد أو الدراسـة والمقارنة لا يعني بالمطلق أن هناك تمييزاً أو مسعى لتغليب ديانة علـى أخرى أو كتاب سماوي على آخر.

وليس مطلوباً من القارئ أن ينحاز لديانة دون أخرى. وهذا البحث يهدف فيما يهدف إلى معرفة الآخر وقراءته، على أمل الأخذ بالقواسم المشتركة من رموزٍ دينيةٍ وأخلاقيةٍ تجمع معتنقي الديانات التوحيدية كافةً على قاعدة الحوار البنّاء والتعارف والتعايش والأخوّة والتعاون بين أتباع جميع المذاهب والأديان،

وعلى الاحترام المتبادل والاعتراف بالآخر بعيداً عن منطق الإقصاء والتكفير أو المصادرة أو الاستئثار.

وعلينا الاعتراف، مشرقياً وعربياً وإقليمياً، أن هذه الديانات والمذاهب والثقافات المختلفة والمتوافقة على قواعد من العدل والعلم والأخلاق، تشكل مجتمعة قيماً وتراثاً مشرقياً، وحضارة ساهمت في إثراء الحضارة الإنسانية وتقدمها وتطور معارفها، تمكنت هذه القيم والثقافات المشرقية من التواصل والتفاعل الإيجابي والحوار مع الآخر دون أي انحياز عرقي وجغرافي بعيداً عن التمييز والعنصرية التي نشهد بعض فصولها في سياسات الغرب في هذه الأيام. ويجب الإقرار أيضاً أن جميع أبناء هذه الديانات والمذاهب والثقافات المشرقية والعربية هم شركاء المصير والوطن الواحد. وهم متساوون جميعاً في الحقوق والواجبات، فهم أبناء وطن واحد لشعب متعدد المذاهب والديانات، ليس كما يصفهم الغرب وبعض مستشرقيه تحت عبارات (الأقليات المسيحية أو العرقية)، وغيرها من التسميات المفروضة، فالأرض العربية من الحجاز إلى أرض مصر والعراق، وسوريا الطبيعية منها في القلب، كانت ولا تزال موطن ومنبع المسيحية الشرقية الفلسطينية (الكونية) وموطن ومهبط الديانات والرسل والأنبياء كافةً، الذين تشرفت بهم أوطاننا المقدسة وأبناء أمتنا المؤمنة الروحانية البعيدة عن الأفكار المادية والإلحاد.

وإذا كنا نفنّد ادّعاءات ومزاعم الأصولية الغربية ومركزيتها المغرقة بالتمييز والعنصرية والمادية البحتة، ونوجه لها سهام النقد، وندين رأسماليتها المتوحشة ونزوعها نحو التسلط والاغتصاب والاستعمار ومنطق القوة الطاغية، واحتقار الآخر وثقافاته وعقائده الدينية عبر تبنّيها المطلق والمتطرف للنصوص الأسطورية الواردة ضمن الرواية التوراتية والتلمودية، دون إعمال العقل والمنطق والمراجعة العلمية، فإننا في الوقت نفسه نميز جيداً ونفرق بينها وبين تلك القوى الحرة المستقلة الشريفة والإنسانية الغربية من ساسة ومثقفين ورجال فكر ومتضامنين ومنظمات مجتمع مدني مناضلة ومتطلعة نحو التعاون والمعرفة والحوار مع الآخر، تلك القوى التي تحمل في ضمائرها قيم الخير والحق والعدالة والمساواة بين الشعوب، نابذةً للمعايير المزدوجة والتطرف، لا سيما تلك القوى العلمانية والعلمية الساعية لتفكيك ما هو غير إلهي وتاريخي ضمن الرواية الكتابية التي تلزم بعض مُعتنقيها بالانحياز للغرب، فمبادئ الديمقراطية الحقة والعدل والأخلاق الحميدة تتطلب من مدعيها ومعتنقيها احترام خصوصية ومعتقد وقيم وثقافة الآخر، وتقوّمه من خلال معايير معتقداته وثقافاته بعيداً عن النمطية الأوروبية ومركزيتها، والتوقف عن إصدار الأحكام على الآخر وتقويمه وتوصيفه من خلال معاييرها الخاصة بها، والتي لا تزال تمارس وبقسوة إلى اليوم كثقافة وعقيدة تؤمن بمبدأ سمو المعايير والثقافات الغربية

البيضاء على ما عداها من الشعوب والأديان والثقافات والحضارات والقيم الإنسانية الأخرى لشعوب العالم كافةً.

هذه النمطية المبرمجة من التفكير والثقافة الخاصة هي وحدها من أنتج وعمّق الأصولية الغربية وتطرّفها، التي استولدت العنف والعنف المضاد والتطرف، كالحروب الفرنجية الصليبية التي قادها وحرّض عليها وأشعل نيرانها الكهان والأحبار ورجال الإقطاع الديني والقادة الجهلة، الذين حكموا أوروبا الإقطاعية، وتسلطوا على شعوبها في ظلمات القرون الوسطى.

ما إن طوى هذا الشرق المستباح صفحة هذه الحروب العدوانية، حتى عاد الغرب بقياداته الأصولية المتطرفة ليفتح صفحات جديدة سوداء وعنصرية أشد قسوة ووحشية، تمثلت في وعد بلفور التوراتي اللوثري، الذي ترافق مع الاحتلال المباشر البريطاني والفرنسي والتبني الأمريكي له (تقسيم سايكس بيكو). هذا الحلف الصهيوني الشيطاني لشهود يهوه والمسيحية المتصهينة المبكرة هو الذي أسس وخطط ودعم قيام كيان عنصري صهيوني على أرض فلسطين العربية عام 1948. وكان من نتائج قيام هذا الكيان وتداعياته توقيع اتفاقيات كامب ديفيد وأسلو ووادي عربة، تلك الاتفاقيات غير العادلة والمذلّة مهدت الطريق لاحتلال العراق وتدميره، وللعدوان على لبنان وفلسطين، ولحصار غزة، وصولاً إلى محرقة القطاع الصامد والانقسام الفلسطيني. هذه المحارق لا تزال مستمرة في ظل صمت عربي جبان ومهادن وتواطؤ دولي متآمر وجائر.

أفرزت القوى الغربية المتصارعة على المنطقة قوى عربية تابعة وحليفة لها، وصفتها بالدول المعتدلة. تلك القوى والأنظمة التابعة ما كان بمقدور حكامها وأتباعها يوماً أن يملكوا الجرأة أو الشجاعة للخروج على المبادئ الثابتة للأمة (لا صلح ولا اعتراف ولا تقسيم)، فأصبحوا اليوم يتشدقون علناً بالاعتدال والواقعية والبراغماتية الانتهازية، تبريراً لتحالفهم وعجزهم أمام شعوبهم المسلوبة الإرادة والمضطهدة والمغيبة عمداً.

نتفهم جيداً، ونميز، ولا نبرر لغانية فرضت عليها ظروفها الخاصة بها وبزعمها أن تصبح غانية! ولكن ما لا نفهمه ولا نجد له تبريراً أو تفسيراً أن تعمل تلك الغانية جاهدة للإيقاع بجاراتها جميعاً إن استطاعت ليكنَّ غانيات على شاكلتها بدلاً من توبتها وعودتها إلى جادة الصواب والأخلاق.

تحاول هذه القوى الانهزامية المستسلمة اليوم تحويل الأنظار عن العدو الحقيقي للأمة والمنطقة المشرقية برمّتها (إسرائيل)، والتوجه بهذا العداء نحو جمهورية إيران الإسلامية، حيث تعمل بكل قوتها لتجعل من (إسرائيل اليهودية)

بالنسبة لها وللمنطقة العربية (قطراً شقيقاً) تتحالف معه سياسياً وعسكرياً في مواجهة ما تسميه (الخطر الإيراني الشيعي)، حيث ستصنف دولة صهيون اليهودية، وستنتمي مستقبلاً إلى (عرب السنة)[1]. وقد تصبح قريباً عضواً في جامعة الدول العربية!

تتباكى هذه القوى المنافقة على أهل السنة في لبنان والعراق، متناسيةً أنها هي من موَّل وتحالف ودعم وسهَّل للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها من الغربيين والصهاينة احتلال وتدمير العراق وأجزاء من لبنان وقطاع غزة. ولا تسعفها ذاكرتها الضعيفة اليوم في تذكر عهود تحالفها مع الصهيوأمريكي الشاه انشاه، وأسرته المستبدة الفاسدة، الذي حكم إيران مدعوماً بمؤامرة أمريكية وبريطانية أطاحت بحكومة إيران الشرعية والديمقراطية المنتخبة (حكومة الدكتور مصدق) عام 1953، وباعتراف الرئيس الأمريكي أوباما نفسه علناً، الشاه الطاغية هو من احتل الجزر العربية الثلاث، التي لا يتمنى أي عربي أو مسلم أن تتحول إلى قواعد عسكرية أمريكية أو بريطانية أو فرنسية تهدد أمن بلدان وشعوب المنطقة برمتها، وتستنزف ثرواتها وطاقاتها، مع تأكيد عروبة هذه الجزر وحق دولة الإمارات العربية في السيادة عليها.

ما لم تركع إيران وتدخل في حلف الشيطان الأكبر سوف تبقى موصوفة ظلماً بدولة (الخطر الفارسي). يعيبون على المقاومة الوطنية الإسلامية اللبنانية والفلسطينية تلقيها الدعم والمساندة والتأييد من الشعب والحكومة الإيرانية، ولا يتجرؤون على نقد الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عندما قدموا الدعم والمساندة والأسلحة الفتاكة والمحرمة دولياً إلى دولة اليهود الصهيونية قبل وأثناء شن حربها ومحرقتها على أبناء جلدتهم في قطاع غزة الذي يتعرض لحرب إبادة جماعية وجرائم حرب وتجويع وحصار خانق، مُتناسين واجبهم كعرب ومسلمين في تقديم الدعم والسلاح والتأييد الكامل إلى قوى المقاومة العراقية والفلسطينية واللبنانية، بدلاً من التآمر عليها والاصطفاف والتحالف مع أعدائها، متناسين أيضاً صفقات الأسلحة الضخمة والمشبوهة التي أغدقت عليهم ابتزازاً. ولم نرَ أو نلمس

١- يحاولون عبثاً شطب التاريخ والنضال المشرف للطائفة السنية الكريمة في الوطن العربي، والتي كانت ولا تزال في مقدمة القوى العربية القومية، والاشتراكية، والناصرية، والإسلامية، في مواجهة الاستعمار والتبعية والصهيونية، لا سيما القوى الوطنية اللبنانية والسورية والأردنية والمصرية والعراقية والشعبية في الجزيرة العربية. فمنذ متى تمثل الرجعية العربية ونواطيرها هذه الطائفة الإسلامية المناضلة؟ إلى أي جحيم ترغب هذه القوى والأنظمة المتخلفة التابعة أن تذهب بنا؟ لم تكن هذه الطائفة يوماً إلا في مقدمة كل الطوائف والأديان في المنطقة العربية والإسلامية في كفاحها ودعمها اللامحدود لنهج التحرير والمقاومة والصمود والوحدة والتعايش ضمن الوطن العربي الواحد وشراكة الإقليم العربي الإسلامي، دون الأخذ بأي معايير مذهبية أو عرقية مقيتة تحاول الصهيونية وأتباعها فرضها علينا.

لها أثراً أو استنصاراً لقضيانا العادلة. يتحدثون ليلاً نهاراً عن خطر البرنامج النووي الإيراني، متناسين عن علم ويقين خطر الرؤوس النووية الإسرائيلية التي تهدد كامل المنطقة.

لقد قامت الثورة الإيرانية منذ ثلاثين عاماً، واستطاعت تسخير طاقاتها وثرواتها في بناء قاعدة صناعية ونهضوية ودفاعية متطورة ومتقدمة، لتدافع عن استقلالها وحريتها. ولم تستقدم القواعد العسكرية الغربية لحمايتها، بينما كياناتنا العربية التي تملك الطاقة والثروة والقوة البشرية الكبيرة، التي تفوق ما تملكه إيران أضعافاً مضاعفة، ولها من الاستقلال والسيادة أكثر من ستّين عاماً، تقوم بتخويفنا من الخطر والنفوذ الإيراني المزعوم، بدلاً من قيامها بتطوير وبناء قدراتنا وقواتنا واستخدام عناصر قوتنا ووحدتنا لنكون ندّاً موازياً لإيران ولخطرها المزعوم.

فبدلاً من استقدام قواعد المرتزقة الغربية الاستعمارية إلى بلادنا، لما لا نكون نحن وإيران الجارة الإقليمية في مواجهة أخطار العدو المشترك والتاريخي (إسرائيل)، الذي يهدد دولنا وشعوبنا وثرواتنا ويشرد أبناء جلدتنا. إنه العدو القادم إلينا من كل أصقاع المعمورة ليقيم دولة عنصرية يهودية تتهدد وجودنا وحدودنا.

علينا أن ندرك جميعاً أن إيران وشعبها يشكلان جزءاً لا يتجزأ من تاريخ وثقافة وحضارة وجغرافيا المنطقة العربية الإسلامية ماضياً وحاضراً. وإيران الإسلامية لم تعبر منطقتنا المشرقية عبر المحيطات والقارات غازيةً أجنبيةً، كما فعل الغزاة الغربيون وحلفاؤهم الخونة للعراق والمحاصرون داخل مزبلتهم الخضراء في بغداد. ونحن كعرب نستنكر أعمال وممارسات القوى الطائفية والعرقية التي تعبث بالعراق العربي أرضاً وشعباً وتاريخاً وثروةً. وندين ونستنكر كذلك أن تتلقى هذه القوى المتخلفة الدعم أو المساندة، سواءً من إيران أو غيرها. نطالب إيران الصديقة بالتوقف عن مساندتها للقوى المذهبية في العراق، فالدعم كل الدعم يجب أن يوجه للمقاومة العراقية الباسلة. ومهما حاولت قوى الاحتلال زرع الفتنة وتركيب التفجيرات الطائفية هنا وهناك، سيبقى العراق لشعبه بكل مكوناته، ومصير المحتل وأعوانه حتماً إلى الزوال والاندحار، فقد أصبح حذاء الصحفي العراقي منتظر الزيدي المسلط على رأس جورج بوش رمزاً.

رحل جورج دبليو بوش وجاء باراك أوباما. وأتحفنا الرئيس الأمريكي الجديد السيد أوباما هذه الأيام بخطابه المهم الذي ألقاه في القاهرة أمام حشدٍ مختارٍ بعناية من قبل السلطات المصرية، حيث قال: (إن الفلسطينيين تحملوا الإهاناتً اليومية الناجمة عن الاحتلال، وليس هناك أي شك في أن وضع الفلسطينيين لا يطاق)؛ وصف موضوعي جداً لرئيس أمريكي يحمل بلا شك قيماً وأخلاقاً. ومن جانب آخر يدعو حماس إلى التخلي عن العنف والاعتراف بالاتفاقيات السابقة والاعتراف بإسرائيل. وسؤالنا هنا إذا ما كان هناك قرار أمريكي وجداني للإقرار والاعتراف العلني بأن الأراضي الفلسطينية التاريخية قد تعرضت

للاحتلال اليهودي الصهيوني، وأن الشعب الفلسطيني يعتبر من الشعوب الرازحة تحت نير الاحتلال. إن كان الأمر كذلك، فلماذا يطلب الرئيس الأمريكي من الفلسطينيين وقف أعمال المقاومة المشروعة، والاعتراف بالاتفاقيات السابقة وبهذا الاحتلال وسلطته المحتلة؟

لماذا وقفت أمريكا بعد حيادها وبكل قوتها إلى جانب المقاومين الأوروبيين للاحتلال الألماني النازي، ولم تطلب من المقاومة وقف العنف والمقاومة واللجوء إلى المفاوضات والتنازل من خلال هذه المفاوضات للمحتل الألماني النازي؟

أعتقد أنه على الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عامةً إن كانوا حقاً يريدون طيَّ صفحة قديمة وفتح أخرى جديدة مع العالمين العربي والإسلامي، أن يتخلوا عن المعايير المزدوجة والكيل بمكيال عادل واحد، فيعترفوا أولاً بأن فلسطين والعراق وأفغانستان والأراضي العربية والإسلامية الأخرى في سوريا ولبنان هي أراضٍ عربية وإسلامية محتلة؛ وأن يعترفوا ثانياً بحق شعوب هذه الأراضي في المقاومة والتحرير واستعادة الحقوق، سواءً أكان ذلك بالقوة المسلحة أم بالمفاوضات المدعومة بقوة الصمود والمقاومة على أرض المعركة.

ونعود لخطاب الرئيس أوباما الذي يؤكد أن الارتباط الأمريكي بإسرائيل قوي ولا يمكن فصله[1].

أشار الرئيس أوباما في خطابه إلى المعاناة والآلام التي لحقت بما أسماه الشعب اليهودي، مخالفاً بذلك المنطق والتاريخ، فيهود العالم لا يشكلون شعباً، وكما هو معروف اليهودية ديانة، كما هي حال المسيحية والإسلام. ووصف المعاناة اليهودية على يد النازية الألمانية، معتقداً بذلك أنه يحقق التوازن والاعتدال، فيقوم بتسويق حق إسرائيل بقيام دولة يهودية على أرض فلسطين العربية التاريخية، وهو بذلك أيضاً يسوّغ للغرب جرائمه المرتكبة بحق الشعب

١- ويقصد الرئيس أوباما بعبارة «لا يمكن فصله»: طبيعة العلاقة التكوينية والارتباط الأصولي التوراتي، الذي قامت بناءً عليه (كنعان الجديدة) تحت اسم أمريكا بعد إبادة الهنود الحمر على يد الرواد الأوائل البيروتانيون اللوثريون، الذين اعتبروا إنكلترا بالنسبة لهم بمثابة (مصر فرعون) والمحيط الأطلسي، الذي عبروه بمثابة البحر الأحمر، الذي يُدَّعى أن النبي موسى (عليه السلام) قد عبره إلى أرض كنعان القديمة، أرض الميعاد فلسطين. وسميت أمريكا نسبة للبحار الإيطالي الذي انطلق من الأندلس إلى أرض الميعاد الأمريكية (أمريكو فيزبوشي) تشبهاً بالآباء العبرانيين، حيث تمت إبادة أكثر من أربعمئة شعب من السكان الأصليين، وأكبرهم (شعب الكونوي الهندي). وكان العقاب البروتاني للأحياء سلخ فروة الرأس حياً حتى الموت. فلا نعجب حينما نرى تراكماً من التقدم والحضارة الغربية التوراتية التي تقبع في أسفلها مئات الألوف من جثث ضحايا العنصرية التلمودية المكتسبة، والتي تناسب القراصنة وقطاع الطرق الذين يدَّعون اليوم أنهم يحملون قيماً ومبادئ إلهية مقدسة.

الفلسطيني بارتكاب محرقة أخرى، تكفيراً عما ارتكبه الغرب المسيحي من جرائم ومحارق بحق مواطنيه من اليهود. ويشير الرئيس إلى تنكر الرئيس الإيراني لحادث المحرقة الذي مرت عليه عشرات السنوات، بينما تجاهل أي ذكر أو إشارة إلى محرقة غزة والإبادة الجماعية وجرائم الحرب والحصار والتجويع، التي لا تزال إلى اليوم مستمرة وقائمة، وهو بذلك يتنكر لحقوق ومعاناة العرب والمسلمين الذين يستنكرون جريمة الهولوكوست البشعة، بغض النظر عن جنسيات وعرقيات أصحابها. ويستنكرون أيضاً ما يقوم به الغرب من (أيقنة للهولوكوست)، والعمل على توظيف نتائجه في غير السياق التاريخي وإطاره الطبيعي الذي وقع فيه، وتوظيف التعاطف الإنساني مع ضحاياه تسخيراً لقيام دولة عنصرية استيطانية على حساب الشعوب العربية التي طردت من أراضيها وأوطانها لتصبح لاجئة محرومة من حق العودة، وبذلك يرتكب الغرب محرقة أخرى لا تقل بشاعة عن محرقته الأولى المرتكبة بحق مواطنيه من اليهود.

أسهب الرئيس أوباما بالحديث عن المشروع النووي الإيراني، متناسياً التطرق إلى الترسانة النووية من الرؤوس الحربية الإسرائيلية، وخطورتها على كامل المنطقة، وعلى الأمن والسلم الدوليين. كما تحدث عن العنف والتطرف مطولاً، متجاهلاً عمليات الاحتلال والعدوان والإبادة واستعمال القوة الطاغية والأسلحة المحرمة والتعذيب والاغتصاب والنهب التي قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها الغربيون، والتي شكلت نتيجة مباشرة للكراهية والعداء والمقاومة للغرب والولايات المتحدة وإمبرياليتها المتوحشة التي تقصف بطائراتها الحربية العملاقة بحقد وكراهية من علوٍّ شاهق لتقتل وتحرق الآلاف من البشر دون تمييز بين مدنيين ومقاتلين، ودون أي شعور بالذنب أو العار لدعاة الحضارة والديمقراطية الذين لا فرق لديهم هنا بين مدني وطفل أو امرأة أو مقاتل حينما يتعلق الأمر بالعرب والمسلمين.

وصف الرئيس أوباما الغزو والاحتلال والتدمير بالخطأ وسوء التقدير. هكذا وببساطة دون تقديم أي كلمة اعتذار واحدة أو إبداء أي أسف، ربما لأن الاعتذار ستترتب عليه محاكمات دولية لمجرمي الحرب والإبادة الجماعية من الأمريكيين والبريطانيين، ودفع التعويضات الكبيرة عمَّا قام به الغزاة التوراتيّون أدعياء الديمقراطية بحق الشعوب التي اعتدوا عليها في فلسطين والعراق وأفغانستان وباكستان والصومال.

وفي لهجة تصالحية أشاد الرئيس أوباما بدور الحضارة العربية والإسلامية في رفد تطور الحضارة الغربية. واستشهد بآيات قرآنية تحرم القتل وتدعو إلى الحوار وإلى اللقاء بين الأمم. نقدر للرئيس أوباما مطالبته بوقف الاستيطان، وهي خطوة أولى إلى الأمام، وهو يعلم أن الاحتلال ليس مضطراً لوقف الاستيطان والانسحاب من المستوطنات إلى خطوط الرابع من حزيران عام 1967، إلا إذا تعرض للخسائر البشرية والمادية والمعنوية الموجعة، كما حدث له في عدوان

عام 2006 في حرب تموز على لبنان، وأن تتوقف أمريكا والغرب عن تزويده بالأسلحة والدعم وأسباب البقاء، فالمقاومة وحدها تمكّن المفاوضين والوسطاء وأصحاب المبادرات من تحقيق أهدافهم للضغط وانتزاع الحقوق من عدو لا يعرف إلا منطق القوة وفرض الشروط العادلة عبر طبيعة المواقع على أرض الواقع الميداني.

وتحدث الرئيس أوباما عن التنمية والتطوير والتعاون والحوار. وهذا الطرح يذكرنا بالبيان الذي توجه به كولن باول وزير خارجية أمريكا عام 2003 إلى شعوب المنطقة قبل انطلاق حملة الغزو والعدوان الأمريكي على العراق بأيام، والذي تحدث فيه عن التنمية والتطوير، وحقوق المرأة ودعم التعليم، وتوسيع المشاركة، وتشغيل العاطلين عن العمل، وتحقيق الرخاء والديمقراطية في العالم العربي؛ وبشرنا بتخصيص الكونغرس الأمريكي مبلغ تسعة وعشرون مليون دولار لتحقيق هذه الأهداف في المنطقة. ويحصل كل مواطن نتيجة لهذه الخطة على أقل من عشرة سنتات لإعادة تأهيله وترويضه في مدرسة (الديمقراطية الغربية) في وقت يدفع أحد شيوخ النفط العرب أضعاف هذا المبلغ تبرعاً منه وكرماً لإطعام كلاب حديقة الحيوان بلندن، لأن كلاب الحلفاء مهددة بالجوع!

ما كان لأمريكا والغرب عموماً أن يغيروا من مواقفهم المعادية للعرب والمسلمين ولو ظاهرياً لولا الهزائم المادية والبشرية الفادحة التي ألحقتها بهم المقاومة المسلحة في كلٍّ من العراق وفلسطين ولبنان وأفغانستان، وبدعم من قوى الصمود والممانعة. وما الأزمة المالية الكارثية التي يعيشها الغرب اليوم بنظامه الربوي المتوحش إلا إحدى أهم النتائج المباشرة لعمليات المقاومة والممانعة وفشل مشروع الشرق الأوسط الجديد واندحار استراتيجية الضربات الاستباقية وما سمي الحرب على الإرهاب.

نتمنى جميعاً لجهود ونوايا الرئيس أوباما أن تكلل بالنجاح، وهو تماماً مثلنا جميعاً يدرك جيداً مقدار الضغوط والهيمنة للّوبي الصهيوني، ودور المؤسسات والشركات الرأسمالية النفطية وشركات السلاح المستحكمة، ودور الكنيسة التوراتية التلمودية الأمريكية في إدارة الأزمات وصنع القرار الأمريكي الذي يجب أن يتفق دائماً مع الرؤية التوراتية الصهيونية.

ونحن اليوم نطالب القوى الحية والفاعلة، وتلك القوى التي هللت وسوّقت للتغيير المرتقب في سياسة أمريكا أن تفعّل من ضغوطها وتستخدم قواها السياسية والمادية والنفطية لدعم نهج الصمود والمقاومة لتكون مؤثرة وضاغطة لتعريض الكيان الصهيوني للضغوط والخسائر التي ستمكن المفاوض العربي من استثمار نتائج هذه الضغوط والخسائر والضربات، كما فعل خيراً الملك فيصل عام 1973. هذا وحده ما يفهمه العدو ويرضخ له تحت وطأة قسوته. وسوف يصب ذلك في خدمة محاولات الرئيس أوباما الذي ألمح في كلمته إلى أنه غير قادر على فرض

شروطه على الأطراف المختلفة؛ وأن على العرب أن يقوموا بدورهم وأن يتحملوا مسؤوليتهم. وهي رسالة مبطنة للعرب عليهم أن يستوعبوا مراميها، لأن اللبيب من الإشارة يفهم.

مع كتابة آخر صفحات هذه الخاتمة طرأ على الساحة السياسية خطاب سياسي لرئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو، وهو خطاب يدخل في خانة الرد على خطاب الرئيس الأمريكي باراك أوباما، ويمكننا التطرق لبعض ما جاء في خطابه الذي ألقاه في مركز بيغن السادات في القدس المحتلة.

جاء الخطاب وبشكل عام معبراً عمّا تكنه الضمائر والعقليات السياسية والروحية الصهيونية، والمبنية بكل أطيافها السياسية والثقافية، يميناً ووسطاً ويساراً، على تطبيق التعليمات والإضافات التوراتية والتلمودية. وترتكز على تاريخ مشوه مدَّعى لا ينتمي إلا إلى الأسطورة والخرافة. وما قاله نتنياهو جاء مؤكداً أهمية ما قمت بتحليله وكتابته مستبقاً للحدث في الفصول الثلاثة الأخيرة من هذا الكتاب، بما يتعلق بحلِّ الدولتين وحتمية قيام الدولة الواحدة، يقول ما معناه أن الشعب اليهودي عاد إلى أرض أجداده أرض الميعاد، حيث كان هناك إبراهيم وإسحق ويعقوب (عليهم السلام)، وقبل ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة؛ وأن أجداده أورثوا التوراة للعالم، وذكَّرَنا بالمؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في سويسرا عام 1897م، وبمؤسس الصهيونية الحديثة: هرتزل. وتحدث بما جادت به مكنونات النفسية اليهودية الصهيونية وبما تحمله من شرور وأهداف مبيتة تستهدف شعوب المنطقة (عرباً ومسلمين). وأثبتت أقواله خداع وتلاعب من سبقوه في الحكم من الصهاينة، وأن المفاوضات السابقة كانت مضيعة للوقت لخداع الفلسطينيين والعرب والعالم أجمع، بغرض كسب الوقت وانتحال الذرائع والحجج، وافتعال الحروب هرباً من استحقاقات السلام والعدل والتعايش بأهداف مبيتة منهجية تفرض من خلالها سياسة الأمر الواقع وتمرير مشاريع الاستيطان والجدار والتهويد، وشطب حق العودة، وسلب وتهويد القدس، وصولاً لتحقيق سياسة الترحيل (الترانسفير) لإفراغ فلسطين التاريخية والجغرافية من سكانها العرب، وإقامة الدولة اليهودية النقية.

لكن هذه الأهداف لا يمكن تحقيقها إلا بعد إسقاط مشروع قوى المقاومة والممانعة وهزيمتها. لقد تنكر نتنياهو لكل الاتفاقيات والمفاوضات والقرارات الدولية والإنسانية، بما في ذلك خارطة الطريق الأمريكية، والرباعية الدولية.، وحرَّض الفلسطينيين على الاقتتال فيما بينهم، إمعاناً منه في تحقيق شروط الانهزام للفلسطينيين بوقف المقاومة والاقتتال الداخلي. وأشار إلى اتفاقية كامب ديفيد المذلة وما احتوته من (حكم ذاتي محدود)، فلا حق للعودة ولا للقدس عاصمة للدولة العتيدة، ولا لدولة ذات سيادة؛ إنه حكم ذاتي محدود يأخذ شكلاً من أشكال روابط القرى البائدة، مع ما يترتب على هذا الحكم الذاتي، فالدولة هنا

عبارة عن مكاسب ومغانم لسلطة يجب أن تكون مستسلمة ومهيمنة وتابعة، تقوم بالتوقيع والتنازل والتفاوض إلى ما شاء الله، نيابة عن الفصائل مجتمعة وعن منظمة التحرير الفلسطينية، بل نيابة عن العرب والمسلمين جميعاً.

بالنسبة لإسرائيل اليهودية ستعني الدولة الفلسطينية السلطة دون الأرض: جواز سفر ونشيد وعلم وطني، وسجاد أحمر، وتنسيق أمني اقتصادي، وثلاجة إسرائيلية ليس إلا: فلا سيادة، ولا مياهاً، ولا أجواء، ولا جيشاً وطنياً، ولا اتصالاً مع المحيط، أو حدوداً يسيطر عليها، لا قدس كعاصمة، لا معابر (الجنرال الأمريكي الصهيوني دايتون) في مواجهة المقاومة، مع معاناة وإهانات على الحواجز. ويعود بنا الإرهابي نتنياهو إلى المربع الأول 1948، وحسناً فعل، فمن السذاجة والغباء السياسي أن ينسب بعض المعتدلين "البراغماتيين"، وبوضوح أكثر الانتهازيين، ما آلت إليه الأمور في هذا الصراع المصيري إلى استيلاء اليمين المتطرف على مقاليد السلطة في كيان العدو؛ كفانا تمنية للنفس وهروباً من الحقيقة المرة.

و بعد خطاب الرئيس أوباما في القاهرة وحديثه عن شعبين ودولتين، يرد الإرهابي إيهود باراك وزير الحرب الصهيوني العمالي اليساري على خطاب باراك أوباما في مقابلة مع أتسفاركيرت في صحيفة هآرتس الصهيونية قال فيها متهكماً: (أين يعيش الشعب الثاني؟ - ويقصد الفلسطينيين - في قفص؟ في سجن؟ في بركة سباحة؟ إنه يعيش في دولته)[1]. لاحظوا معي طبيعة المكر والخداع والنفاق الصهيوني: الفلسطينيون يعيشون في دولتهم المستقلة ذات السيادة، بينما في الواقع لا يستطيعون التنقل بحرية من قرية إلى أخرى؛ ليست لهم أي حقوق مدنية، فهم مهانون على الحواجز، ويقطع جدار الفصل العنصري أوصال أراضيهم، وتُدَمَّر مزروعاتهم، وتُهَدَّد أسباب عيشهم، ويُعتقلون خطفاً من الشوارع، ويُقتل أبناؤهم يومياً، ويساقون للمعتقلات والسجون دون محاكمات أو بمحاكمات سياسية عنصرية، وتُسرق مصادر مياههم، وتُصادر ممتلكاتهم، وتُهدم بيوتهم، وتُقتلع أشجارهم، ويُمارس التمييز العرقي ضدهم؛ أي نفاق واحتقار لحقوق الإنسان؟! أي دولة تلك التي يتحدث عنها الإرهابي العمالي إيهود باراك؟!

وماذا كانت ردة فعل الإدارة الأمريكية والدول الغربية؟ لقد عبرت في معظمها عن ارتياحها وترحيبها بخطاب نتنياهو العنصري، واعتبرته خطوة في الاتجاه الصحيح؛ واعتبره آخرون منهم خطوة على طريق السلام المنشود. إلى متى ستظل دول وحكومات الغرب تستغبي البعض من شعوبنا وحكامنا العرب،

١- تشرين السورية العدد 10520 تاريخ 2009/6/16 عن هآرتس ترجمة عدنان جبر.

وهي النظم الأصولية الغربية الغارقة حتى أذنيها في مستنقع قذارة الأيديولوجيا والمبادئ الصهيونية التلمودية المتطرفة؟

كان على البعض من القادة العرب الذين تقدموا بمشروع السلام العربي في قمة بيروت عام 2002، لا سيما أولئك الذين أعلنوا أن السلام خيارهم الاستراتيجي والوحيد، أن يقتاتوا اليوم على فتات أوراق مشروعهم السلمي المعتدل الذي ضرب به نتنياهو عرض الحائط، أو أن يستفيقوا من غفوتهم وسباتهم وينهضوا متوحدين ليستنصروا مجتمعين لكراماتهم وأوطانهم ومقدساتهم ودياناتهم وشعوبهم التي يتهددها الإرهابي نتنياهو وعصابته. فلا تزال أمامنا الفرصة الكافية لمراجعة الذات ورصّ الصفوف والعودة بنا جميعاً إلى جذور وأسباب هذا الصراع الذي يستهدفنا جميعاً اليوم كما يستهدف أجيالنا القادمة.

على الذين يعلنون رفضهم صراحة لخيار المقاومة، ويتآمرون على حق العودة إلى فلسطين التاريخية والأراضي العربية المحتلة أو يقايضون عليها، أن يعودوا لما أقرّته الشرائع السماوية والفطرة الإنسانية وحتى الحيوانية التي فطر الله المخلوقات جميعاً عليها.

فمن الحشرة حتى الحيوانات، وإلى الإنسان، وضع الله المقاومة الغريزية للعدوان، والتمسك بحق البقاء فيها، ووفر لكل مخلوقاته الأسباب اللازمة للدفاع عن النفس.

شرعياً، أعاد الله السيد المسيح (صلى الله عليه وسلم) من مصر إلى فلسطين بعد هروب ولجوء والدته القديسة مريم به إلى هناك، خوفاً عليه من الإبادة والقتل على يد الحاكم هيرودس.

حقق السيد المسيح بجهاده ومقاومته حق العودة لوطنه ومولده وثقافته الفلسطينية. كما وعد الله تعالى رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم بعودته من الهجرة القسرية من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة موطنه ومسقط رأسه، هذه العودة كانت بالصبر والجهاد واستنصاراً له ولأتباعه في حق العودة إلى أرض الوطن.

فمن يستطيع في هذا العالم المتحضر حرمان الآخرين من حقهم في المقاومة، وحقهم بالعودة إلى أوطانهم؟

ثبت الأعلام

الأعلام العرب حسب الترتيب الأبجدي:

أحمد سوسة:

من بلدة الحلة في العراق. ولد سنة 1900م. درس الهندسة في الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1923، ثم تابع دراساته الهندسية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان أول مهندس عراقي يتخرج من الجامعات الأمريكية. حاصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة جونز هوبكنز سنة 1929 بدرجة الشرف. عاد إلى وطنه العراق ليعين في دائرة الري العراقية. مثَّلَ بلده في العديد من البعثات والمؤتمرات الدولية. من المشاركين الرئيسين في تأسيس المجمع العلمي العراقي سنة 1940. ألف أكثر من خمسة وأربعين كتاباً في مختلف صنوف العلم والمعرفة في الهندسة والري والجغرافيا والتاريخ. ألف كتابه الشهير (العرب واليهود في التاريخ) عام 1972. حائز على شهادات تقدير عديدة، ويعتبر كتابه من المراجع التاريخية المهمة التي يعتد بها علمياً.

الحافظ بن كثير:

أبو الفداء الدمشقي المؤرخ. ولد سنة 700 هجرية في بصرى شرقي دمشق. بلغت مؤلفاته 29 كتاباً منها: تفسير القرآن العظيم، وقصص الأنبياء. وله كتابات كثيرة في الفقه والتفسير والتاريخ والترجمة. ومن أهم موسوعاته الكبيرة (البداية والنهاية). توفي عن عمر يقارب 74 عاماً.

صلاح الدين الكلاس:

كاتب وباحث إسلامي متخصص في التفسير (منهج القرآن في فهم القرآن). وهو باحث جغرافي وجيولوجي أكاديمي. من كتبه المهمة (التشابه)، إضافة إلى سلسلة من الكتب والبحوث في قصص الأنبياء، ومنها كتابه المهم (موسى عليه السلام).

مصطفى بوهندي:

أستاذ التفسير ومقارنة الأديان في جامعة الحسن الثاني المحمدية الدار البيضاء، المغرب. حاصل على دكتوراه (دولة) من جامعة الحسن الثاني في

أطروحته للدكتوراه "العقائد النصرانية وعلم التفسير الإسلامي" (دراسة تحليلية مقارنة).

الأعلام الأجانب حسب الترتيب الأبجدي:

أبراهام بورغ:

رئيس سابق للكنيست الإسرائيلي، ووزير داخلية سابق تقلد عدة مناصب مهمة في دولة الاحتلال الصهيوني. من أصول يهودية من دول أوروبا الشرقية. باحث وكاتب. من أهم كتاباته: الانتصار على هتلر (هزيمة هتلر). ويعتبر من كبار نقاد الفكر الصهيوني الحديث.

إسرائيل فنلكشتاين:

رئيس قسم علم الآثار في جامعة تل أبيب. بروفيسور في قسم الآثار. وهو إسرائيلي من أصل ألماني حاصل على الدكتوراه في علم الآثار من جامعة تل أبيب عام 1983، مدير مشارك في أعمال التنقيب الأثرية المختلفة في فلسطين المحتلة، وله عدة كتب في مجال البحث الأثري.

أندريه نايتون:

من ألمع علماء التاريخ في فرنسا. أمضى أكثر من ثلاثين عاماً في تدريس علم الأديان المقارنة في جامعات فرنسا. من أهم مؤلفاته: المفاتيح الوثنية للمسيحية، الأصول الوثنية للمسيحية. دكتور أستاذ في جامعات فرنسا.

توماس طمسن:

أستاذ الدراسات الكتابية من التابعية الأمريكية. درس في كل من أكسفورد وتبنغن بألمانيا، وفي فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية. تقدم برسالة الدكتوراه في عام 1971 إلى جامعة تبنغن عن موضوع الآباء الأولين، لكنها رفضت. نال شهادة الدكتوراه عام 1974 من جامعة تمبل بولاية فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية. نشر ما يزيد عن 150 مقالة علمية في موضوع الدراسات الكتابية. نشر عشرة كتب آخرها: الماضي الخرافي، التوراة والتاريخ. يعمل أستاذاً محاضراً في كلية اللاهوت بجامعة كوبنهاغن.

سيغموند فرويد:

عالم علم النفس. نمساوي يهودي. أصدر مجلة (إيماغو) في فيينا، وهي مجلة متخصصة في التحليل النفسي المطبق على علوم الطبيعة والفكرة. من أهم كتاباته: (الطوطم والتابو) عام 1912، وكتابه المهم (موسى والتوحيد) الذي نشره في لندن عام 1938 قبل وفاته الغامضة عام 1939، وبعد أن حذره اليهود من نشر هذا الكتاب.

سيمسون نايوفيتس:

عمل رئيساً لتحرير إذاعة فرنسا الدولية في باريس، حيث كتب وأذاع موضوعات عن أساليب الحياة والسياسة والدين. وقد نُشِرت مقالاته وقصصه وقصائده في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. فاز بجوائز مجلس الفنون الكندي، ومجلس الفنون بيكيبك. وكان قد تخرج في جامعة كونكورديا، حيث تخصص في أنساق المعتقدات الدينية.

شلوموزاند:

مؤرخ في التاريخ الحديث. أستاذ في جامعة تل أبيب. يعتبر من النقاد الكبار للفكر الصهيوني ويهودية الدولة. من أهم كتاباته: متى وكيف اخترع الشعب اليهودي، الشتات (الدياسبورا).

ليف غوميليوف:

بروفيسور روسي مؤرخ وجغرافي وأثنولوجي. درس في مدينة لينينغراد السوفيتية. دخل الجامعة لدراسة التاريخ عام 1934. عالم في الآثار واللغات. عاصر واشترك في الحرب العالمية الثانية. له مؤلفات عديدة، منها: قبائل الهون، اكتشاف خازاريا[1]، في دوامة التاريخ[2]. وهو عالم من علماء الطاقة.

مونتغمري وات:

مستشرق بريطاني أعد رسالة دكتوراه عن القضاء والقدر عند المسلمين في القرون الهجرية الأولى. له مؤلفات عدة منها: محمد في مكة، محمد في المدينة، فكرة الكسب والاكتساب. نشر مقالات عديدة في دائرة المعارف الإسلامية (ليدن). درس الإسلام لأكثر من ثلاثين عاماً متواصلة منذ عام 1937. ويعتبر من المدافعين عن الصلات المشتركة بين الإسلام والمسيحية. عمل في الأسقفية الأنجليكانية في القدس عام 1947.

١- صادر عن دار علاء الدين للنشر.
٢- صادر عن دار علاء الدين للنشر.

نيل إشر سلبرمان:

مؤلف وباحث (أمريكي يهودي). خريج جامعة ويزيليان في الولايات المتحدة. مؤلف عدة كتب في مجال علم التاريخ والآثار. يعمل في مشاريع دولية مختلفة في علم الآثار والتراث. من أهم كتبه: بحثاً عن إله ووطن.

يان أسمان:

أستاذ علم المصريات في جامعة هايدلبرغ. له مؤلفات عديدة. نال عام 1998 الجائزة الألمانية الخاصة بعلماء التاريخ. وهو أحد ناشري طبعة فرانكفورت الكبيرة لمؤلفات توماس مان مع شرحها. من أهم مؤلفاته: التمييز الموسوي.

مصادر البحث

1- تفسير القرآن الكريم، السيوطي.
2- العهد القديم، دار الكتاب المقدس للعالم العربي، بيروت 1981.
3- العهد الجديد، دار الكتاب المقدس للعالم العربي، بيروت 1981.
4- الكتاب المقدس، جمعيات الكتاب المقدس في الشرق، بيروت 1999.
5- مصر أصل الشجرة ج1+ج2، سيمسون نايوفيتس، ترجمة أحمد محمود، مكتبة الشرق الدولية القاهرة 2006.
6- التمييز الموسوي، يان أسمان، ترجمة حسام الحيدري 2006، منشورات الجمل، ألمانيا، كولونيا، بغداد.
7- بحثاً عن إله ووطن، نيل سلبرمان، ترجمة أحمد محمود، مكتبة الشروق الدولية المصرية القاهرة 2006.
8- في دوامة التاريخ - النهاية والبداية، ليف غوميليوف، ترجمة د. نواف القنطار، دار علاء الدين، دمشق 2008.
9- اكتشاف خازاريا (بلاد الخزر)، ليف غوميليوف، ترجمة توفيق فائق نصار، دار علاء الدين، دمشق 2007.
10- اليهود والعرب في التاريخ، د. أحمد سوسة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة السابعة، دمشق 1990.
11- الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، و. مونتغمري وات، ترجمة د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1998.
12- التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها، أ. إسرائيل فنكلشتاين، نيل سلبرمان، ترجمة سعيد رستم، دار الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق 2005.

13- الأصول الوثنية في المسيحية، أندريه نايتون، من أجل الحقيقة (4) منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، ترجمة سميرة عزمي الزين 1991.
14- القصص الحق موسى (صلى الله عليه وسلم)، صلاح الدين الكلاس، دار البشائر، دمشق 2007.
15- أبراهام بورغ، الانتصار على هتلر، صحيفة هآرتس العبرية، عدد 2007/6/8.
16- شلوموزاند - متى وكيف اخترع الشعب اليهودي، ترجمة سليمان دباغ هآرتس العبرية 2008/3/12.
17- قناة الجزيرة الفضائية، قناة الدنيا الفضائية، قناة القدس الفضائية.
18- ياقوت الحموي، معجم البلدان، الطبعة الأوربية (مادة الخزر 3).
19- يوري إيفانوف، حذار من الصهيونية، ترجمة محمد كامل عارف.
20- يقظة العالم اليهودي، إيلي ليفي أبوعسل، طبعة مصر 1934، القاهرة (تحت الانتداب البريطاني).
21- شريعة العشائر في الوطن العربي، فاروق كيلاني، مجلة المصور المصرية، عدد 1958/10/10، القاهرة.
22- خير حماد، الصهيونية، ص 87.
23- كتاب الثقافة القومية الاشتراكية للصف الثاني، جامعات القطر العربي السوري، 1973.
24- صحيفة تشرين السورية.
25- التاريخ بين الأسطورة والواقع، د. أحمد برقاوي، مجلة الأمل الفكرية، فصلية دمشق، العدد الأول.
26- المدار العراقية، د. رفعت سيد أحمد، العدد 231.
27- الدكتور مصطفى بوهندي، التأثير المسيحي في تفسير القرآن الكريم، المغرب، دار الطليعة، بيروت 2004.
28- إسرائيل قبالة تاريخها، نص مبين لمدرسة المراجعة التاريخية، إعداد وترجمة غازي أبوعقل، مجلة الأمل، عدد 2.
29- الماضي الخرافي، التوراة والتاريخ، توماس طمسن، ترجمة عدنان حسن، دار قدمس، دمشق 2001.
30- wilson john in near Estren Texts Relating to Old Testament pp 365-366 (ديانات الشرق الأدنى القديم استناداً إلى العهد القديم).
31- Lichhe in-Miriam- Ancient Egyptian Literat ureVolmiip 95.
32- Din - Dunlop (The Jewish Kazars) N.Y1967 (schockeb Book) (اليهود الخزر).
33- John Beaty (The Iron cortain over Americca) Dalas Texas -II- 1956(2)

(الستار الحديدي حول أمريكا).
34- Ncocolo: History of Zionosm - VolIIp366
(تاريخ الصهيونية).
35- R.W.Rogers (coneirorm parallels-pp-268-278-A-G-Barton Askech of Semitic Origins -pp-303-306
Jeremias - The old Testemnt in Light of East Vol II p27-36
(العهد القديم في الشرق القديم).
36- Jeffries (p) palstine (The Realty) p.30
(فلسطين الحقيقية).
37- Froyd - Toten and Tabu - c.t 912
(الطوطم والخفي المحرم)، سيغموند فرويد.
38- pp.22-6(Baal) EL. Yaweh. and His. Asherah. othmarKeel and Christoph. Uehlinger. Goddesses and Images of God ina ncient Asrael Minneapolis. fortress press 1998 ISBN-O-8006-2789-X
(إله إسرائيل يهوه وزوجته عشيرة).
39- من التوحيد إلى الأسطورة، وليد مدفعي، دمشق.

المؤلف في سطور

- ناشط سابق في حركة القوميين العرب. وعضو سابق في الاتحاد الاشتراكي العربي.
- عضو سابق في اتحاد عمال فلسطين ولجان دعم الانتفاضة الفلسطينية والسورية.
- ناشط في مجال التعاون والتنسيق مع منظمات المجتمع الأهلي الأوروبية (لجان دعم حق العودة ومكافحة الاستعمار والعولمة والتمييز والعنصرية). وله اتصالات وعلاقات ناشطة مع فعاليات حوار الحضارات والثقافات، وله أيضاً عدة محاضرات ومقالات ومشاركات بهذا الخصوص في المجلات العربية والأجنبية ووسائل الإعلام المختلفة.

صدر للمؤلف

1- الإمبريالية والصهيونية بين الكتاب المقدس وتزوير التاريخ.
2- التوحيد في مواجهة الأمركة والتهويد.
3- التلفيق الصهيوني، الأكذوبة الكبرى، أرض الميعاد وشعب الرب.
4- أبُـُـُـٌ هو إبليس.

الفهـرس

المقدمة..... 7

الفصل الأول 15

الإنســـــان والبحـــــث عـــــن الله

الفصل الثاني 39

مــن الخاســوت إلى الغــويم شــعب الــرب

الفصل الثالث 69

مصـــــر، أول التوحيـــــد، أخنـــــاتون

الفصل الرابع 99

الخـــروج بـــين الأســـطورة والحقيقـــة

الفصل الخامس 135

الحصـــار، الجـــدار، الأســـوار، الانعـــزال

الفصل السادس 167

هـــل يشـــكل يهـــود العـــالم شـــعباً؟

الفصل السابع..... 195

استشـــراق، استكشـــاف تبشـــير، احـــتلال

الخاتمة..... 239

ثبت الأعلام 253

مصادر البحث..... 257

المؤلف في سطور 260

صدر للمؤلف..... 260